تراث

شهرية تصدر عن نادي تراث الإمارات
السنة الثامنة - العدد ٨٧
ذي الحجة ١٤٢٦هـ/ محرم ١٤٢٧هـ- فبراير ٢٠٠٦م



- محمد يوسف يقول لكم: أطالب بالتجديد وأعشق القديم
- الجزيرة الحمراء.. تاريخ وذاكرة
- التاريخ وأسماء الشهور العربية
- مسجد تنمل في المغرب
- القبة المنصورية في القاهرة
- السقوف الخشبية في الجزائر
- الصابون النابلسي في فلسطين
- الحكاية الشعبية في اليمن
- التطعيم بالصدف.. تراث وفن دقيق

عاشق التراث.. الفارس الذي ترجل

صدر حديثاً
عن نادي تراث الإمارات

التقويم الهجري
بالتوقيتين الزوالي والغروبي
١٤٢٧ هجرية/٢٠٠٦-٢٠٠٧م
1427

أوّل القرطاس

نرثي كبارنا، لا لنقول كلمة لابد منها في المناسبة، وإنما لنطبع بالحبر على القرطاس توثيقاً للحقيقة، وشهادة للتاريخ. وفي تاريخ أي دولة أو أمة ترد أسماء تسجل توقيعها على وثيقة التأسيس وطلقة البداية. ثم يذهب أصحاب هذه الأسماء إلى حيث الأجل المحتوم، ولكن الأسماء تبقى ببصمتها كالرحيق المختوم، فتتعاقب الأجيال، وتمر الأزمنة، ويتغير البشر، وتختلف الوجوه في هذه السدّة أو تلك، وقد يبقى من هذه الوجوه العابرة أثر لإنجاز أو اختراق تاريخي، وقد تندثر الكثير من الصور وإن كانت في وقتها أكبر من عين الشمس في سمائها، ولكن أسماء المؤسسين، وتوقيعات الرواد تبقى في حماية الزمن من كيده وتقلباته، وتظل صورة ووجوه هؤلاء حاضرة في الذاكرة، تقفز إلى الواجهة كلما مر للوطن ذكر، وذكر الأوطان في صدور وعقول الناس أصبح شريطاً مصوراً يمر على مدار الساعة بلا انقطاع.

الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم رحمه الله، كان واحداً من أصحاب تلك التوقيعات المختومة في طبقات أرض الإمارات، الوطن والأرض والتاريخ، فقد كان مكتوم من مؤسسي دولة الإمارات العربية المتحدة قبل أن يكون حاكماً لدبي، وكان رفيقاً ومرافقاً للقيادة المؤسسة في كل خطوات التحضير والتأسيس والبناء لدولة الاتحاد. وكان أول رئيس لحكومة دولة الاتحاد، فاطلع بدور القيادة التنفيذية وهي تشق طريقها بتعليمات من القيادة العليا، لبناء مؤسسات الدولة، وتوزيع اختصاصاتها، وتعميم الطابع الاتحادي عليها. ومع تلك الانطلاقة الأولى، وما تلاها من تحولات كان الشيخ مكتوم يقف على رأس السلطة التنفيذية من ناحية، وإلى جانب القيادة العليا يسترشد برؤيتها ويعمل لتنفيذ توجيهاتها من ناحية أخرى.. حتى أصبحت الإمارات دولة مندمجة يتجاوز واقعها الوحدوي مسماها الاتحادي.

وفي سنوات، قليلة في عمر الأمم، أصبح على هذه الأرض جيل اتحادي يعرف الكثير، وأبسط ما يعرفه من التاريخ أنه كان على الدوام مترابطاً بصلة القربى رغم حدود السياسة وخطوط الجغرافيا التي زالت، ولله الحمد، بزوال أسبابها، وعادت اللُحمة عندما صفت النوايا، وتصدى للمهمة رجال وضعوا الوطن والمواطن في قلوبهم وداخل عقولهم، وكان مكتوم رحمه الله أحد أبرز الطاقات الشابة التي اعتمد عليها القادة في صنع هذا الحلم، وإحالة الحلم إلى حقيقة.■

عادل خزام الراشد

محتويات العدد



■■ الغلاف



لقاء

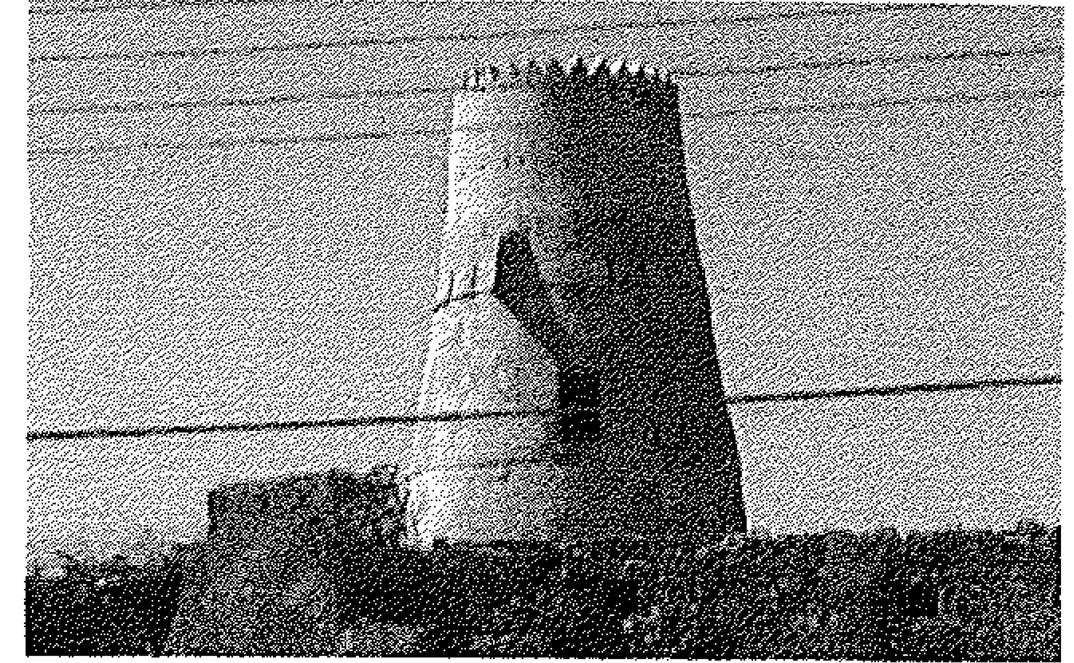
لغة وآداب



شخصيات

مقالات

دراسات وبحــوث





■■ **فيض المشاعر:**

إشراف محمد الحديدي

زوايا ثابتــة



تراث

مجلة شهرية ثقافية منوعة تصدر عن
نادي تراث الإمارات - العدد (٨٧) - السنة الثامنة
ذو الحجة١٤٢٦هـ / محرم ١٤٢٧هـ - فبراير ٢٠٠٦م

المراسلات:
نادي تراث الإمارات، ص.ب: ٢٧٧٦٥ أبوظبي
الإمارات العربية المتحدة، هاتف: ٤٤٦٦١١٦
فاكس: ٤٤٣٠٨٨١ (٠٢)
بريد الكتروني
email: turathmag@yahoo.com

ثمن النسخة
الإمارات ٥ دراهم، قطر والسعودية ٥ ريالات
البحرين والكويت ٥٠٠ فلس، عُمان: ٥٠٠ بيسة
مصر: ٥ جنيهات، اليمن: ١٥٠ ريالاً
الأردن: دينار ونصف
الدول العربية دولار أمريكي واحد
أوروبا وأمريكا والدول الأجنبية ٢ دولار

مندوبو تراث:
■ القاهرة: عبد العال الباقوري
محمول: ٠٠٢-٠١٠-١٦١٠٢٠٩
■ الأردن: د. ثابت ملكاوي
محمول: ٠٠٩٦٢-٧٩-٥١١٨٨١٢
■ اليمن: محمد السيد
محمول: ٠٠٩٦٧-٧-٣٦٦-٤٦٩٦

الاشتراك السنوي (درهم)

	محلياً	خليجياً	عربياً
أفراد	٨٥	٢٠٧	٢٧٩
مؤسسات	١٥٠	٢٦٧	٣٣٩

التجهيز الطباعي
قسم الإعلام - نادي تراث الإمارات

أهلاً بكم

ترحب مجلة «تراث» بمساهمات الكتاب والقراء والتي تتعلق بالتراث والتاريخ باعتبارهما الخط الأساسي للمجلة، موضحة أن المقالات التي يتم نشرها تعبّر عن وجهة نظر أصحابها وليس بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.. ونحن نرحب بالمقالات والمساهمات وفق المعايير التالية:

■ أن تكون المقالات جديدة.. ومخصصة لمجلة تراث فقط.. ولم يسبق نشرها.. ومرفقة بصور حديثة وملونة للموضوع.

■ أن تكون المساهمات مطبوعة على الحاسب الآلي أو الآلة الطابعة على وجه واحد من الورقة.. مذيلة بالمراجع التي تم استقاء البحث منها، مع تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

■ زاوية «خزانة الكتب» التي يتم فيها استعراض الكتب القديمة أو الحديثة هي من اختصاص هيئة التحرير فقط.. ونعتذر عن عدم قبول أي مساهمات في هذا المجال.

■ التحقيقات والاستطلاعات واللقاءات مع كبار المفكرين والشخصيات هي من اختصاص هيئة التحرير، أو بطلب مباشر منها.

■ المقالات التي يتم الاعتذار عن عدم نشرها ليس بالضرورة لعدم جودتها، وإنما قد تكون المجلة سبق لها أن نشرت موضوعاً أو عدة موضوعات حول الفكرة نفسها ولا ترغب في المزيد أو منعاً للتكرار.

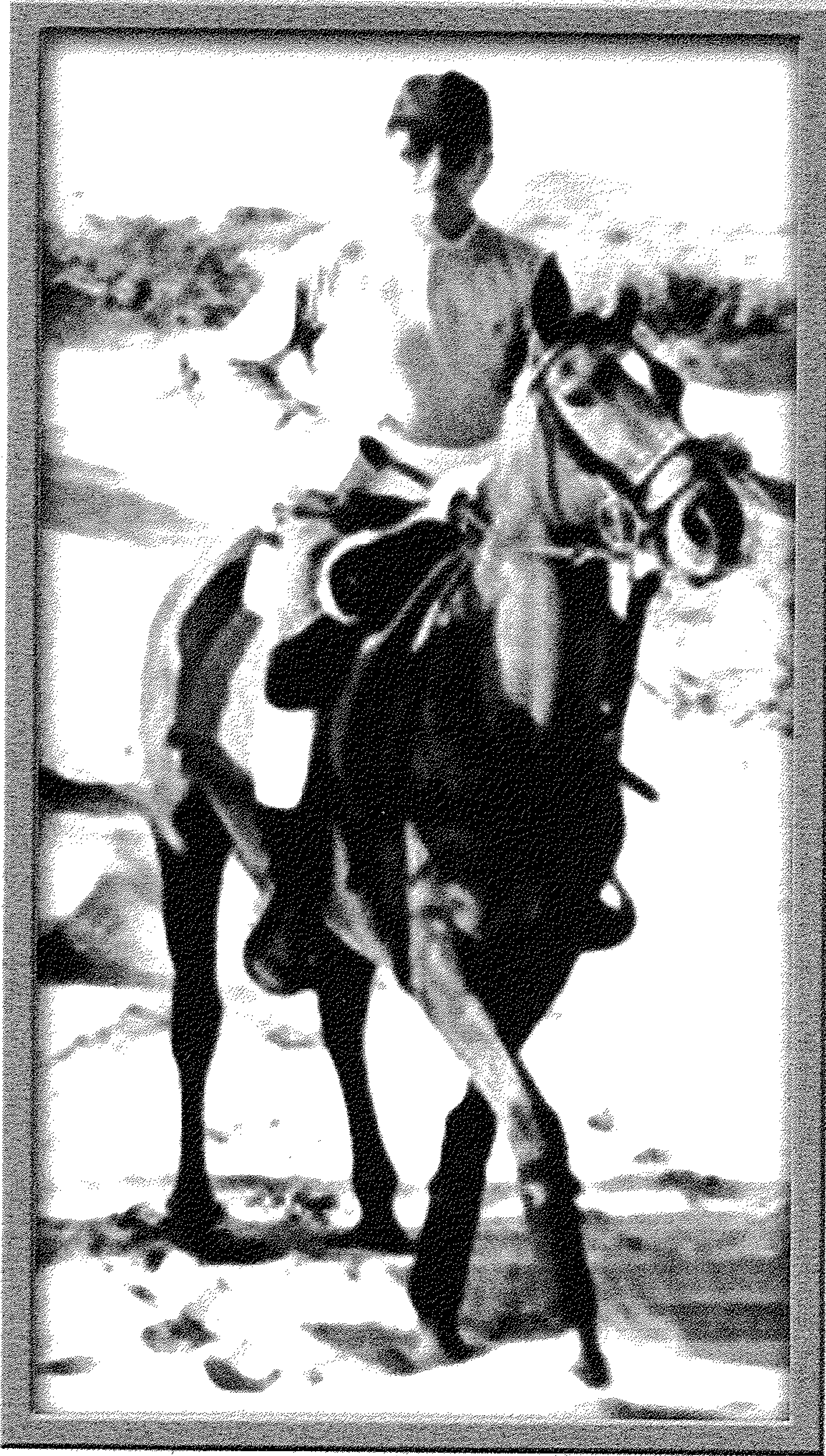
■ المجلة غير مسؤولة عن إعادة المقالات أو المساهمات - التي لم تنشر - إلى أصحابها.

■ قد يتأخر نشر بعض المساهمات نظراً لارتباطها بمناسبة معينة، أو لكثرة المساهمات التي تصل من السادة الكتّاب.

■ المساهمات أو المكاتبات التي تنشر في زاوية «رسائلكم وصلت» لا تخصص لأصحابها مكافآت مالية.

■ عند استلام المساهمة.. يتم إخطار الكاتب بوصولها موضحاً إن كانت تحت الدراسة أو الاعتذار عن عدم النشر، وفي حال النشر يتم إرسال نسخة من العدد المنشورة فيه للكاتب.

■ ترجو المجلة من السادة الكتّاب أن يوضحوا في ورقة منفصلة اسم الكاتب ثلاثياً على الأقل، وأرقام الهواتف أو الفاكسات أو البريد الإلكتروني والعنوان البريدي الذي يمكن الاتصال به عن طريقه، ورقم حسابه في البنك الذي يتعامل معه حتى يمكن إرسال المكافآت المالية بطريقة أسرع وأكثر سهولة. وفق النظام المالي المعمول به في المجلة.



عاشق التراث..
الفارس
الذي ترجل

فارس آخر من فرسان بلادنا ترجل تاركاً خلفه ميراثاً كبيراً من الإخلاص والعطاء في مسيرة التطور والبناء.. فارس كان يعشق التراث.. وفي الوقت نفسه يعطي بسخاء من أجل مسيرة التجديد والنماء.. وبغيابه يغيب نجم كان ضوؤه ساطعاً لامعاً.. بارزاً مميزاً.. رغم أن سماء بلادنا مليئة بالنجوم. ترجل الفارس الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم يرحمه الله وهو في قمة عطائه.. فكان نعم القائد.. ونعم الراعي الأمين على رعيته.. الحريص على مصلحتها وخيرها.. الرقيب على شؤونها وما يحقق نفعها ورفاهيتها. أعماله الخيرة الكثيرة تشهد له قبل أن نتحدث عنها أو نحاول أن نحصيها.. فهي أكثر من أن تحصى.. وأعظم من أن تعد.. لأنه كان يعطي فلا تعلم شماله ما أعطت يميله.



لقاء ودي مع المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

ولعل جائزة دبي للقرآن الكريم كانت واحدة من أبرز أعماله التي نعلمها ويمكن أن نتحدث عنها لأن العالم كله ذكرها وأثنى عليها.. وهي كما قال عنها سعادة ابراهيم بوملحة رئيس اللجنة المنظمة للجائزة: «إنها وصلت إلى العالمية وذاع صيتها وانتشر في بقاع الأرض.. تخدم القرآن الكريم وحفظته.. وتستضيف رجال العلم والدعوة إلى الله.. وتكرم كل من خدم القرآن الكريم وعلومه ومن خدم الإسلام، هي أحد المنجزات الكبيرة والعلامات المضيئة التي أنشئت وتحققت على أرض دبي الكريمة المعطاءة وكانت إحدى المآثر الكريمة التي وجه بإنشائها الفقيد الكبير المغفور له بإذن الله الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم طيب الله ثراه.. وأمر بها وأسسها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي».

وأشار بوملحة إلى أن الجائزة وصلت اليوم إلى هذا المستوى الرائع والمتميز بفضل الدعم اللامحدود من فقيد الوطن، حتى تفرعت أغصانها لرعاية النشء وتوفير البيئة الصالحة، وشملت عنايتها ورعايتها مواطني الدولة والمقيمين على أرضها من خلال المسابقة الدولية للقرآن الكريم، التي أنهت وبنجاح عامها التاسع، وتشارك فيها وفود وحفظة يمثلون سنويا أكثر من ثمانين دولة وجالية إسلامية في العالم، يفدون خلال شهر رمضان إلى دبي وتتم استضافتهم ويتم تكريمهم جميعاً نظير حفظهم لكتاب الله، وتلبيتهم الدعوة والمشاركة في هذا الحدث الإيماني الكبير المرتبط بشهر الخير والنور والبركة شهر رمضان المبارك. وكذلك المسابقة المحلية للقرآن الكريم التي فتحت أبوابها للجنسين ذكوراً وإناثاً مواطنين ومقيمين على أرض الدولة، وهي تبلغ عامها السابع خلال شهر محرم الحالي، وكذا اهتمت بحفظة القرآن من المواطنين وكرمتهم خلال السنوات الثلاث الماضية، وهي مستمرة في فرع الحافظ المواطن لزرع الاهتمام بحفظ القرآن الكريم في نفوس أبناء الدولة، ولتخريج من يمثل الدولة في المسابقات القرآنية الدولية، وأصبح

عدد المواطنين المؤهلين لذلك يفوق المائة حافظ وحافظة لكتاب الله. كما اهتمت الجائزة بنزلاء السجون والمؤسسات العقابية فهيأت لهم البيئة المناسبة لحفظ كتاب الله الكريم، وسخرت كل الإمكانات من الكوادر البشرية للإشراف على حفظهم لكتاب الله وإجادتهم لترتيله وتجويده، ثم الاستفادة من هذا الحفظ بتخفيض مدد العقوبة عنهم بل والإفراج الكامل لمن يحفظ كتاب الله داخل السجن، وهي أيضا من المكارم الكبيرة التي شهدتها دبي في عهد المغفور له بإذن الله الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم «رحمه الله»، ودعم صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم «حفظه الله».

وقال رئيس اللجنة المنظمة للجائزة: إن الجائزة قد أعدت الخطط والبرامج المتكاملة وقامت بتنفيذها للإشراف على مراكز التحفيظ بدبي ودعمها ومساندتها للقيام بدورها الفعال في مجال الاهتمام بالأبناء والبنات لحفظ كتاب الله وفهم معانيه في إطار من الوسطية والاعتدال وبعيداً عن الغلو والتطرف الذي لا يرضاه ديننا الإسلامي الحنيف كما وأن تكريم الشخصيات الإسلامية هو من الميزات البارزة لهذه الجائزة.

موقف إنساني رائع وقبلة على جبين الشيخ الشعراوي

كان للشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم رحمه الله موقف إنساني رائع.. لازال حتى يومنا هذا مؤثراً.. عندما حرص على زيارة المغفور له بإذن الله العلامة الكبير الشيخ محمد متولي الشعراوي «رحمه الله» في المستشفى بعد تكريمه بجائزة الشخصية الإسلامية في الدورة الأولى لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وطبع قبلة الاحترام والتقدير والمحبة لأهل العلم على جبينه في صورة إنسانية رائعة تدل على ما كان فقيدنا الكبير يحمله في قلبه من توقير واحترام لأهل العلم والفضل. كما أن الشيخ مكتوم «رحمه الله» ساهم في الاحتفال الكبير الذي أقيم في أبوظبي في الدورة الثالثة للمسابقة الدولية مع إخوانه أصحاب السمو أعضاء المجلس الأعلى حكام الإمارات وأصحاب السمو نواب الحكام وأولياء العهود والشيوخ في تكريم المغفور له بإذن الله تعالى باني نهضة الإمارات الحديثة الشيخ



موقف إنساني رائع، يقدر العلم والعلماء

زايد بن سلطان آل نهيان طيب الله ثراه لفوزه بجائزة الشخصية الإسلامية والذي أقيم حينها ليلة العشرين من رمضان المبارك.

شهادات حق

حب وتفان في خدمة الوطن

«إنها الأمانة في أياد أمينة، في يد مكتوم ومن حوله إخوانه أصحاب السمو الشيوخ حمدان، ومحمد، وأحمد بن راشد آل مكتوم».

العهد هو العهد، والعطاء هو العطاء، يتجدد والثقة تتجدد.

بالأمس كان المغفور له الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم أبا للشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم وإخوانه، واليوم فإنني أنا أبوهم وعوضهم فيه، وهم عوضي أنا في أبيهم، كما وأن الشيخ مكتوم وإخوانه عوض شعب دولة الإمارات العربية المتحدة بما عرفته وعرفه هذا الشعب فيهم من حب وحرص وتفان في خدمة هذا الوطن».

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

في رثائه للشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم رحمه الله



يترأس أحد اجتماعات مجلس الوزراء

كان مثالا يحتذى

الشيخ مكتوم بن راشد رجل العطاء والوفاء والإخلاص الذي كان مثالاً للالتزام الوطني الصادق، وضع مصلحة الوطن على الدوام فوق أي اعتبار، وكان بذلك مثالاً يشار إليه بالبنان في الصفات الحميدة والمناقب الفريدة.

ديوان رئيس الدولة

حياة مشرفة وعمل مخلص

كانت حياته حافلة بالمواقف المشرفة والعمل المخلص والعطاء الصادق.. قضاها رحمه الله في خدمة شعبه ووطنه وأمته العربية والإسلامية.

ديوان حاكم الشارقة

كان رمزا من رموز العطاء

كان رجلاً من أخلص رجال الدولة، ورمزاً من رموز عطائها الذين عملوا في ترسيخ أركانها وخدمة شعبها.

ديوان حاكم الفجيرة

كان قائداً حكيماً

فقد شعبنا قائداً حكيماً نذر حياته وكرّس جهده لبناء دولته وإعلاء شأنها والأخذ بها إلى مصاف الدول المتقدمة، وأخذ على عاتقه مسؤولية النهوض بشعب الإمارات وتطلعاته وتحقيق أمانيه في الخير والتقدم حتى وصل إلى ما هو عليه من تقدم ورخاء.

ديوان حاكم أم القيوين

انحياز للحق و الخير

عرف عنه طوال مسيرته الحافلة حبه وانحيازه للحق والخير والوفاء وتمسكه بقيم الإسلام الأصيلة وتراث أمته الخالد.

ديوان حاكم عجمان

عطاء بلا حدود

لقد واصل مسيرة العطاء والحب لاماراته وبلده وشعبه وساهم بكل إخلاص ووفاء بدور مشهود في إعلاء شأن الدولة وترسيخ أركانها وإرساء دعائم اتحادها، لقد فقدت الدولة برحيله رجلاً من



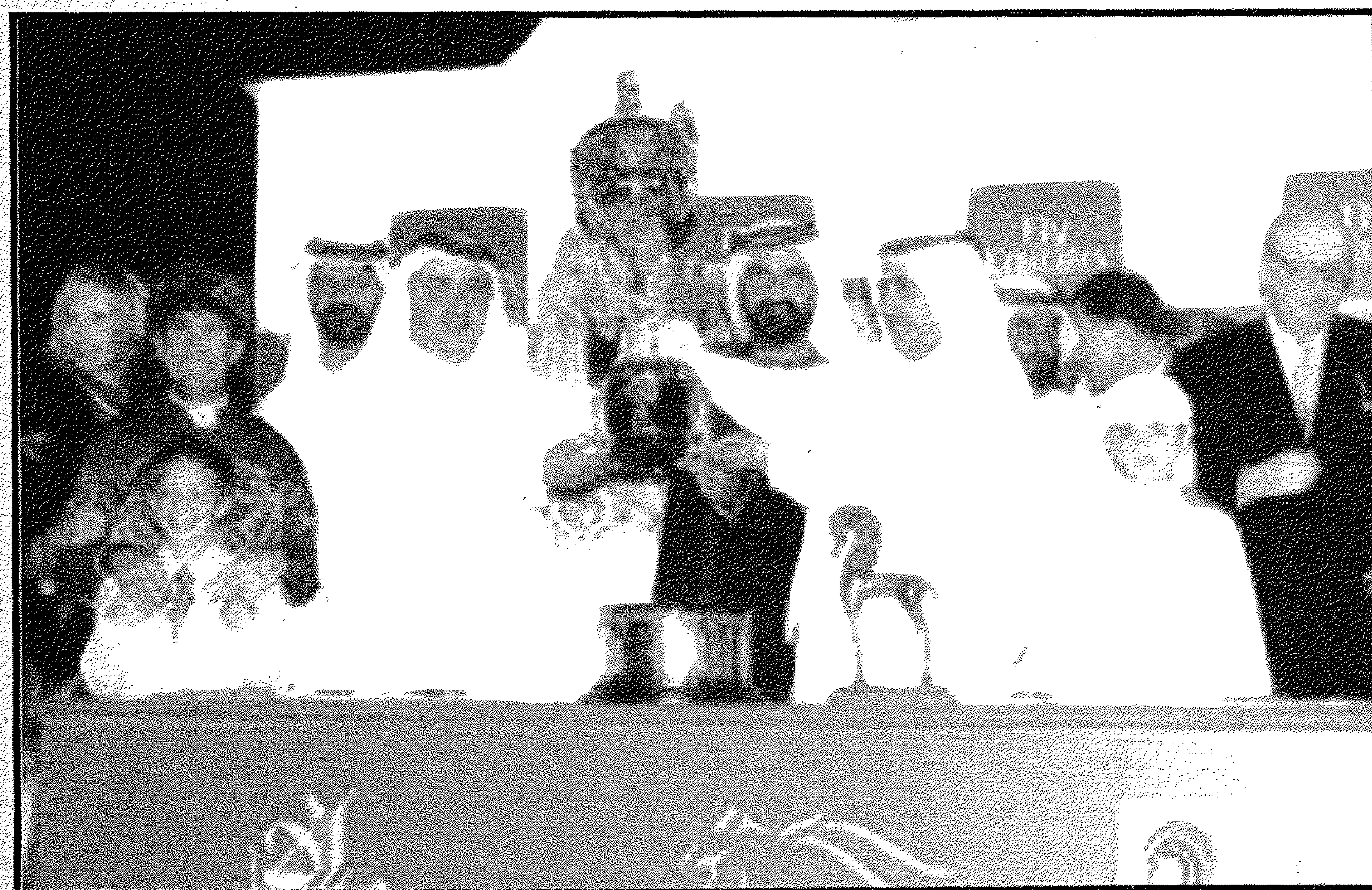
دبي قديماً



دبي الحديثة



رفع أسم دبي عالمياً في سباقات الخيل



وكان حريصاً على تشجيعها محلياً

رجالاتها الذين أعطوا شعبهم بلا حدود وأخلصوا دائماً والذين ستظل ذكراهم العطرة خالدة في الاذهان.

سلطان بن محمد بن سلطان القاسمي

ولي عهد ونائب حاكم الشارقة

حياة حافلة بالعطاء

لقد كانت حياته حافلة بالعطاء والعمل في بناء دولة الامارات وتعزيز مسيرتها الاتحادية ودوره كان هاماً في مسيرة مجلس التعاون لدول الخليج العربية منذ تأسيسه.

حمد بن عيسى آل خليفة

ملك البحرين

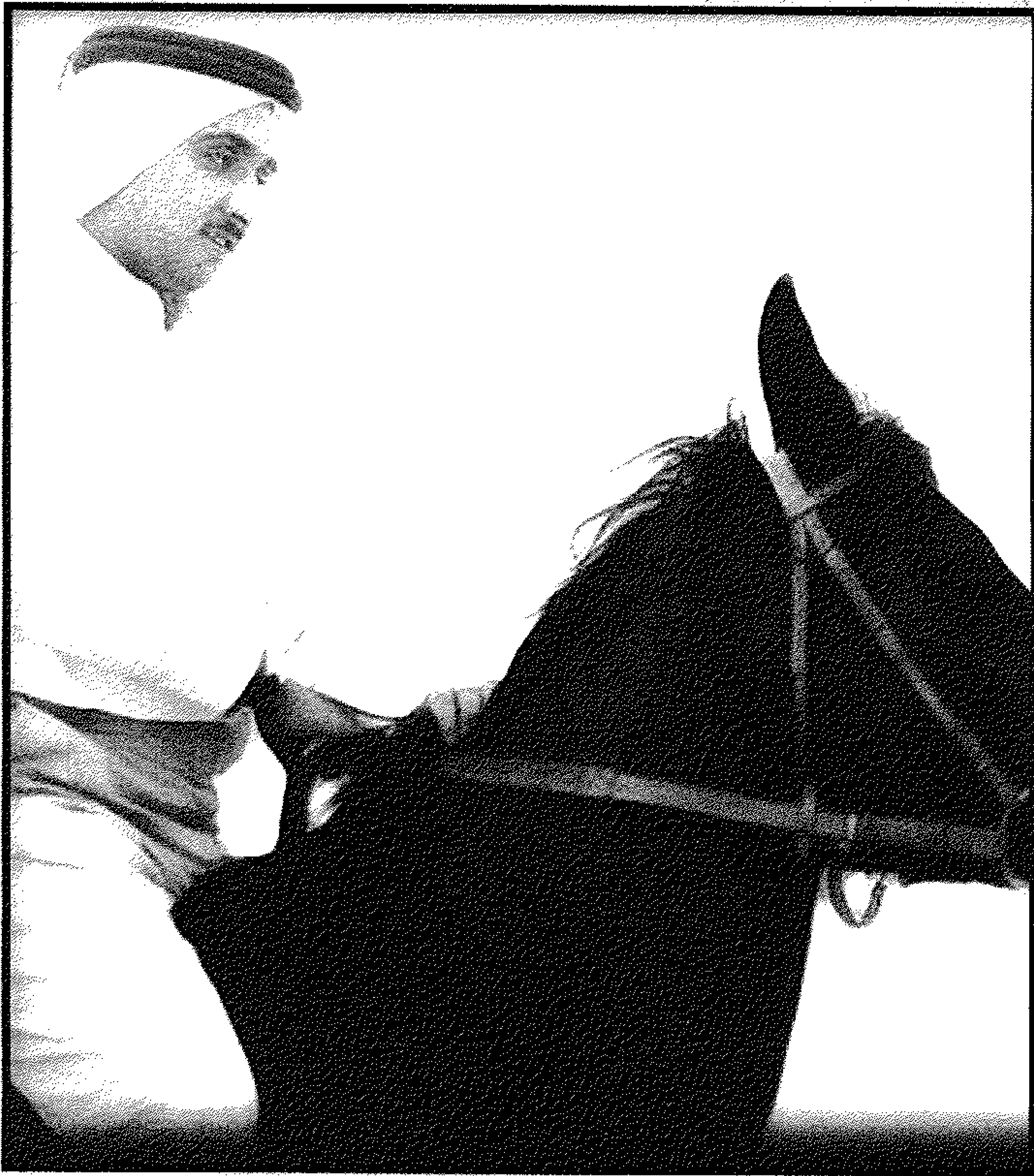
تواريخ.. في مسيرة الراحل

- ■ ١٩٤٣ مولد الراحل الكبير المغفور له بإذن الله الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم في منطقة الشندغة في دبي.
- ■ ١٩٧٢ ترأس أول مجلس للوزراء في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- ■ ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ ترأس ثاني وزارة اتحادية.
- ■ ٣ يناير ١٩٧٧ ترأس ثالث وزارة اتحادية.
- ■ ١ يونيو ١٩٧٩ أصبح نائباً لرئيس مجلس الوزراء في رابع حكومة اتحادية بعد أن أسندت رئاسة الوزارة إلى والده المغفور له بإذن الله الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم.
- ■ ٢١ أكتوبر ١٩٩٠ تم انتخابه حاكماً لدبي ونائباً لرئيس الدولة بعد وفاة المغفور له بإذن الله الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم.. وتم تكليفه من قبل رئيس الدولة برئاسة مجلس الوزراء.
- ■ ٤ يناير ٢٠٠٦ انتقل إلى جوار ربه مغفوراً له بإذن الله.

فارس من سلالة الفرسان

يعد المغفور له بإذن الله واحداً من أبرز عشاق رياضة الفروسية.. فهو فارس من سلالة الفرسان.. عشق التراث فأحيا هذه الرياضة محلياً.. ووضع بصمته التي يمتلكها الأبرز في العالم بعد أن ساهمت في انتاج أفضل الخيول العالمية.. بسلالاتها العربية الأصيلة التي بهرت العالم.. وما إهداء "الجوكي كلوب" البريطاني عضويته الشرفية له إلا تقدير وعرفان لهذا الدور الذي لعبه الفقيد في عالم الخيول، وهو تكريم صادف أهله بعد أن سيطرت خيوله على العديد من السباقات في أوروبا منذ عام ١٩٨٢م، كما حصل الفقيد على لقب أفضل مالك يفوز بسباقات الجروب في خمس دول أوروبية عام ١٩٩٧م، ليكون أول مالك خيل بأوروبا ينال شرف الفوز بهذا اللقب منذ بداية إدخال نظام سباقات "الجروب" عام ١٩٧١م.

وكان لمشاركة خيول الفقيد في سباقات أوروبا وتحقيقها الفوز في خمسة سباقات عالمية للفئة الأولى "جروب ١" في خمس دول مختلفة خلال عام واحد هي: بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، ايرلندا وإيطاليا الدور الكبير في الارتقاء بمستوى تلك السباقات وإثرائها، وخلال



فارس من نسل الفرسان

حوالي ربع قرن ساهم بعطائه وأفكاره في تطوير تلك الرياضة.. ليعود فرسان العرب أبطالاً لرياضتهم وتراثهم العريق مرة أخرى.. كما ساهم رحمه الله عليه في تدعيم قدرات إخوانه المواطنين في امتلاك أفضل المزارع وأجود السلالات مما أعاد للعرب أمجادهم في مجال الفروسية على مستوى العالم.. ويعود الفضل لمزرعة "جينزبرو" المملوكة للفقيد التي أسسها في انجلترا في أوائل الثمانينات في إنتاج أنقى الجياد التي بهرت العالم في السباقات الكلاسيكية وأبرزها «هتوف» و«لم ترى».. كما حصلت تلك الاسطبلات على جائزة أفضل الاسطبلات في بريطانيا وذلك لإنتاجها ثلاثة من أبرز الخيول التي خطفت الأضواء عام ٢٠٠١ م لنتائجها المشرفة في مختلف المضامير العالمية، وهي: «ليلاني» و«نواكسكيوز نيدد» و«ستورمينج هوم» مما حدا بجمعية مربي الخيول في بريطانيا على منحه جائزة أفضل مربي خيول وذلك في يناير من العام نفسه.

كما كان لإنشاء فريق جودلفين الفضل في تأكيد الجهود التي بذلها الفقيد لتطوير سباقات الخيول وترجمتها على أرض الواقع.. خاصة بعد أن برهن هذا الفريق على قدرته فطبقت شهرته الافاق بعد اكتساحه للسباقات العالمية.. مما أذهل هذا العالم الذي كان لفترة حكراً على ملاك أوروبا وحدهم.. ومما زاد من عظمة انجازات جودلفين مشاركتها في منافسات سباقات الخيول في أمريكا على المضامير الرملية.. وهو تحد جديد لإثبات جدارتها.. وتأكيد سعة أفق الشيخ مكتوم رحمه الله وبُعد نظره في تلك المشاريع العالمية.

كأس دبي العالمي للخيول

وعلى المستوى المحلي.. كان الفقيد الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم رحمه الله حريصا كل الحرص على المشاركة وتدعيم المسابقات المحلية لإثرائها وتطويرها.. وكان انطلاق المسابقة العالمية كأس دبي



وكان حريصا على الالتقاء بالمواطنين في البادية والحضر



غادرنا.. وترك الأمانة في أيدٍ أمينة

العالمي للخيول في ٢٧ مارس ١٩٩٦ أكبر الأثر في انطلاق اسم دبي عالميا.. حيث استقطبت البطولة اهتمام العالم باعتبارها الأكثر تميزاً.. والأغنى والأقوى على مستوى العالم.

الاهتمام بسباقات الهجن

كان الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم طيب الله ثراه يعشق التراث ويحرص على دعمه وترسيخه في نفوس وقلوب أبناء الوطن.. لذلك كان حريصا على المشاركة في سباقات الهجن السنوية التي تقام على المضامير المختلفة في بلادنا..

وكان حريصا على متابعة السباقات التي تقام على مضمار ند الشبا في دبي.. ويكون في قمة سعادته عندما يتسلم جائزة أحد تلك السباقات أو يسلمها للفائزين.. وقد حصلت الهجن التي شارك بها على العديد من الجوائز في العديد من ميادين السباقات في الإمارات وخارج الإمارات.. وعرف عنه أيضا تشجيعه للرياضات العربية الأصيلة كالصيد بالصقور، وسباقات القوارب، ورعايته للمؤسسات الاجتماعية والخيرية في الداخل والخارج.

مشاركة فعالة في صنع دبي الحديثة

منذ تولي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم حكم دبي في عام ١٩٥٨م.. كان الشيخ مكتوم ساعده الأيمن.. يشارك في كل كبيرة وصغيرة في صنع نهضة الإمارة وتطورها.. وعندما تفجر البترول في عام ١٩٦٦م.. تفجرت معه ينابيع الخير في هذه الإمارة الواعدة.. فاجتمع المال مع الفكر.. والتقيا مع الإخلاص في العطاء.. فكانت نهضة دبي التي أطلق عليها فيما بعد لؤلؤة الخليج.. ثم دانة الدنيا.. بفضل الله أولا.. ثم بفضل الجهود العظيمة التي بذلها المغفور له بإذن الله الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم في مساعدة والده لقيادة دبي إلى محفل التقدم والرقي حتى أصبحت قبلة العالم.. وهدف رؤوس الأموال العالمية لما تملكه من بنية أساسية قوية.. وتطور تقني.. وإمكانيات كبيرة.. وفكر متفتح يحب الخير ويهبه للجميع.■

محمد يوسف يقول لكم:

أطالب بالتجديد.. لكني أعشق القديم

مجموعتي تضم ١٠٠٠ كاميرا متنوعة

وراديو يعمل بالكيروسين.. ومسجل "بوسيم"



■ حمدي نصر:

مقالاته التي يتلهف عليها القراء صباح كل يوم تحمل الجديد وتدعو إلى التجديد.. ومع هذا فهو يعشق القديم إلى حد الإدمان.. هذا العشق دفعه لأن يسافر وراء القديم قاطعاً الفيافي والقفار.. مجتازاً البحار والأنهار.. قافزاً فوق الجبال والأسوار.. دافعاً عن طيب خاطر حتى وإن غلت الأسعار.

محمد يوسف رئيس جمعية الصحفيين بالدولة والمستشار لشؤون أبوظبي بصحيفة البيان، وصاحب العمود اليومي الشهير ''أقول لكم''، بو يوسف يعشق جمع المقتنيات القديمة خاصة التراثية، ومن بين ما يعشقه أيضا جمع كل ما يتصل بأجهزة الإعلام القديمة وعلى رأسها كاميرات التصوير التي وصل عددها إلى ١٠٠٠ كاميرا منها ٥٠٠ كاميرا متفردة.. بدأت بما يمكن أن نطلق عليه مجازاً- بعد استئذان أهل علم الجيولوجيا- «العصر الحجري» لتصنيع الكاميرات.. والتي كانت وقتها للخاصة فقط ولم تكن تنتج بشكل تجاري.. لذلك كان وجودها نادراً جداً.. ومع هذا فهي موجودة عند «بو يوسف».

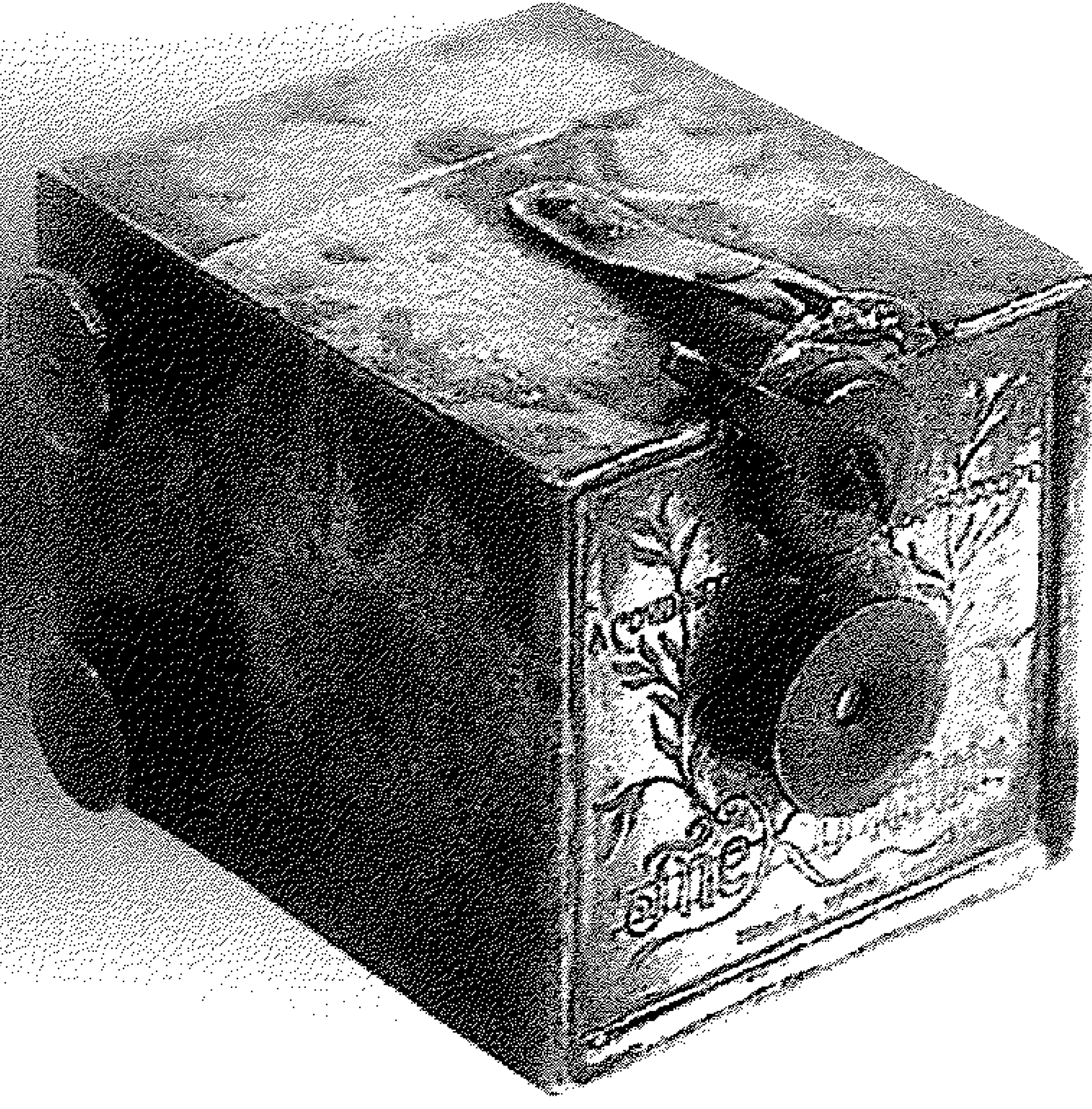
وهو يقتني أيضا عدة أنواع من أجهزة الحاكي ''الجرامافون''.. والتي كان سعر واحد منها في أوائل القرن الماضي يعادل ثلث سعر فيلا من طابقين!!. ثم.. هل سمعتم عن جهاز التسجيل «بو السيم».. والراديو الذي يعمل بالكيروسين (الجاز).. وفلاش التصوير الذي يضيئ بالانفجار.. إنه يقتنيها من بين ما يقتني من قديم اكتظت به مخازنه.. جلبه من الأسواق المحلية والعربية.. ومن أكبر سوق للتحف في العالم يقع في لندن.. وله فيه قصص تروى.

بداية محمد يوسف مع عشق القديم بدأت من حبه للتراث الإماراتي والخليجي وأدواته.. ومع مرور الأيام نما الحب وكبر العشق فاتسع ليشمل كل القديم مع التخصص في قديم الإعلام بحكم المهنة وانغماسه فيها.. وله في ذلك حكايات من الأفضل أن نتركه هو يحكيها.. وبالتفصيل.

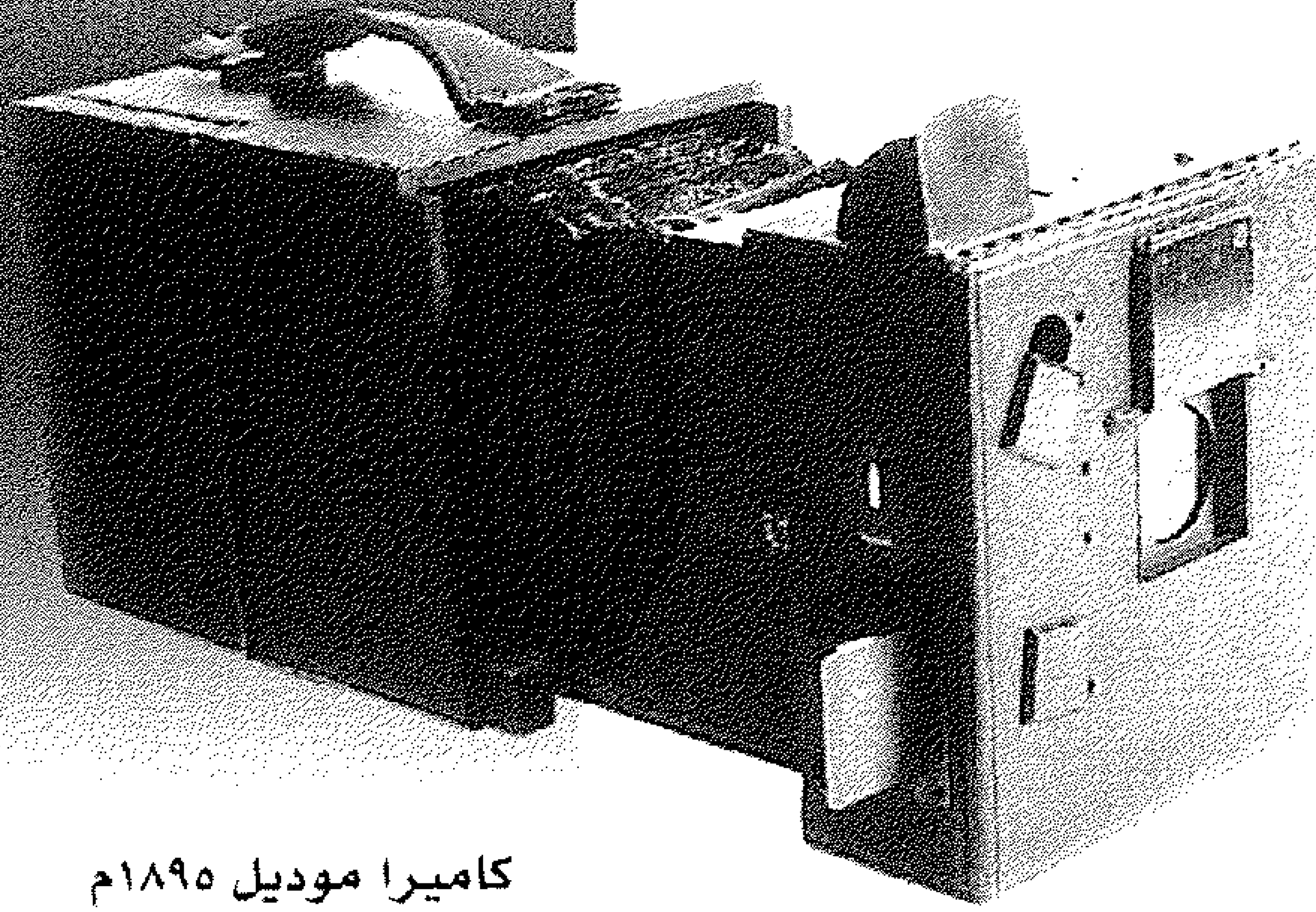
البداية كما يقول: حب أخي عبد العزيز لكل ما هو قديم.. وهو ما كان يستهويني أيضا.. لكن حبي لمهنتي كان أكبر وكان شغلي الشاغل حيث كنت مديراً لتحرير جريدة الاتحاد لمدة ١٥ عاما.. ثم رئيساً لتحرير جريدة الوحدة، ثم رئيساً لتحرير جريدة أخبار العرب.. فكانت مهنة الصحافة هي إفطاري وسحوري.. حيث كنت أتناول طعام العشاء – إن تناولته – في موعد السحور.. المهم .. عندما أجلس مع أخي عبد العزيز كان يحدثني عن القطع التراثية القديمة وقيمتها.. وكان سعيداً برواياته عن تعبه حتى تمكن من اقتنائها.. وكنت أشير عليه أحيانا ببعض المشورة.. ووجدتني مع مرور الأيام أحرص على الجلوس معه لنتحدث عن مقتنياته.. وتطورت المشورة إلى حد المساعدة والاجتهاد في جلب بعض الأشياء رغم مشاغلي.. ثم جرفني هذا العشق للقديم فأصبحت مدمناً.. وياله من إدمان جميل .. فإحساس رائع أن تجلس بين الأصالة والتاريخ تتأمل كيف كانت تلك القطع.. ومدى أهميتها في ذلك الوقت.. ثم ما هي عليه اليوم.. وتتخيل قيمتها الحالية وأنت تقتني قطعة كانت لها صولات وجولات وصيت عال.. والآن أصبحت «تحفة».

التراث.. منبع حب الأنتيك

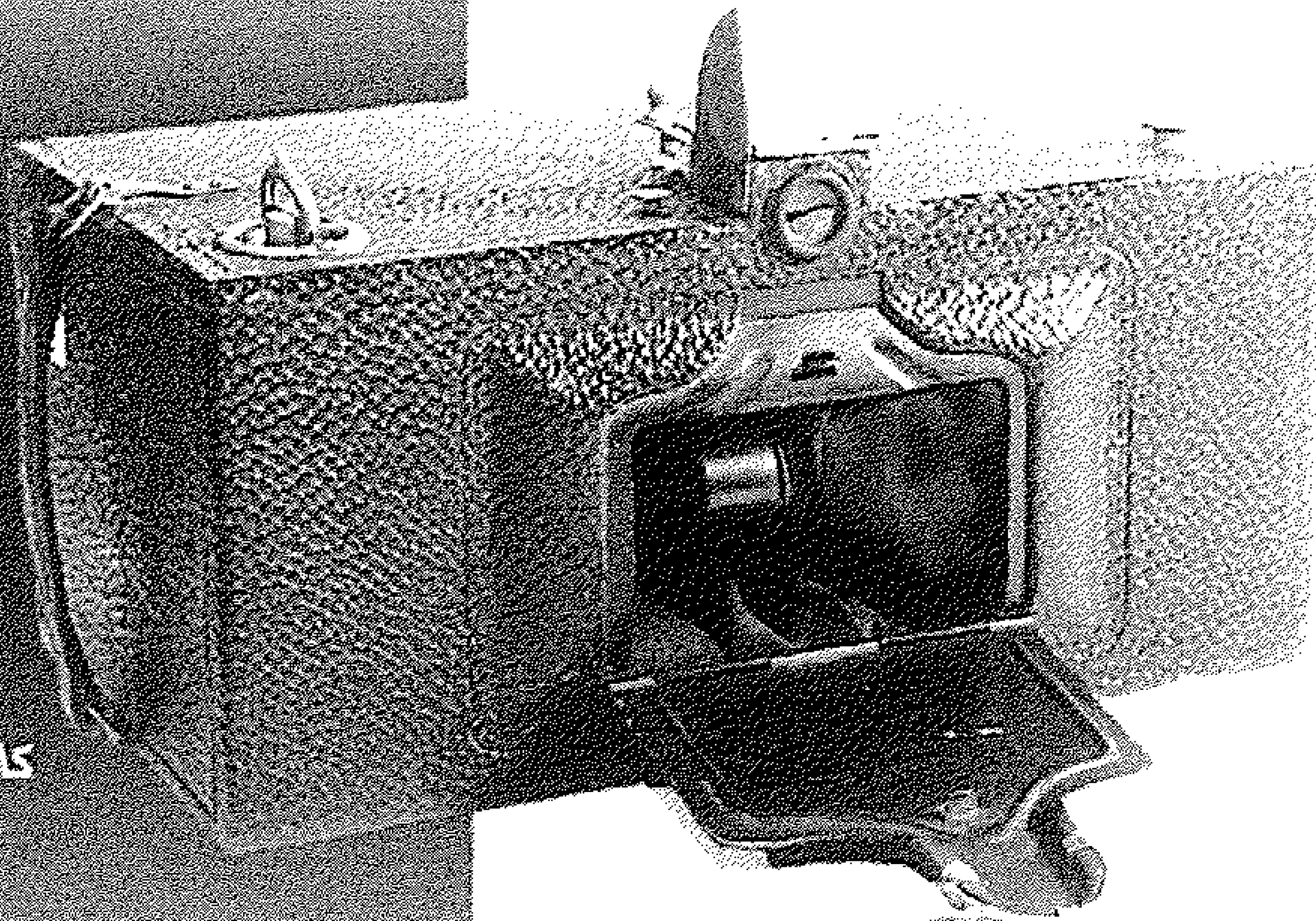
ويواصل «بو يوسف»: المقتنيات الخليجية القديمة التي عاصرناها وبدأت تختفي من حياتنا كانت هي منبع حب الأنتيك لدينا.. كان يعز علينا أن تختفي من



كاميرا موديل ١٨٩٣م



كاميرا موديل ١٨٩٥م



كاميرا موديل ١٩٠٧م

حياتنا الصناديق القديمة مثل المندوس والصناديق التي كانت توضع عليها دلال القهوة والفناجين.. وبعض الخشبيات التي كانت تستخدم كديكور على الأبواب والشبابيك.. إضافة إلى الأبواب والشبابيك والأسرة القديمة بأشكالها وأحجامها.. والسجاد القديم والأبسطة والملابس والأطباق وقطع الأثاث، والفضيات بأنواعها من حوامل الشموع والكؤوس والأواني والبورسلين بمراحل تطورها المختلفة سواء قبل التلوين أو في بداياته.. وهناك فرق كما يقول «بو يوسف» بين البورسلين الملون الإسلامي القديم جداً وهو ملون يدوياً.. وبين البورسلين الحديث الملون في الأفران.. وعلى كل حال فإن هذه المقتنيات بالذات موجودة لدينا قطعاً متفرقة متفردة ولا تشكل مجموعات.

ويتابع: كما حرصنا على تجميع الأدوات البحرية التي تستخدم في السفن، وأدوات الغوص، وأدوات تجار اللؤلؤ مثل البشتختة والميزان بنوعيه الكبير والصغير والطوس ومثاقيل الوزن والمقص والمسحل والمغراف والمنظار.. وكلما اقتنينا شيئاً منها شدنا الحنين لأشياء أخرى مكملة لها مثل دفاتر الحسابات التي كان يستخدمها الطواويش (تجار اللؤلؤ) في تسجيل مشترياتهم ومبيعاتهم، والدفاتر التي تحمل أسعار الأوزان المختلفة من اللؤلؤ، ودفاتر الحسابات ما بين النواخذا والبحارة، وما بين أصحاب السفن والنواخذا والطواويش، ولم يكن غريباً أن نجد أنفسنا نحرص على شراء أوائل الكتب التي كتبت عن المغاصات، وكتب المخطوطات وتشمل المصاحف الكريمة وكتب الأدعية والأحاديث.. وهي قطع نادرة وأهميتها تكمن في قدمها وخطوطها وتذهيبها.. ومن أقدمها مصحف مغلف بسعف النخيل المشغول.. إضافة إلى بعض المراسلات التي كانت تتم ما بين تجار الخليج والشيوخ.

مرحلة تكوين المجموعات

كان الهدف في البداية أن تكون هذه المقتنيات موجودة ولا تضيع مع مرور الوقت.. ثم.. لم نر بأساً أن يكون لدينا بدل القطعة قطعتين متشابهتين.. ولم لا؟.. ثم ثلاث قطع.. ثم اتجهنا إلى مرحلة تكوين المجموعات.. بعد أن تحول الأمر إلى عشق لاقتناء كل ما هو قديم.. وكان عبد العزيز هو «مايسترو» تلك الفترة.. يفكر ويخطط ويسأل ويتحرى ويجري وراء القطع ويختار ويفحص.. فلديه خبرة وحدس قوي في معرفة القديم فعلا من المصطنع أو المقلد.. وعندما وصلنا إلى تلك المرحلة وجدنا سفينتنا تمخر عباب هذا البحر الواسع تجوبه في العالي والسافل (أعالي البحر وقرب الشاطئ) وكأنها بلا شراع أو مجداف.. وبلا قبطان أو سكان (دفة).. رغم وجود النوخذا والمجدمي (قائد السفينة وقد يكون مالكها والمجدمي نائبه ورئيس البحارة).

وعاشق الانتيك لا يرتوي أبدا.. يظل ينهل منه ويطلب المزيد.. وكلما توغلنا تشعبت بنا الشعاب.. وكانت قطعة سلاح بسيطة وجدناها دون أن نبحث عنها كفيلة باتجاهنا لاقتناء الأسلحة التي مرت بالمنطقة مثل البنادق والخناجر والسيوف بأشكالها ومراحلها وأنواعها وأحجامها.

وكانت قراءة بحث عن الطوابع المستخدمة في دول المنطقة قبل طفرة التطور مدخلا للبحث واقتناء مجموعات من الطوابع والعملات المحلية والخليجية أيضا لارتباط دول المنطقة وتشابه ظروفها.. ثم بدأ التوسع ناحية الدول العربية لأننا وجدنا ارتباطاً بين دول المنطقة وحضارات أخرى قريبة مثل العراق ودول شمال إفريقيا ودول الهند وإيران خصوصا في فترة الخمسينات من القرن الماضي.

واتجه البحث من الدول العربية إلى الدول الأوروبية أيضا.. وإن كانت تلك المرحلة قد أخذت طابع الانتقاء للمقتنيات التي مرت بالمنطقة واختفت.. مثل الجرامافون بكل أشكاله خاصة في البدايات.. سواء من أول جرامافون كانت اسطواناته تشبه كأس الماء، وهذا الجهاز لم يصل منه إلى المنطقة إلا عدد محدود



جرامافون اديسون

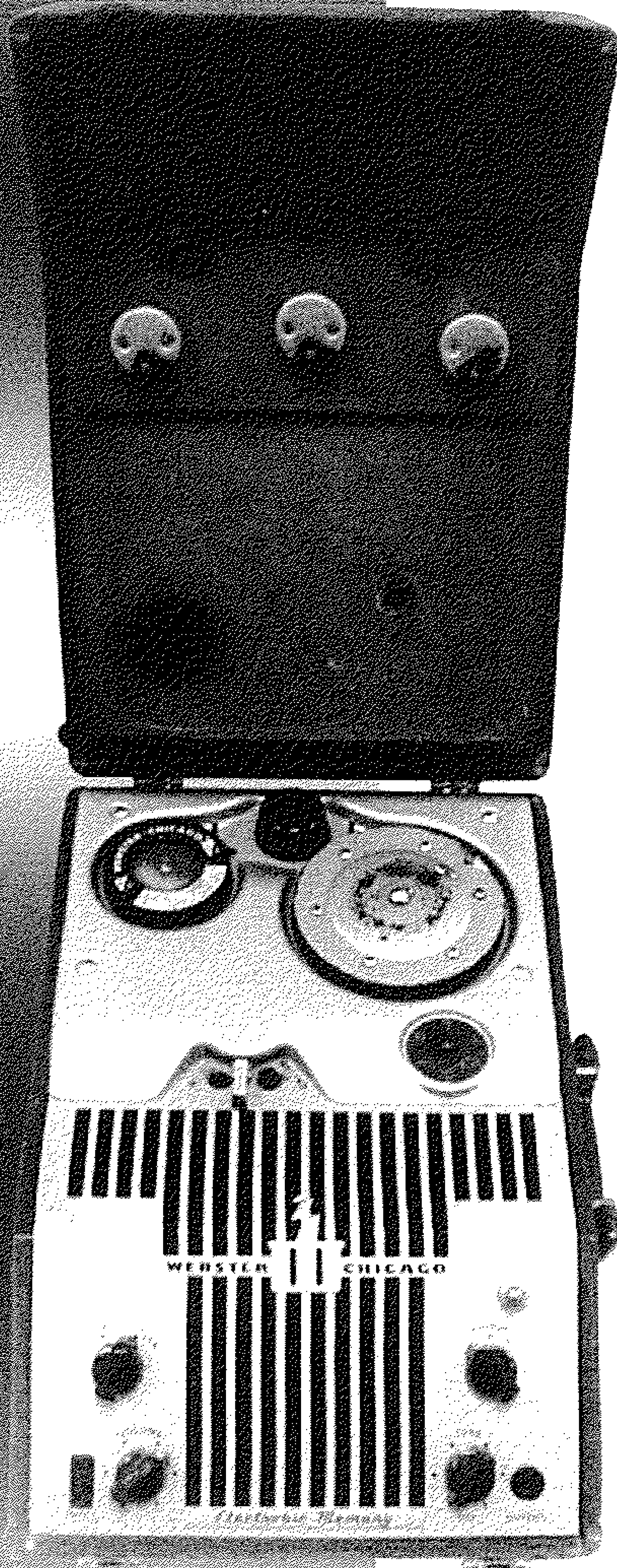


سمو الشيخ منصور بن زايد يستمع إلى شرح من محمد يوسف عن الكاميرات في معرض نادي القوات المسلحة

جدا لا يزيد على أصابع اليد الواحدة ويسمى جرامافون أديسون.. لأن أديسون أول من صنعه.. واسطوانته تحمل صورة أديسون وليست صورة المغني الذي تحمل الاسطوانة أغنيته، وقد تمكنا بفضل الله من الحصول عليه.. وتضم المجموعة عدداً من أجهزة الجرامافون التي تستخدم لأغراض السمع أو للديكور.. وقد عثرت على إعلان في إحدى المجلات القديمة التي يعود تاريخها إلى عام ١٩٢٤م عن أحد هذه الأجهزة يتضمن سعره.. وفي الصفحة المقابلة إعلان عن بيع فيلا تتكون من طابقين وتضم خمس غرف، وكان سعر الجرامافون يعادل ثلث سعر تلك الفيلا!.. ويعادل نصف ثمن سيارة فورد من أكبر الاحجام!. فمن يمتلكه لم يكن إنساناً بسيطاً أو عادياً!.

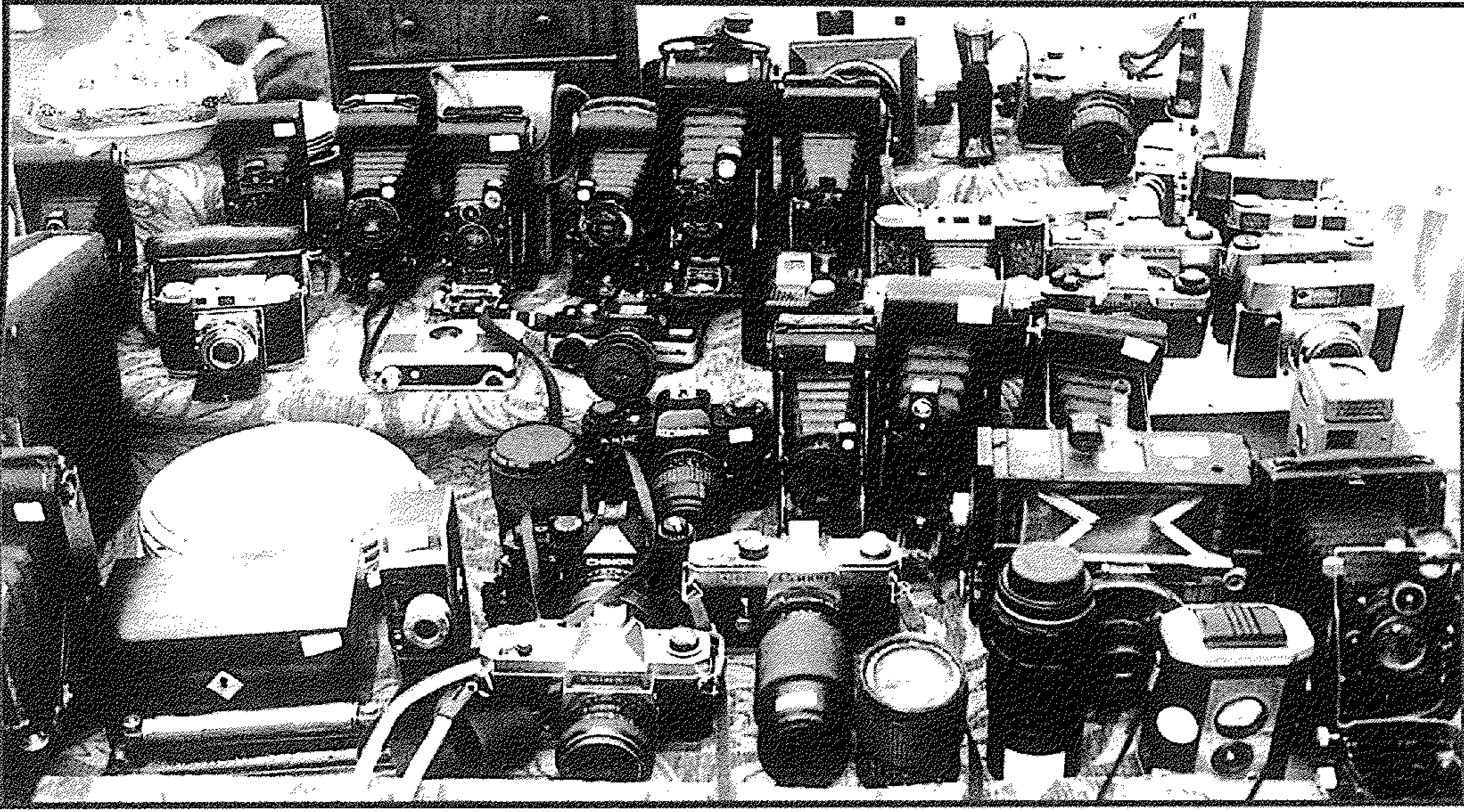
«بو سيم»

واقتنينا أيضا-- والكلام لمحمد يوسف - جهاز التسجيل الذي يعمل بالسلك.. ويطلق عليه في المنطقة جهاز التسجيل «بو سيم»[1] wire recorder، ولم نسمع بأن هذا النوع من أجهزة التسجيل قد وصل إلى

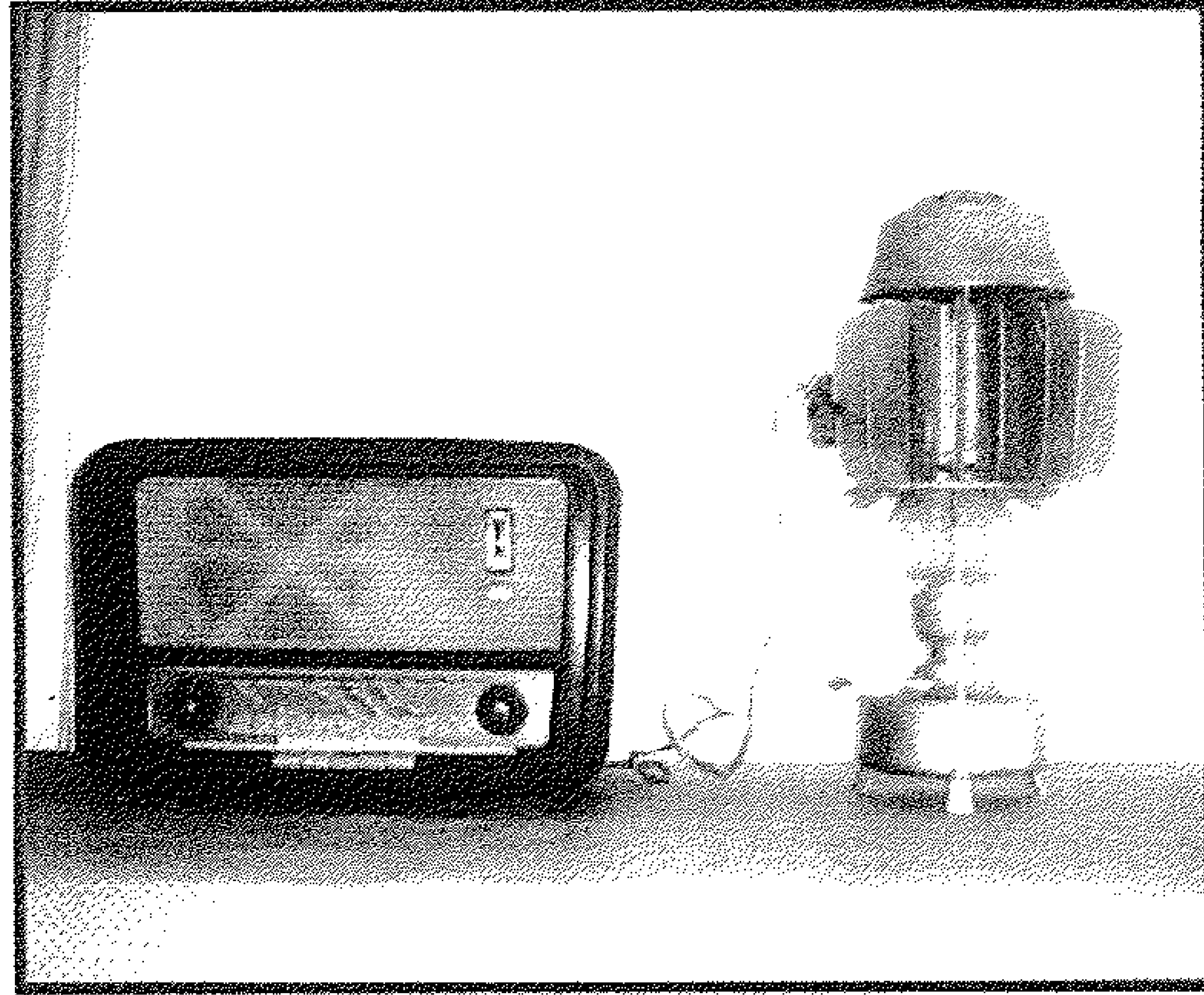


مسجل بو سيم

(١) المحرر: استمعت يوما إلى لقاء في الإذاعة المصرية مع فنان مخضرم حول إحدى التمثيليات الشيقة التي لجمالها أذيعت عشرات المرات.. ذكر فيه ان تسجيل التمثيلية التي كانت مدتها نصف ساعة تم على جهاز تسجيل يعمل بالسلك، وكان التسجيل عليه يجب أن يتم كله دفعة واحدة بلا توقف ولا أخطاء.. رغم أن التمثيلية كانت لها بداية ونهاية غنائيتان ويتخللها بعض الأغنيات.. وحدث أن غاب المطرب الأساسي في يوم التسجيل فتقدم أحد أفراد الكورس وقام بالغناء بدلا عنه وأجاد.. وتم التسجيل دفعة واحدة بلا أخطاء.



مجموعة كاميرات كانت معروضة للبيع في سوق بورتابيللو



راديو يعمل بالكيروسين.. من المقتنيات النادرة لبو يوسف

منطقة الخليج..وله قصة طريفة معنا.. فقد بحثنا عنه في كل مكان.. حتى على شبكة "الإنترنت"، ولم نوفق في الحصول عليه.. وكالعادة.. ان بحثت عن شيء لا تجده مهما اجتهدت في البحث، وان تركت البحث تجده فجأة أمامك دون بحث أو عناء، وهذا ما حدث، فقد دخلت إلى أحد أسواق لندن التجارية قبل سفري بساعات عائداً إلى الإمارات ولم يكن في ذهني على الإطلاق أن أجد هذا الجهاز في هذا السوق، لكن المفاجأة أذهلتني، فقد وجدته معروضاً في واجهة محل لجمعية خيرية تبيع تبرعات الناس من الملابس المستعملة والمقتنيات القديمة أو المستهلكة، لم أصدق عيني في بادئ الأمر فعثوري عليه يعادل عثوري على كنز الكنوز بالنسبة لي..

فاشتريته فوراً وبالسعر الذي طلبه البائع دون مناقشه.. ومن فرحتي به اتصلت بأخي عبد العزيز في الإمارات بمجرد أن غادرت السوق لأبشره بعثوري عليه.. وغادرت السوق إلى الطائرة مباشرة عائداً إلى الإمارات.. لكن هنا.. رآه شخص عزيز علينا فطلبه.. ولم نستطع أن نرده مهما كان الجهاز غالياً على نفوسنا.. وعاودنا رحلة البحث عن جهاز آخر.. وأخبرت جميع الأصدقاء في الدول الأوروبية بضرورة البحث عن جهاز جديد في أسواق الأنتيك.. وجاءني خبر بالعثور على واحد عند بائع آسيوي في كندا.. فوجهت من يشتريه لي بأي ثمن.. وماطل البائع الآسيوي.. وتحقق له ما أراد بالحصول على أعلى سعر.

ويتابع «بو يوسف» حديثه عن التوسع في شراء المقتنيات والتحف قائلا: سوق «بورتابيللو» في لندن، كانت لنا فيه أيضاً صولات وجولات لأنه أكبر سوق للتحف والمقتنيات النادرة في العالم، والغريب أن هذا السوق يفتح أبوابه ليوم واحد فقط في الأسبوع، ويأتي إليه الزائرون من مختلف دول العالم كل يقصد هدفه مباشرة ويعود لبلاده غالباً بالقطار أو بالطائرة، كما بحثنا عن المقتنيات القديمة في عدة أماكن أخرى، حتى حصلنا على جهاز الراديو الذي يعمل بالكيروسين.. وهو بالطبع من أقدم أجهزة الراديو في العالم.. حيث يتم تشغيله بإشعال الكيروسين الموضوع في آنية بالقرب منه لتوصيل الطاقة للجهاز.. وتم أيضا استكمال المراحل التي مر بها تطور جهاز الراديو حتى

توقفنا عند الراديو الترانزستور الذي اكتسح العالم وأذاع نبأ إنتهاء عصر الراديو التقليدي.

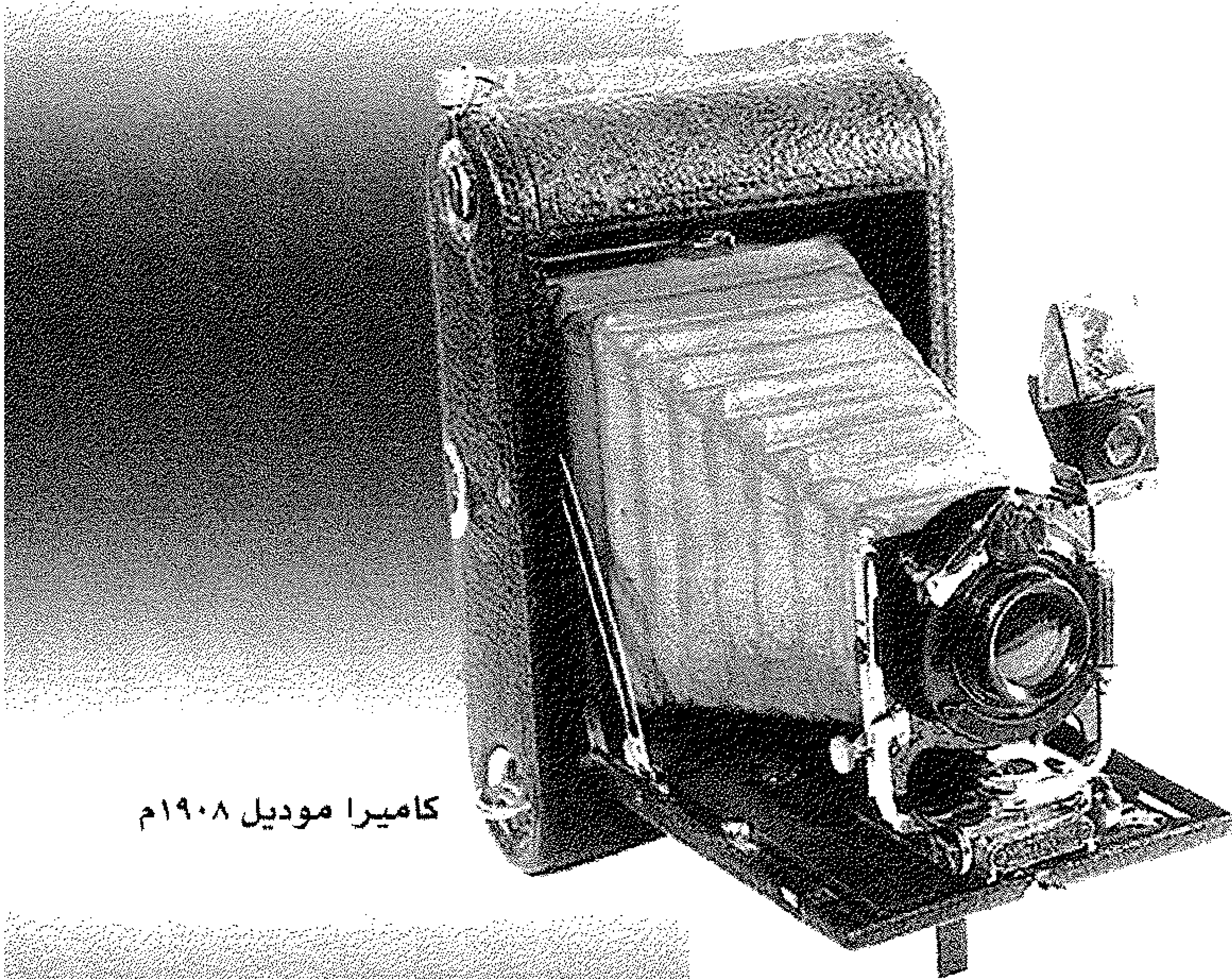
التليفون الخشبي

ومع توسع الهواية.. وجدنا الهواتف تدخل على الخط.. قلنا ولم لا؟.. خير وبركه.. واستطعنا بحمد الله أن نكون مجموعة منها بدأت بالتليفون الخشبي الذي كانت فيه سماعة الأذن مفصولة عن سماعة الصوت.. ثم أجهزة أخرى تشكل تطور الهواتف، وصولا إلى أول هاتف متحرك في السيارة، ثم هاتف الشنطة، وانتهاء بالمحمول.. وآخر جهاز هاتف حصلنا عليه كان من مصر قبل سنة من الآن، وهو من الهواتف السوداء القديمة التي كانت تستخدم في القصور، ويحمل شعار الملك فاروق. وإذا كانت هواية جمع الطوابع هي هواية الكثيرين.. فلابد أن تستهوينا أيضا.. لكنا ركزنا على الطوابع القديمة التي كانت تستخدم في المنطقة..والطريف إنها كانت طوابع تأتي من الخارج.. لكن كل ما يشير إلى محليتها هو خاتم البريد الذي يوضع عليها.. ومنها طوابع صدرت في الكويت أو قطر أو انجلترا وتحمل صور ملوك بريطانيا.. وقد اجتهدنا في تكوين المجموعات أيضا.. خصوصا المحلية التي صدرت قبل قيام الاتحاد، وأيضا المجموعات العربية القديمة مثل طوابع العصر الملكي في العراق وقد نجحنا في الحصول عليها.. والعهد الملكي في مصر.. ومن المجموعات النادرة التي تمكنا من اقتنائها المجموعات التي أصدرتها مصر بمناسبة الاجتماع الأول للملوك والرؤساء العرب لتشكيل جامعة الدول العربية في ٢٢ مارس١٩٤٥م.. وكل مجموعة تتكون من سبعة طوابع عليها صورة زعيم كل دولة.. أيضا حصلنا على طوابع مكة المكرمة في عهد الأشراف، وهي مجموعة نادرة وقيمة في الوقت نفسه.

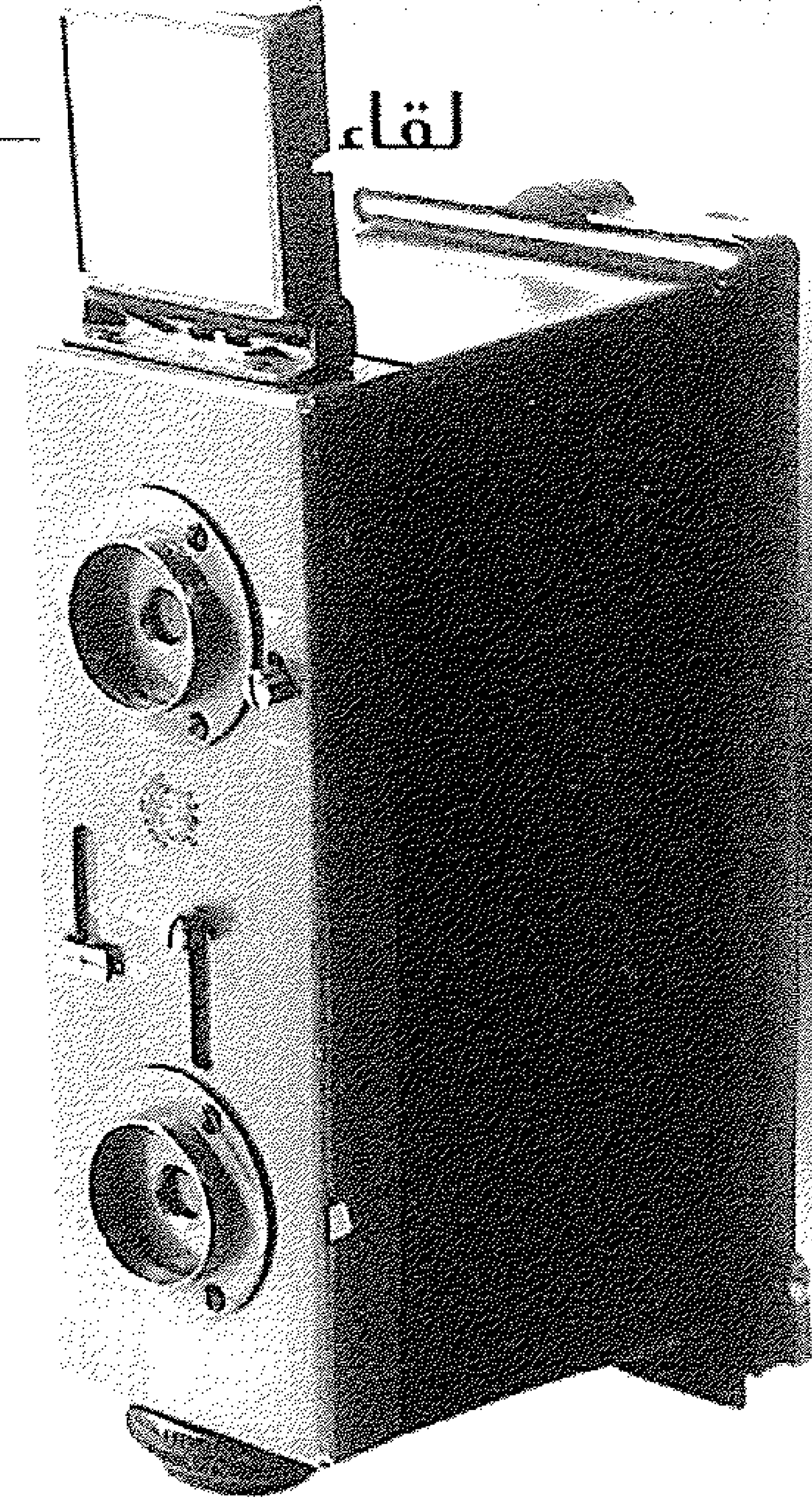


نظرة.. فإعجاب.. فتجميع

ويتحدث محمد يوسف عن هواية اقتناء الكاميرات.. وهي من أكبر المجموعات التي يقتنيها فيقول: البداية كانت مرتبطة بالعمل حيث الكاميرا رفيقة درب الصحفي وعينه التي تسجل، ومع كثرة السفريات للخارج كان اقتناء بعض أنواعها مبعثه الإعجاب بالشكل والتقنية.. ولما تكدست وتعددت.. أخذ الاتجاه يتسع وينعكس مع بداية التسعينات من القرن


كاميرا موديل ١٩٠٨م


بداية ظهور الكاميرا السينيمائية الشخصية.. وهي من الأوائل سنة ١٩٢٦م

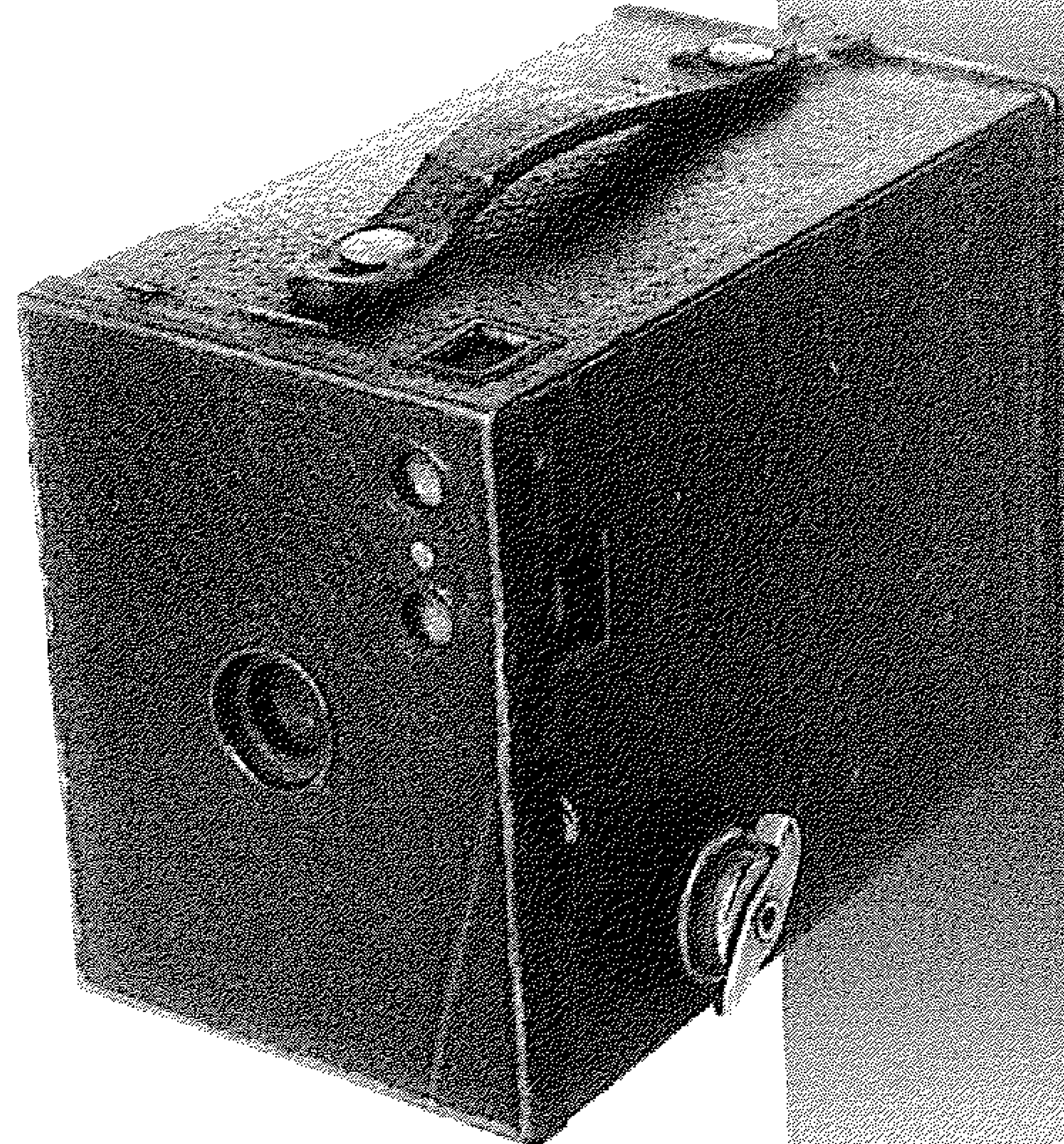




محمد يوسف يشرح تكوين إحدى الكاميرات القديمة



سوق آبل ماركت في منطقة كوفي جاردن في لندن



الماضي.. وبدلا من البحث عن الجديد بدأنا نبحث عن القديم، ونجحنا في تكوين مجموعة جيدة ومنوعة من الكاميرات مما شجعنا على التوسع أكثر.. وتكوين المجموعة لها في الاقتناء أصول تختلف عن الهواية وحب التحف والمقتنيات.. حيث يجب أن تتضمن البدايات والمراحل والأنواع.. ويدخل في ذلك الكم والتوثيق.. فلابد لكل نموذج أن يؤرخ ويصنف وتسجل له أهميته في المرحلة التي ظهر فيها ودوره في إحداث التطور في هذا النوع من المقتنيات.

ويقول «بو يوسف» معلقاً على ذلك: الكاميرا في حد ذاتها تاريخ.. وهي سجل مهم يوثق التاريخ.. وهذا الدور تحديداً هو الذي حولنا من الهواية إلى الاحتراف في جمع الكاميرات.. ثم الاتجاه إلى تكوين المجموعات التي انتهينا منها تقريبا في عام ٢٠٠٣م.. وعندما ننتهي تماما من تصنيف الكاميرات التي لدينا وهي تحتاج إلى وقت وجهد كبيرين.. يمكن أن تصنف مجموعتنا من أوائل المجموعات على مستوى العالم العربي من حيث التكامل والعدد.. أما عالمياً فلا أظن أنها تبتعد كثيرا عن المستوى الأول.

وقد وصل عدد الكاميرات المتميزة التي جمعناها والتي أنتجت حتى عام ١٩٧٠م حوالي ٥٠٠ كاميرا بدأ إنتاجها من عام ١٨٥٠م.. علما بأن أول كاميرا التقطت بها صورة كانت عام ١٨٣٩م.. وبشكل عام فإن كاميرات العشرين سنة الأولى من بداية التصنيع كانت للخاصة ولم تكن انتاجاً تجارياً.. لأن العلماء ومراكز الأبحاث فقط هم الذين كانوا يمتلكون الكاميرات..

وقد ظلت صناعة الكاميرات ولفترة طويلة تتم بشكل أجزاء منفصلة.. فالنجار يصنع الصندوق الخشبي.. وصاحب الزجاج يصنع العدسات.. والحداد يصنع الحديد اللازم ثم يتم تجميعها.. وما بقي من تلك الكاميرات دخل المتاحف حاليا.

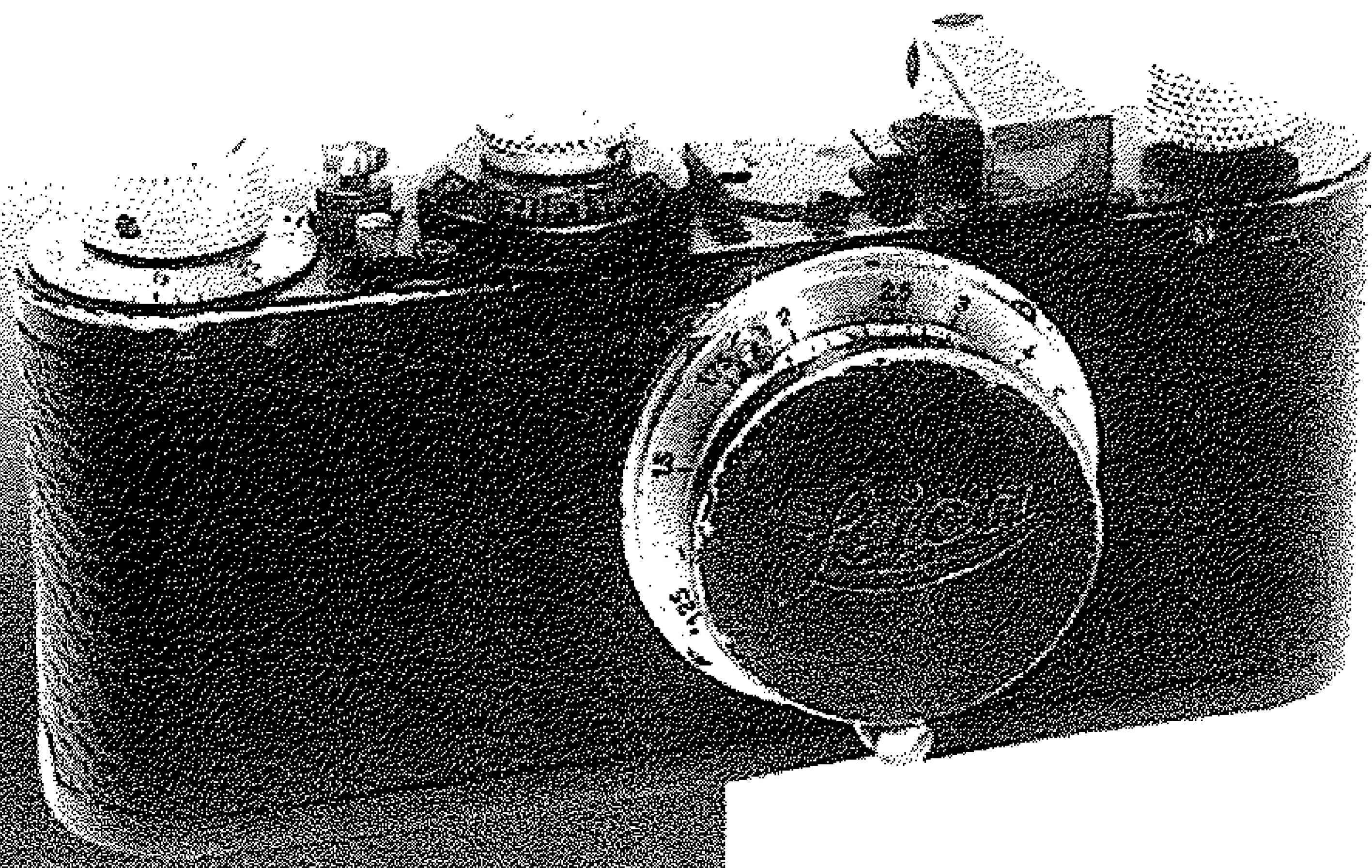
وعن أبرز الكاميرات التي يقتنيها قال: إنها كاميرا تعود إلى منتصف القرن الثامن عشر.. تحديداً بعد ١٥ سنة من اختراع التصوير بالكاميرا.. وهي غير معروف مكان تصنيعها حيث كما ذكرت لم تكن هناك صناعة بالشكل المتعارف عليه.. لكن تم التعرف على مقاربة تاريخ تصنيعها من خلال نوع العدسة المثبتة عليها.. وهو النوع الذي ظهر في التاريخ الذي ذكرته.

أما عن الكاميرات المتكررة فيقول «بو يوسف»: لديه منها حوالي ٢٠٠ كاميرا.. وهناك ٣٠٠ كاميرا لم تدخل سجل التوثيق حتى الآن وهي الكاميرات المصنعة بعد سنة ١٩٧٠م على اعتبار أنها حديثة.

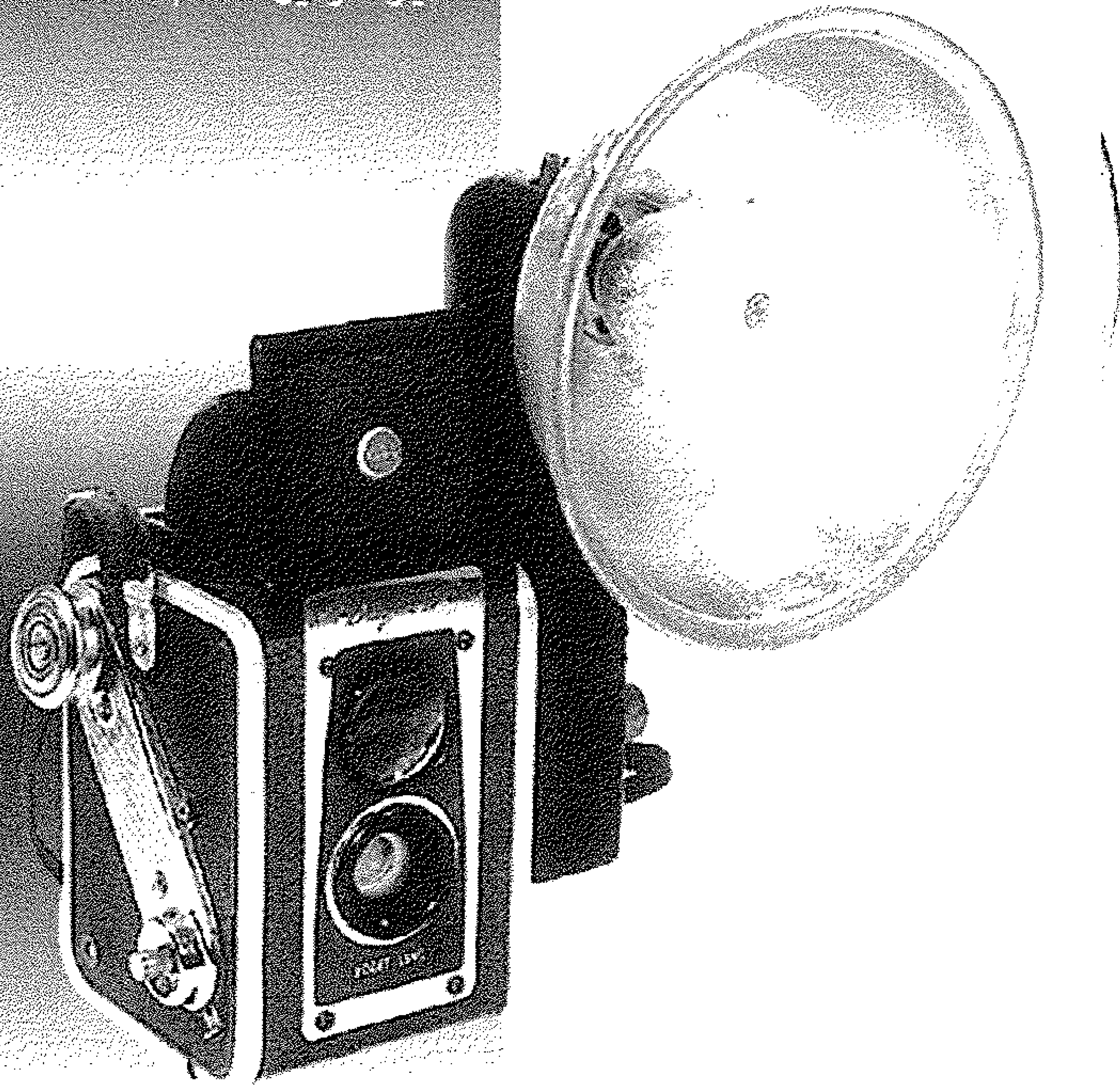
ولا يقتصر الأمر عند محمد يوسف على كاميرات التصوير.. بل تعداه إلى كاميرات السينما أو المتحركة ويقول عنها: إنها لم تكن في تفكيرنا عند تكوين المجموعات.. لكن خلال مراحل التجميع اكتشفنا أن لدينا منها حوالي ٧٠ كاميرا متحركة مع أجهزة العرض: «البروجيكتور».. وأقدم كاميرا سينما لدينا يعود تاريخها إلى سنة ١٩٢٦م.. وقد بدأنا في تسجيل تلك المقتنيات وتصنيفها وتوثيقها.. وطبعا لم يقتصر الأمر على الكاميرات وإنما كان بالضرورة أن يشمل الملحقات مثل الحوامل والفلاش (الملحقات) وأجهزة الإضاءة وأجهزة التحميض المتحركة والميدانية والخاصة بالغرف المظلمة.. وأشكال الأفلام التي استخدمت في كل المراحل ابتداء من الشريحة الزجاجية المغلفة بطبقة نترات الفضة إلى الأفلام الحساسة العادية.. والعديد من لمبات الإضاءة.. إلى جانب العديد من الصور التي التقطت في القرن التاسع عشر.. وقد وصل عدد الملحقات حوالي ١٠٠٠ قطعة.

- ثم ماذا يا بو يوسف.. وإلى أين؟!

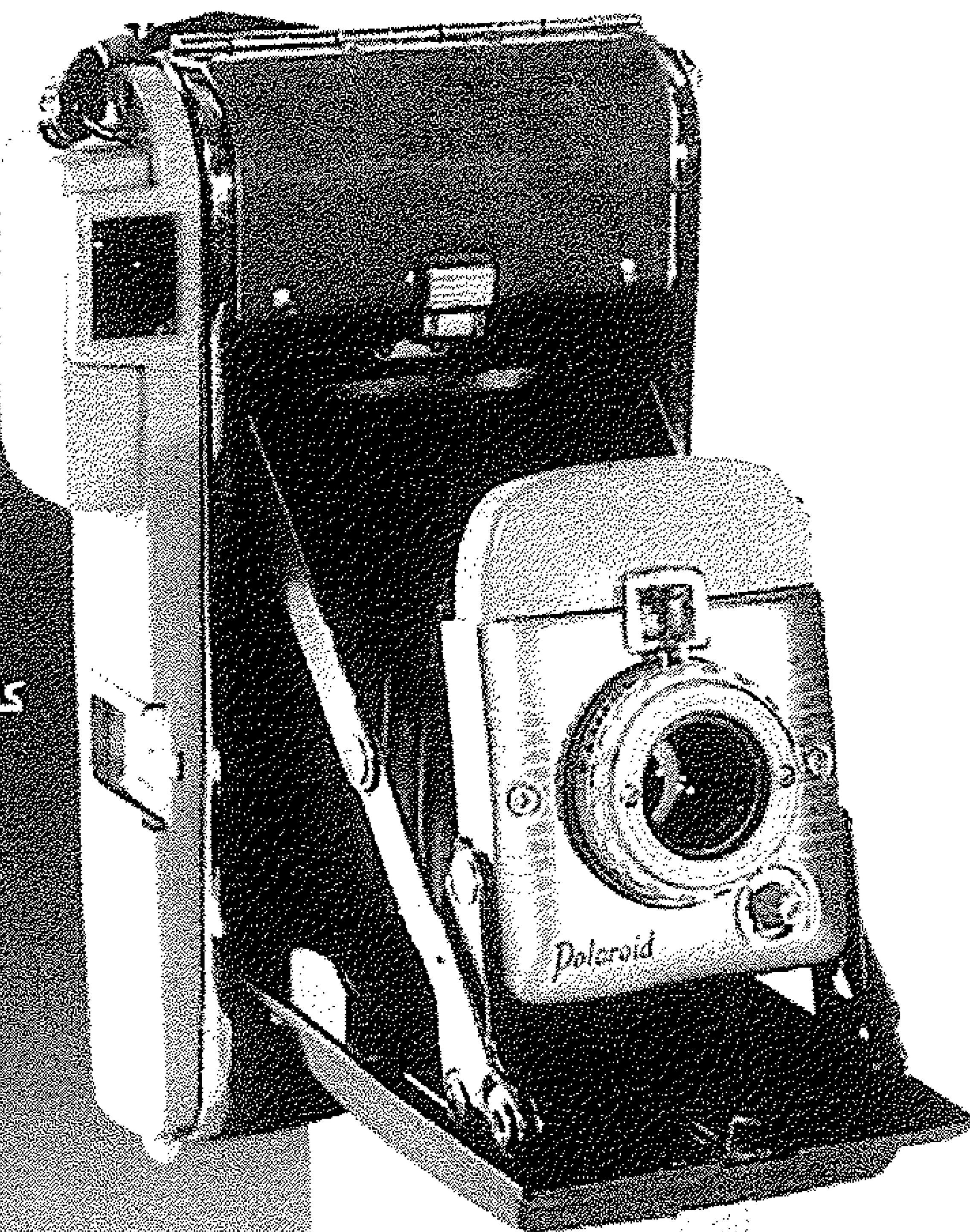
- حتى الآن لست أدري.. لكن لدينا قناعة بضرورة أن تخرج تلك المقتنيات إلى النور حتى يمكن الاستفادة منها بدلاً من وضعها في المخازن.. لكن لابد من تصنيف ما لم يتم تصنيفه حتى الآن.. وإن كان ذلك يحتاج إلى وقت وجهد غير متوفرين حاليا.. لكن.. الله كريم.■



كاميرا موديل ١٩٣٠م

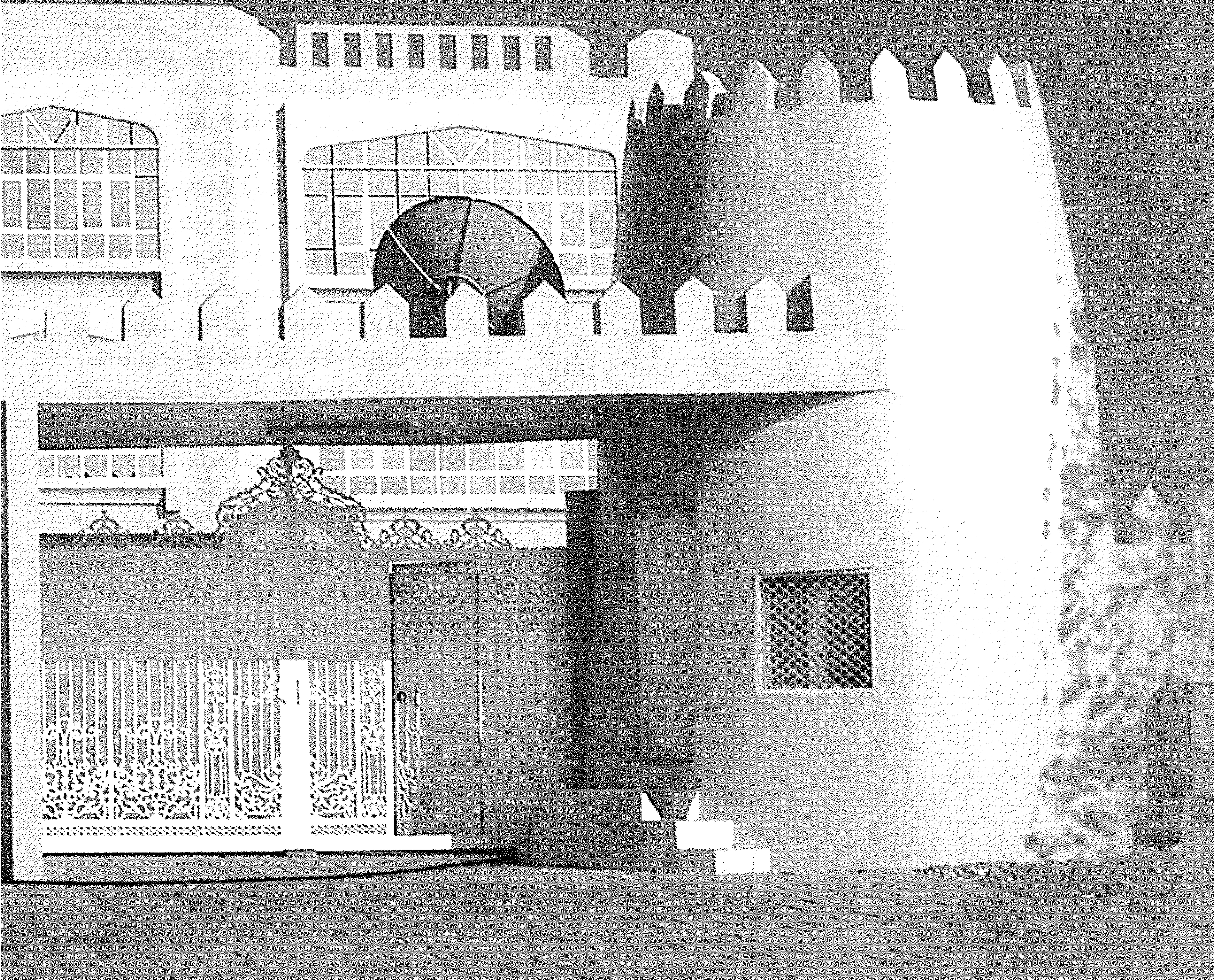


كاميرا موديل ١٩٤٧م



كاميرا موديل ١٩٥٤م

الجزيرة الحمراء..
تاريـخ وذاكـرة



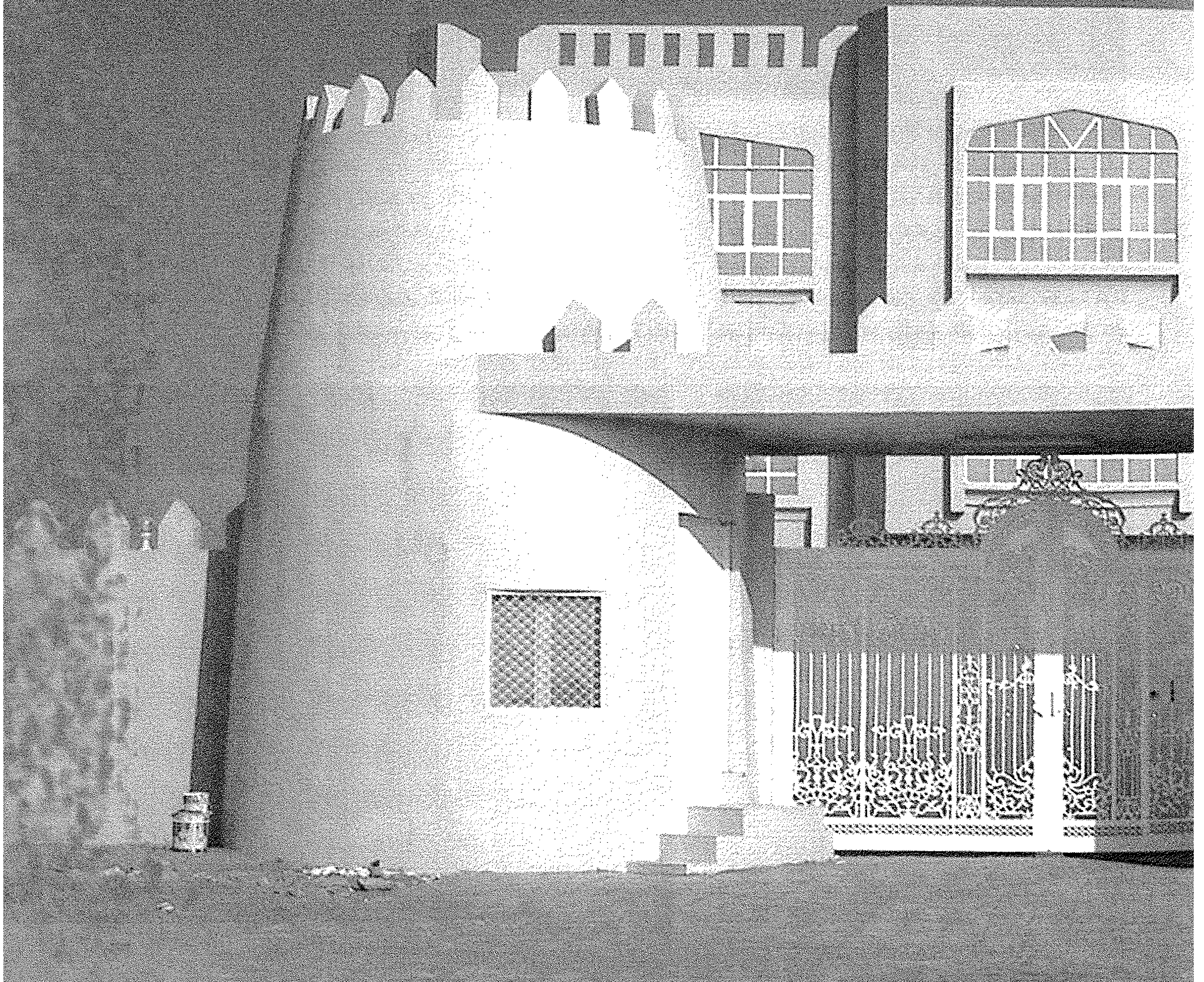
■ مريم جمعة خلفان

من يقصد إمارة رأس الخيمة.. لابد أن يتوقف قبل ٣٠ كيلومتراً منها ليستطلع ما حوله.. إنها الجزيرة الحمراء التي يقسمها الطريق إلى نصفين، جزء يسترخي منذ زمن على الشاطئ ملتصق به يرفض أن يغادره رغم أن أهله غادروه، وجزء مفعم بالحياة مرتبط بها.. يسكنه الأمل.. وتربطه بالعالم وشائج الحداثة والمدنية.. لكنه لا ينسى الطرف الأول.. فكلاهما امتداد للآخر.

الجزيرة الحمراء..

لماذا هذا الاسم وما هي قصته أو مبرراته؟

سؤال يفرض نفسه على الزائر ليبحث فيه أو على الأقل ليستفسر عنه، والأقاويل كثيرة..



البعض يقول: هو لون انعكاس أشعة الشمس على رمالها البللورية الذهبية، فتظهر للرائي من بعيد كأنها كتلة مشتعلة من الحمرة الموشاة بالذهب، وهناك من يقول: إن القطاع الجنوبي من رأس الخيمة تنتشر فيه المناطق البرية، حيث كثبان الرمال الحمراء والأشجار والمراعي الجميلة، خاصة في مواسم سقوط الأمطار في فصل الشتاء، إذ تنمو الحشائش، وأنواع من الأعشاب والنباتات البرية، ومن لون الكثبان الحمراء اكتسبت الجزيرة اسمها.

ورأي ثالث يقول: لقد ارتوت أرضها بدماء الذين سقطوا عليها، ولهذا سموها بالجزيرة الحمراء، وتشهد على ذلك أبراج المراقبة المنتشرة، وهذه الأبراج هي الآثار الباقية الدالة على شبكة الدفاع القوية التي حمت أراضي وبساتين النخيل وقرى رأس الخيمة التي تم تشييدها بأيدي جنود فطنين حماية لهم من أي مشكلة ربما تواجههم.

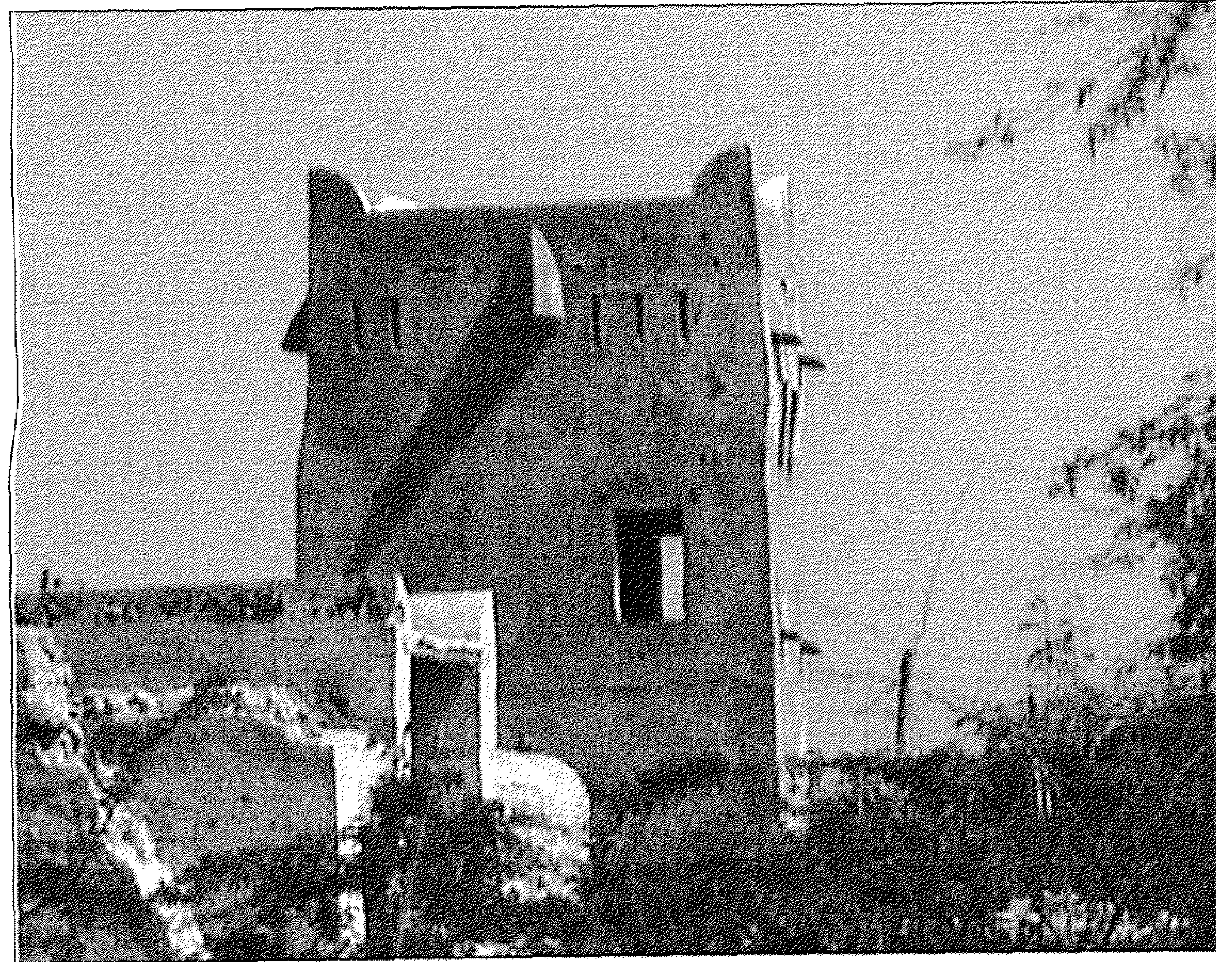
وفي رأي رابع: أن التسمية تعود إلى كثرة الشعب المرجانية الحمراء التي انتشرت قبالة شواطئها البحرية، وكانت هي الأخرى شاهداً على صمود الجزيرة في وجه الغازين الذين لم تستطع سفنهم تجاوزها فتوقفت في عرض البحر.

والرأي الأخير: إن التسمية ترجع إلى بدايات عهد الانجليز كمستعمرين في المنطقة، حيث لاحظوا عند قدومهم أن الجزيرة محاطة أو محفوفة برمال أو طين يميل في لونه إلى الحمرة، مما حدا بهم إلى إطلاق اسم «الجزيرة الحمراء» عليها وقد أصبح بعد ذلك اسماً معروفاً ومتداولاً لها.

وحتى لا نذهب بعيداً في الأقاويل التي أعتقد أنها كلها لها وجه من الحقيقة، يحس به من عاش على أرضها، فسوف نتوقف قليلاً عند تاريخ هذه الجزيرة، فقد جاء في المصادر أنها هي أقدم منطقة عرفت في رأس الخيمة حيث عثر على ركام ضخم من الهياكل ومجموعة من الأسطح الخارجية مما أعطى تلميحات أولية لأنشطة إنسانية في هذه المنطقة، بالإضافة إلى ذلك عثر على الفخاريات والخرز وشباك صيد، وأدوات من الصوان وهي تمثل الحضور السابق لسكان البادية الذين كانوا يعيشون على الساحل أثناء أشهر الصيف[١].

وتعد جلفار (رأس الخيمة) مدينة حضارية لها رنين في صفحات التاريخ الخليجي، فقد ظهر منها الملاح المشهور أحمد بن ماجد الذي ما زال بيته شاهد عيان على انتمائه لهذا المكان، فقد تغني بجلفار وأصالتها وحضارتها ووصفها في مخطوطاته وأراجيزه[٢].

تقع الجزيرة الحمراء جنوب مدينة رأس الخيمة على خطي العرض ٢٥,٤٢ وخط الطول ٥٦,٠٠ شرقاً، وكانت في السابق شبه جزيرة، ثم أصبحت جزيرة فيما بعد بسبب حركة المد والجزر العاليين، وتقيم في تلك



القلعة الأثرية بالجزيرة



الطرف الجانبي من القلعة بحاجة إلى ترميم



قبة المسجد



صورة المسجد القديم بالجزيرة

الجزيرة (قبيلة زعاب)، وهي من القبائل العربية الكريمة التي كانت تسكن في بندر ريج على الساحل الشرقي من منطقة شمال الخليج، ثم جاءت واستوطنت هذه الجزيرة منذ تلك الفترة، فأصبح يطلق عليها جزيرة زعاب نسبة لقبيلة زعاب.. أما تسميتها بالجزيرة الحمراء فقد تحدثنا عنها سابقاً.

وقد وصف الرحالة لوريمر الجزيرة الحمراء فقال: تتألف من ٥٠٠ منزل، ولدى السكان ١٠٠ جمل، و١٠٠ حمار، و١٥٠ بقرة، و٥٠٠ رأس من الماعز، ولديهم قارب لصيد اللؤلؤ، و١٠ قوارب صغيرة يجلبون بها حطب الوقود لبيعه في الشارقة ودبي[٣].

قبيلة زعاب

من القبائل المشهورة، وتنتمي إلى (سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان)، وقديماً كانت قبيلة بن سليم تقطن في شمال المدينة المنورة وقسم منها انتقل إلى الرياض، أما القسم الآخر فقد سكن في الإحساء بمنطقة ثمار[٤].

وتشير المصادر التاريخية إلى أنه منذ القدم هاجرت قبيلة (زعب) أو زعاب من الجزيرة العربية إلى بلدة (الريغ) في بر فارس[٥]، وقد هاجر جزء من هذه القبيلة من الريغ أو الريج وجاؤوا إلى ساحل الإمارات وتوزعوا في عدة مناطق واستوطنوا في منطقة (بو بقرة) في الباطنة.

أما القسم الأكبر فقد استقر في الجزيرة التي تقع جنوب مدينة رأس الخيمة، ومنذ وصولهم إليها واستقرارهم في بلدة بالجزيرة تسمى (أم عويمر) سميت الجزيرة بجزيرة زعاب.

وزعاب نسبة إلى القبيلة التي استوطنتها، أما الجزيرة الحمراء فهو اسم أطلق على تلك الجزيرة منذ مائة وخمسين عاماً تقريباً[٦].

وقد ذكر حميد بن سلطان الشامسي: إن وصول قبيلة زعاب إلى الساحل كان في القرن الثاني عشر الهجري. أيام وصول الدعوة الوهابية من نجد إلى عمان تحت قيادة مطلق المطيري[٧].

بينما ذكر عبد الله بن صالح المطوع أن قبيلة زعاب سكان الجزيرة الحمراء أهل سابقة في إجابة الدعوة السلفية منذ وصلت إلى عمان، وبذلك صار لهم يد عند الإمام سعود بن عبد العزيز[٨].

ويقول المطوع في مخطوطة (عقود الجمان): قبيلة زعاب من بني سليم، وهم أهل عدة وعدد، وكانوا في بادئ الأمر لم يدخلوا في الحلف مع القواسم، ولكن في



المدرسة القديمة في الجزيرة.. وفي الإطار المدرسة الحديثة

سنة ١٢٠٢ هـ مشى إليهم الشيخ صقر بن راشد فحاربهم واستولى على بلادهم فدخلوا في الحلف[٩].

أما (مايلز) فقد قال: (زعاب قبيلة هناوية) عددها مئتان، وكانت تسكن ثلاث قرى في عمان هي: الباطنة (رشاد والزعاب) والروضة والقشدة، وهم سنيو المذهب[١٠].

وقديما كانت قبيلة زعاب تسكن في (منطقة المزاحمي) على ساحل البحر وهي التي بنت (برج المزاحمي) في ذلك المكان حسب أحد الأقوال.. ثم زحفت إلى المكان الذي تقع فيه الجزيرة الآن وأسست بلدة قديمة كانت تسمى (أم عويمر)، وهي قرية بها آثار ومنازل قديمة تشهد بماضيها وتاريخها. ويمكن تقسيم قبيلة زعاب الذين يسكنون في الجزيرة الحمراء إلى ثلاث بطون أو فروع: أولا الرياقة الذين هاجروا من الريج. وثانياً: عيال صقر وهؤلاء هاجروا من القصيبة بعمان. وثالثاً: زعاب الحجاز وهم جاؤوا من حول المدينة المنورة.

ومن أمراء زعاب (قضيب بن أحمد الزعابي)، ثم (ابراهيم بن قضيب)، ثم تولى بعد هذين (محزم بن محمد)، ثم (عبد الله بن قضيب)، وجاء بعده (حسن بن أحمد)، وبعد وفاته تولى ابنه عبد الله بن حسن.

ومن وجهاء زعاب المشهورين (جاسم بن دلم) وقد بنى برجاً في الجزيرة يعرف بـ (برج بن دلم)، وله مسجد قديم في (الحيل) كان يصلي فيه وفيه لقي منيته حيث قتله غيلة أحد الأشخاص، وهو خارج من صلاة المغرب[١١].

أهم مناطق الجزيرة الحمراء

تنقسم الجزيرة الحمراء إلى قسمين: الجزيرة القديمة، والجزيرة الجديدة، وتتكون من رفاعة زعاب، ورفاعة بدو، والصبيت، والدفان. حيث يقطن الجزيرة إلى جانب الزعاب الذين يعدون الغالبية العظمى البدو، ويعيش أهل الجزيرة ضمن جماعات وتسمى كل جماعة فريج ويقال (فريج فلان بن فلان) فينسبون الجماعة إلى كبير القبيلة الذي يعد معروفاً من الجميع.

وتنقسم الأحياء الشعبية (الفرجان) إلى ثلاثة أقسام: الفريج الغربي، الفريج الشرقي، فريج البحر. وفريج

الزعاب يعكس واقعاً نادراً في الإمارة والدولة عامة، لكونه نموذجاً متكاملاً للحي أو القرية الإماراتية الشعبية والتقليدية الصرفة كما كانت تماماً في الزمن الجميل، حيث يحتفظ بملامحه كاملة، حتى يكاد الزائر يداخله الشك بأن المكان ما زال مسكوناً، وعامراً يضج بالحياة، ومن يخطر بباله أن البيوت الفارغة والقرية الخاوية على عروشها ما هي إلا مرتع هجره قاطنوه وأصحابه قليلاً (وهم عائدون ليضخوا الحياة في شرايينه.

وهناك ما يسمى بالمقيظ وهو قيام مجموعة من الأهل والأصدقاء بحمل متاعهم وزادهم والارتحال إلى مكان آخر تغييراً للجو، ومن أهم المناطق التي كان يذهب إليها سكان الجزيرة (منطقتا خت ودبا)، وهما منطقتان تابعتان لرأس الخيمة وتقعان بالقرب منها.

الحياة الاجتماعية

تتميز المجتمعات الصغيرة في الجزيرة بقوة الروابط الاجتماعية بين أفرادها، سواء في الأسرة أو بين الجيران، لأن تلك المجتمعات لا تزال على عاداتها القديمة لم تؤثر فيها المدنية، فعلى الرغم من الكد للحصول على لقمة العيش بين أفراد المجتمع سواء منهم الرجال أو النساء، فإن المحبة والألفة والترابط لا تزال تسود بينهم، حيث يتبادلون الزيارات الدورية ويجتمعون في أحد المنازل بصفة مستمرة لتناول القهوة والشاي، كما يوجد لدى بعض الأسر بالجزيرة الحمراء عادات راسخة مثل الاجتماعات الدورية الأسبوعية، حيث يجتمع جميع أفرادها في يوم معين منذ أكثر من أربعين عاماً مضت ولا تزال تلك الاجتماعات موجودة بينهم حتى يومنا هذا.

وفي الماضي.. كان أهل الجزيرة يعتمدون في معيشتهم على رعي الإبل وتربيتها وتأجيرها لنقل المؤن والبضائع، كما يربون الحيوانات والمواشي، ويبيعون مواليدها وألبانها، وعلى تصنيع وبيع الفحم والحطب.

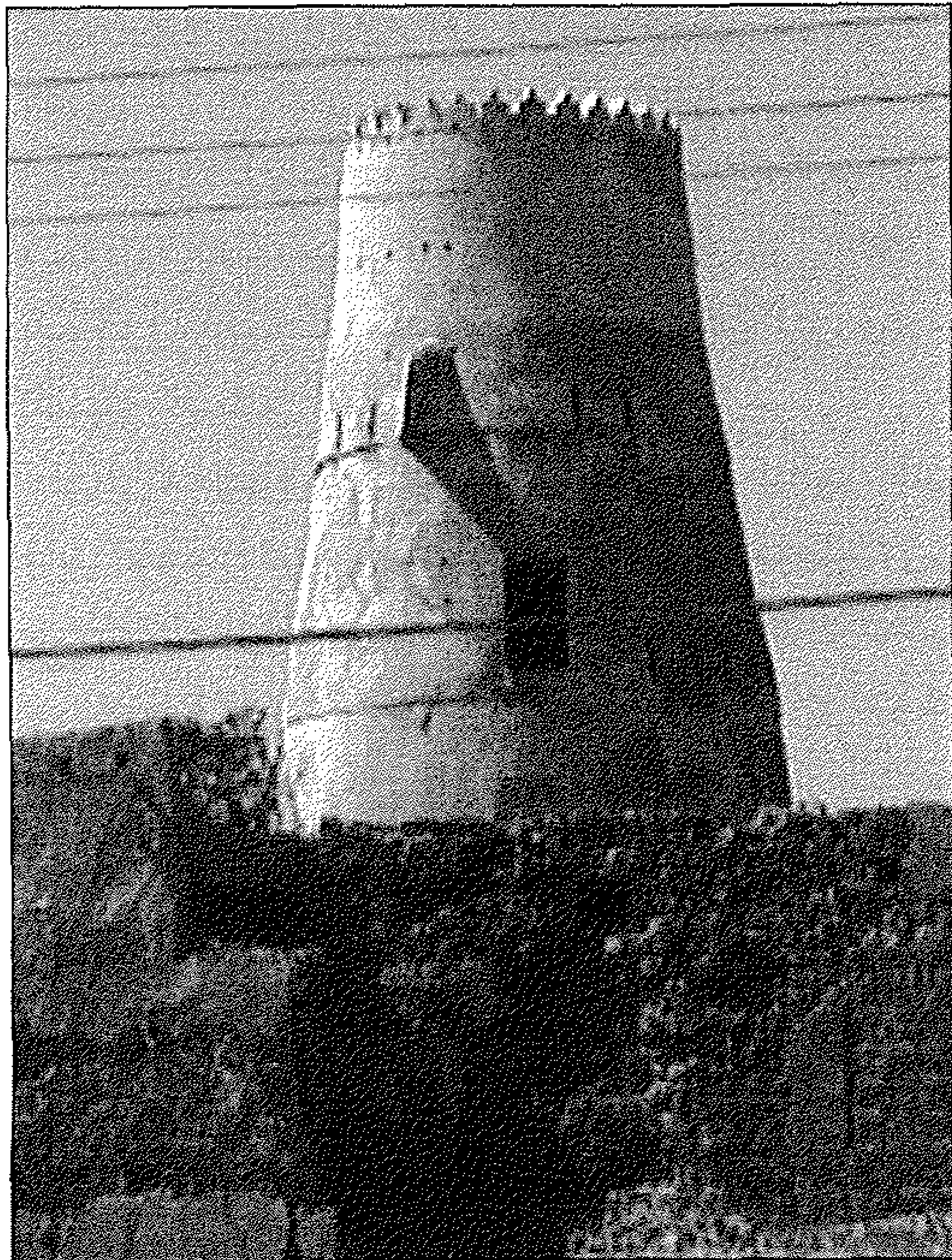
كما سافر عدد منهم إلى الكويت للعمل، وكسب الرزق حيث كانت محط أنظار الجميع في تلك الأيام.

ومن عاداتهم وتقاليدهم التي ما زالوا يتمسكون بها إكرام الضيف، فإذا نزل بينهم ضيف، سواء أكان فرداً أم جماعة، تركوا له وقتاً للراحة قبل أن يسألوه عن أخباره وعلومه، ومن الملاحظ أن بعض العبارات التي كانت تستخدم بينهم في الماضي لاتزال تستخدم حتى الآن، مثل قولهم: (نبغي الخبر والعلوم) للضيف بعد الترحيب به وإكرامه، وإذا ما كانوا جماعة فإن السؤال يوجه إلى من هو أكبر سناً.

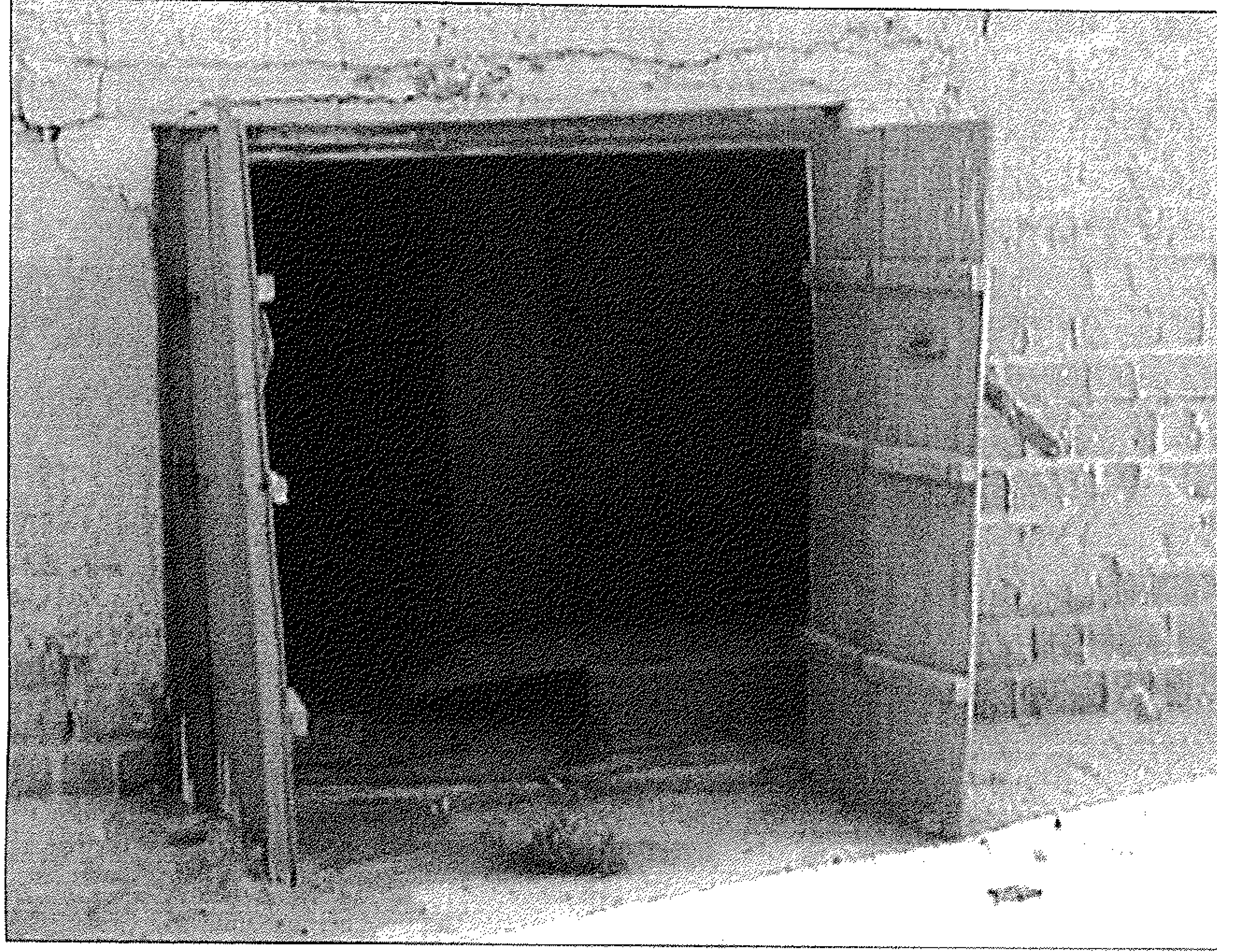
كما أن أهل الجزيرة ما زالوا يستعملون ألفاظاً ومسميات كانت قد جرت على ألسن الناس قديماً ويطلقونها على الحيوانات والنباتات حولهم مثل: (أم العوف) على البقرة و(أم القبيس) على البومة، و(أم قرين) على النار، و(أم الخون) على العنز، و(أم الشحم) على الدنيا، و(أم عامر) على اليد اليمنى و(أم عابس) على الضبعة.

كذلك يطلقون التعابير على الفعل الذي يسند إليها مثل: (أم عابس) تأكل الرطب واليابس، (أم سبعة أرواح) القطة، (أم الركب) مرض يصيب الركب والمفاصل ويعيق الإنسان عن السير، (أبو طبيق) مرض يصيب العين، (أبو رمح) مرض يصيب الغنم، (أبو دمغة) مرض يصيب الرأس من ضربة الشمس ومن البرد ويعالج بالكي على شكل علامة تسمى العرقات، (أبو مسامح) الرجل الطيب المرن أبيض القلب، (أبو سبع وسبعين رجل) دويبة دودية طولها ٦ سم متعددة الأرجل، (أبو حليمة) نوع من الجراد، (أبو موسى) الجوع أو الفقر.

كما أنهم يستعملون اللهجة الدارجة التي كان عليها أجدادهم وبخاصة في محافظتهم على التسميات القديمة مثل: الحوش، الدكة، الصفة، الدَّرَج، المصباح، الفرجة، الخابية، السماوة، الوجار، الكمر، الطاق،



إحدى القلاع المخروطية


دكان من الطراز القديم

الدريشة، المحكمة.. وغيرها أو تلك الألفاظ المستخدمة في الأدوات المنزلية مثل: المنخل، الرحى، الصاع، النصيف، الرُّبَيْع، السموّر، القربة، السقا، الميقعة، المقرصة، المجرفة، القنارة، الصميل، الدلة، البريق، الفنجال، البيالة، الغضارة، الصينية، المهقة، البيز، النجر، المبخرة، المبرّد، الملقاط، المشخالة، الكرسي، المسند، المركي، المحماسة، المنفاخ، المحراك، الفتيلة، الليفة، السراج، القاز، الغاز، القدح، الطاسة، الصحن، القدر.

أو الألفاظ المستخدمة في المجوهرات مثل: الخماخم، الخواتم، القلادة، العقد، الشميلة، الأساور، الكف، الحجول، الهامة، الصدرية، الرشرش، المرتهشة، السبته، الحلاق.

أو في المحافظة على الأمثال الشعبية مثل قولهم: اللي فاتو الفوت ما ينفعو الصوت، أو لما طاح الجمل كثرت سكاكينه والولد منبته من منبت الخال، والبنت منبتها من حجر عمتها. أو الرأس اللي ما به هوى موته وحياته سوى.

والوجبة الرئيسية في طعامهم هي الأرز بالإضافة إلى السمك واللحم والدجاج، وأشهر الأكلات الشعبية هي:

العيش المحمر: الذي يمتاز بلونه الأحمر الفاتح بسبب إضافة مادة الدبس له والدبس هو: سائل التمر الذي ينزل منه عند التخزين، أو بسبب إضافة عصارة التمر المنقوع في الماء بواسطة قطعة من القماش، أو بإضافة السكر المحروق مع السمك الصافي والجش المقلي.

والعيش المودم: يمتاز بلونه الأخضر يضاف إليه بودرة البهارات المختلفة ويكون مخلوطاً بقطع من سمك الهامور والشعري الكبير الحجم أو سمك القرش.

صناعات تقليدية

ومن الصناعات المعروفة القديمة في الجزيرة الحمراء:

صناعة البراقع: يصنع البرقع من قماش هندي سميك يشبه الورق، ووفقاً لمقاس وجه المرأة وكذلك عمرها، ويخاط ليستر معظم معالم الوجه تاركاً للعينين فتحتين كبيرتين تلتقيان فوق الأنف بقطعة خشبية تسمى «السيف»، وتربط الجزء السفلي من البرقع بالجزء العلوي المحيط بالجبهة والمسمى «الشبق» الذي قد تكون خيوطه فضية أو ذهبية للأعراس والمناسبات، كما يمكن أن يغالى فيه فيكون من السلاسل الذهبية، ويصقل البرقع بعد خياطته بحفة بمحارة كبيرة أو بحجر خاص، وتتعدد البراقع وتتمايز فيما بينها، فهناك البرقع الأخضر والبدوي ذو الجبهة العريضة، وكذلك البرقع العيناوي، الذي يمتاز بجبهته الدقيقة وباتساع فتحتي العينين فيه.

صناعة الجفير: هو السلة المصنوعة من خوص النخيل ليستخدمها أهل البحر في حمل الأسماك، فيما يستخدمها أهل البر في حمل الرطب، كما تستخدم في حمل المشتريات من السوق.

وصناعة السرود: والسرود هي قطعة حصير مدورة توضع فوقها أطباق الطعام، وتصنع من خوص النخيل بعد نقعه بالماء لتليينه، ثم تصنع منه الجديلة «السقة» وبعدها تخاط الجديلة باستخدام المسلة (الإبرة الكبيرة) والخيط «السير» وبشكل حلزوني دائري تتحدد مساحته حسب الرغبة، إذ تعرف السراريد بأحد الحجمين: خمسة وعشرون باعاً أو ثلاثون باعاً، وقد تصنع السراريد لتستخدم كمفارش للأكل أو كقطع لتزيين واجهات المنازل.

صناعة المكب: المكب أو «المكبة» غطاء هرمي يصنع من نوع خاص من خوص النخيل، وتغطى به «الفواله» أو صينية الطعام لحفظ ما فيها عن الحشرات.

صناعة التلي: وهي من الأشغال النسوية الهامة التي لا غنى عنها في تزيين الملابس، وتستخدم في صناعتها

ست بكرات من الخيوط «الهدوب» الملونة حسب الرغبة، تجمع أطرافها بعقدة مشتركة تثبت بإبرة صغيرة على «مخدة الكاجوجة» التي يثبت عليها كذلك طرف بكرة من خوص التلي، تبدأ عملية النسيج «السف» بطريقة دقيقة تبرز مهارة صاحبتها في إنتاج شريط التلي الذي قد يزيد طوله عن ثلاثين باعاً ليكون جاهزاً لتزيين أكمام ثوب المرأة «البهنك» أو أكمام ورقبة اللباس «الكندورة».

وهناك صناعات أخرى مثل العريش وبناء السفن.

آثار الجزيرة

ما يميز بلاد جلفار (إن صح التعبير) أو إمارة رأس الخيمة حالياً، شهرتها بعدد كبير من الحصون والأبراج والقلاع التي تحكي تاريخ المنطقة وماضيها العريق. ولا يستطيع الدارس أن يمر مرور الكرام على تلك الأكوام من الآثار القديمة التي ظل بعضها يقاوم ظروف الطبيعة وقسوتها وتنكر الإنسان الذي لم يعد يلتفت إلى هذه المباني المشيدة في أماكن حساسة على مداخل البلاد ومخارجها إلا أن يقف متأملاً في تلك الأشكال العسكرية المبنية هنا وهناك والتي شهدت في يوم ما العديد من المواقع والحروب وصدت عن البلاد جيوش المعتدين.

والطابع المحلي هو السائد في بناء هذه الحصون التي اعتمدت على ما يوجد في البيئة من مواد، كما أن طريقة تصميمها وهندستها روعي فيها ظروف المناخ من حرارة ورطوبة، لذا كان يستخدم (المدار) أو الطين اللين في بناء هذا النوع من المباني، وبعضها تبنى من حصى الجبل أو من الجص المحروق، وسقفها يبنى من الجندل أو من جذوع النخيل، وتفرش الدعون على السقف وهي من سعف النخيل.

وكان في جلفار قديما عدد من الأبراج والحصون التي شيدت حول المدينة وفي المناطق السكنية[١٢].

ومن آثارها التي لا تزال شاهدة على أصالتها حصن قلعة الزعاب وأثر بري (بئر) البومة، فضلاً عن البيوت القديمة التي خلفها الأولون والتي ما زالت آثارها باقية حتى الآن وهي ليست مهجورة بل يقطنها العمال الآسيويون الذين استقدمهم تجار ونواخذة وبعض رجال الجزيرة وهم يعملون في مهنة الصيد، ويعيشون في هذه البيوت خلال فترة عملهم لدى صاحب العمل.

تعد الجزيرة الحمراء من المناطق السكنية الراقية في إمارة ر أس الخيمة والمكتظة بالسكان بل هي في مدخل الإمارة مما يجعلها تمثل واجهة لإمارة رأس الخيمة، ومما لا شك فيه أن الناظر بآفاق المسيرة الاتحادية بدولة الإمارات العربية المتحدة بين الأمس واليوم والغد سوف يرى المنجزات والمكتسبات وهي ماثلة أمام عينيه، لا سيما تلك المتعلقة بالحياة اليومية للمواطن وتحسين ظروف معيشته وسكنه فضلاً عن الصحراء التي تحولت إلى امتداد أخضر في كثير من جنباتها، وفي الطرقات التي وصلت كل أطراف الدولة، وفي المطارات والموانئ، وفي المدن والشوارع وداخل كل بيت، والأهم من هذا كله هو بناء الإنسان الإماراتي الذي هو الإنجاز الأكبر.■

المصادر والمراجع

١- شاكر خصباك، دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة في الجغرافيا الاجتماعية، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٧.
٢- نجيب عبد الله الشامسي، رأس الخيمة حاضر المستقبل، هيئة البحث التابعة.
٣- ج.ج لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٢. انظر كذلك- حميد بن سلطان بن حميد الشامسي، نقل الأخبار في وفيات المشايخ وحوادث هذه الديار كتاب يبحث في تاريخ وتراث الإمارات العربية وعمان والخليج العربي، مراجعة فالح حنظل أبوظبي: مؤسسة دار الفكر الجديدة للطباعة والتوزيع والنشر.
٤- علي محمد راشد، الحصون والقلاع في الإمارات.
٥- مايلز، الخليج بلدانه وقبائله.
٦- معجم قبائل الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٨٣م.
٧- راجع البلدان والمناطق التابعة لجلفار، الفصل الثالث.
٨- عبد الله بن صالح المطوع، الجواهر واللآلئ.
٩- عبد الله بن صالح المطوع، عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان.
١٠- أحاديث بعض الرواة وكبار السن في منطقة الجزيرة الحمراء.
١١- ذكر الشيخ محمد بن علي المحمود أن جاسم بن دلم كان وجيهاً له شهرته ومكانته، وعرف عنه أنه من رجالات الجزيرة الحمراء المغاوير وقد تميز بنظرته الثاقبة ومكانته وهيبته في نفوس أبناء قبيلته ونظراً لما تحلى به من صفات الشجاعة والإقدام وعدم الخوف فقد امتدت إليه أيادي الشر لتغتاله وهو في بيت الله بأحد مساجد الحيل، حيث أطلق عليه أحد الأشخاص رصاص بندقيته وهو خارج من المسجد بعد صلاة المغرب.
١٢- علي محمد راشد، الحصون والقلاع في الإمارات، المصدر السابق، ص١٥.

1- http:www.albayan.ae
2- http:www.uaeheritage.com/4images/categories.php?cat_id=33

كنوز المعرفة.. في مركز جمعة الماجد

■ د. عمار الددو

خدمة لمحبّي التراث وطلاب العلم والمعرفة.. تشرع «تراث» ابتداءً من هذا العدد بالتعاون مع مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في فتح نافذة على ما لدى المركز من كنوز التراث المعرفي للاستفادة منها، ويقوم المركز بالرد على جميع الاستفسارات والتساؤلات العلمية بشأن المخطوطات وأماكن وجودها، ويساعد الباحثين في الحصول على نسخ منها من المكتبات العالمية إن لم تكن موجودة لديه، وأبدى المركز استعداده لتلبية طلبات تصوير المخطوطات للراغبين، الذين عليهم تقديم طلباتهم إلى قسم المخطوطات ويحدد فيها الهدف من التصوير والعنوان المطلوب واسم المؤلف وعدد الأوراق ورقم المخطوط في المركز، وأن يكون الطلب مؤيداً من أي جهة علمية، أو ما يثبت أن الباحث مهتم بالتراث وتحقيقه، وموقع المركز على الإنترنت:
www.almajidcenter.org/
وفيما يلي مجموعة من العناوين الموجودة بالمركز:

– سبك النضار وكسب المفاخر ونثر الدرر، لابن الزكي عبد الله بن محمد بن عبد الله الغزي، ت٨٩٧ هـ، تقع في (١٧٩) صفحة، في كل صفحة (١١) سطراً، منسوخة سنة (٨٩٧) هـ، بخط المؤلف، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث في استانبول بتركيا، تحت رقم (٣٠٤٦)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٣).

– التبيين في أنساب القرشيين، لابن قدامة عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي، ت ٦٢٠هـ، تقع في (١٢٦) ورقة ضمن مجموع (١٣١–٢٥٧)، في كل صفحة (١٣) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في المكتبة السليمانية بتركيا، تحت رقم (٥٩٣)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٥).

– حياة القلوب في حب أحباب علام الغيوب، عبد الله سعد، تقع في (٢٥) ورقة، ضمن مجموع (١–٢٥) في كل صفحة (٢٣) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الفاتيكان في إيطاليا، تحت رقم (١١١١)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٥).

– تخميس قصيدة ابن الوزير، لأحمد المسوري أحمد بن سعيد بن الحسين، من علماء القرن الحادي عشر الهجري، تقع في (٥) ورقات، ضمن مجموع (٢٦–٣٠)، في كل صفحة (٢٢) سطراً، منسوخة سنة (١٢١٩) هـ، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الفاتيكان بإيطاليا، تحت رقم (١١١١)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٥).

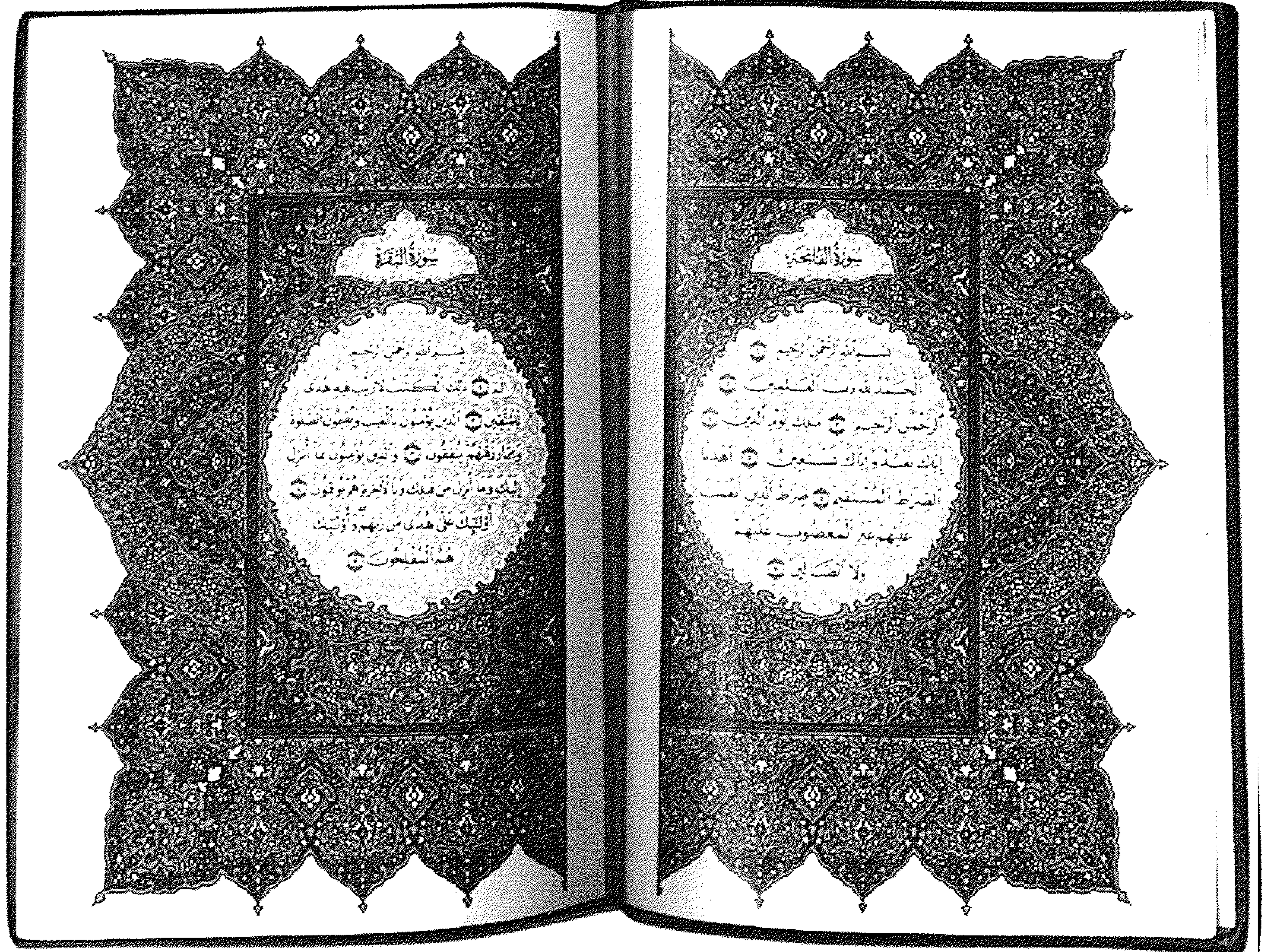
– الأمالي الشارحة لمفردات الفاتحة، للرافعي عبد الكريم بن محمد القزويني، ت٦٢٤ هـ، تقع في (١٤٢) ورقة، في كل صفحة (٢٥) سطراً، منسوخة سنة (٦٦٩) هـ، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٤٥٥)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٧).

– نبذة من التاريخ / مجهولة المؤلف والعنوان، أولها بعد الحمدلة «.. أما بعد فهذه نبذة من التاريخ لخصتها وجمعتها على سنين الهجرة النبوية... إلى ما انتهى إليه زماننا على الترتيب...» تقع في (١٦٩) ورقة، في كل صفحة (١٧) سطراً، منسوخة سنة (ق٧) هـ، مصوّرة عن الأصل المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث في استانبول بتركيا، تحت رقم (٢٩٨١)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٧).

– مختصر مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، مجهولة المؤلف، تقع في (٨) ورقات، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية، لابن طولون حسن بن حسين بن أحمد، ت ٩٠٩هـ، تقع في (٦) ورقات، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– نزهة الأنام بتاريخ الخلفاء ومن يذكر من ملوك الإسلام، للعثماني حُسن بن محمد، تقع في (١٦) ورقة، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨). ■



أثر النص القرآني في انتشار اللغة العربية

■ د. محمد أحمد عبد الهادي رمضان

الغيرة على لغتنا العربية هي التي دفعت مجلة «تراث» لأن تخصص لها هذه الزاوية، والتي وصلت حلقاتها في هذا العدد إلى الحلقة الثالثة والستين منها.. تناولت فيها كل شهر اللغة العربية ولماذا أصبحت في مهب الريح، وكيف نصونها ونحافظ عليها رغم قناعتنا أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظها عندما قال في كتابه العزيز: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).. ومساهمة منا في الحفاظ على لغتنا التي هي هويتنا وعنواننا بين الأمم.. والتي هي ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.. والتي هي في المقام الأول لغة قرآننا الذي هو عصمة أمرنا وحياتنا وآخرتنا.. سنتناول في هذا العدد النص القرآني الذي هو حضارة وقيم وتعاليم وحياة.. والكلام عنه يستتبع أن نتحدث عن هذا النص منذ اللحظة التي أُنشيء فيها أول مسجد في المدينة، مكاناً للتجمع والتعليم والإرشاد، ومنطلقاً لنشر الدعوة، ونواة للحضارة العربية الإسلامية.. وكيف ساهم هذا النص في انتشار اللغة العربية التي هي حضارة، وأن علومها وثقافتها وعمارتها مبنية على أسس محورها هذا النص.

لقد استطاع النص القرآني- في مرحلة تشكله التي امتدت ثلاثة وعشرين عاما، وبعد أن اكتمل «كتابا»- أن يقلب الموازين في الديار العربية وفي مهاجر (العرب) التي انتقلوا إليها بعد الفتوحات، وأن ينقل ثقافتهم من المرحلة الشفوية إلى مرحلة التدوين، ويجعل الأميين «أصحاب كتاب» ويوحد لغتهم ويساهم في اتساع أغراضها وفي انتشارها وذيوعها.

إن هجرة القبائل وائتلافها في أحلاف متحدة قبيل الإسلام مهدت للوحدة اللغوية، وإلى جانب ذلك، كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى التقريب ما بين لهجات القبائل مثل الأسواق والمواسم والتجارة والحج، كل هذا أدى إلى ظهور لغة أدبية موحدة في مجال الأدب.

لقد حوّل القرآن الثقافة من المرحلة الشفوية إلى مرحلة التدوين، وبهذا الصدد يكفي أن نشير هنا إلى أن رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم)، كان يجعل الأسير من أهل مكة يُعلّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وذلك من شدة حرصه وحرص الجماعة على تدوين النص القرآني، مما أدى إلى إحداث تغيير نوعي في الثقافة، وهكذا يصبح النص القرآني (الكتاب)، أول نص يُكتب باللغة العربية(١)، ويتحول المسلمون بموجبه إلى قارئين وكاتبين للغة النص القرآني.

أما اتساع أغراض اللغة فيكفي أن نقول إن اللغة كانت لا تعدو قبل مجيء الإسلام عن كونها أغراضاً للمعيشة ووصفاً لمرافقها وإثارة للخصومات والمنازعات بين قبائلها، فبدأت بعد نزول القرآن على مراحل في:

أ- توضيح العقيدة الدينية التي جاء بها الإسلام: في البرهان على وجود الخالق، وتوحيد ذاته وتقديسه، ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب وغير ذلك، مما يغيب فهمه إلا على بعض خاصة الجاهلية، وأصبح بعد الإسلام وبعد الفتوح الشغل الشاغل للأمة الإسلامية قاطبة.

ب- إلقاء الضوء على أحكام الشريعة الإسلامية واستنتاج الأحكام المناسبة لأحوال الزمان والمكان، ولحسن معيشة المرء ومعاملته للحكام.

ج- أما المرحلة الثالثة في استخدام اللغة فكانت في ضبط أمور الملك، ونظام العمران، ونشر الأمان والعدالة، وفي وضع مباديء العلوم، وترجمة اليسير من العلوم الطبية والرياضية والطبيعية في مرحلة قادمة.

وجدير بالذكر أن هناك ألفاظاً أعجمية ظهرت واستُخدمت في النص القرآني وعُرِّبت: مثل سندس واستبرق والديباج وقسورة، وغير ذلك، وورود هذه الألفاظ في النص القرآني، هو الذي أعطى المسلمين دفعة قوية في عملية الترجمة وتعريب الألفاظ الفارسية واليونانية دون أدنى حرج أو تعقيد.

وظهر التأنق في صوغ الأساليب والتفنن في تنوعها، وإحكام نظمها ووصولها في البلاغة إلى غايتها على مر العصور الإسلامية.

انتشار اللغة العربية

إن دراسة حركة الفتح في صورتها الاجتماعية، تؤدي إلى التعرف على آثارها اللغوية بطريق غير مباشر، ونستطيع أن نتوصل إلى تأثير الحياة اللغوية بالفتوح من نحوين:

١- أما الأول فانتشار هذه اللغة على ألسنة الناس في البلدان التي أظلها الإسلام.

٢- وأما الثاني فهو ما أصاب هذه اللغة من تغيير وما طرأ عليها من تطوير، وبمعنى آخر نستطيع أن نتبين الفتح اللغوي، من حيث سعة اللغة، وجريانها على ألسنة الناس من جهة، وما أصابها على ألسنة هؤلاء الناس من جهة أخرى.

لقد تمكنت اللغة العربية من السيادة رغم انتشار اللغات السامية التي تقاربها، فقد صارعت العربية اللغة الآرامية في العراق والشام، وفي المغرب وجدت فيما خلفته الفينيقية من تراث ما سهل عليها الامتداد والانتشار اللغوي، أما في مصر فقد كان ذبول القبطية الحضاري، وسيطرة اليونانية في الثقافة والإدارة بعض العوامل التي ساندتها أخيرا على الغلبة.

التعريب في العراق:

إن تعريب العراق لم يكلف المسلمين الفاتحين كبير عناء، فعلى جوانب أنهاره، وعلى أراضيه وسهوله فيما بين النهرين في الجنوب وفي الجزيرة العليا في الشمال، كانت تنزل القبائل العربية في الجاهلية، وكانت لغتها العربية نقية بالقدر الذي يسمح به التجاور مع الفرس والاختلاط بهم، وكان قيام دولة عربية كدولة المناذرة في الحيرة وما حولها تمكينا لمظاهر الحياة العربية، ولم يكن المناذرة في عزلة عن الجزيرة، فقد كان يفد على ملوكها، كما يفد على ملوك الغساسنة في الشام، الشعراء، كما ينزل بهم التجار، وكانت تربط بينهم صلة الدم، وكانت تقوم كذلك غارات وحروب

وتُعقد عهود وأحلاف.. ومن الطبيعي أن تكون هذه الصلات والروابط عاملا من العوامل الأساسية في الحفاظ على اللغة العربية...

ولكن في المناطق التي كان يسودها الفرس، كانت البهلوية هي اللغة الفارسية السائدة في القرن السابع الميلادي وهي لا تمت بصلة أو نسب إلى العربية فهي من الأسرة اللغوية (الهند-أوروبية) ومع ذلك فهنا عاملان سهلا على العربية مهمتها في الانتشار:

أ- الذين أسلموا من غير العرب تعرفوا على العربية لأنها لغة القرآن.

ب- تجاور اللغتين العربية والفارسية، كان طريقها إلى أنواع من الصلات اللغوية؛ صلة التبادل وصلة الاقتباس، إضافة إلى كثرة من العرب والفرس كانوا يجيدون اللغتين قبل الإسلام(٢)

التعريب في الشام:

كان لظفر الجيوش الإسلامية، وتمكنها من غلبة الروم في بلاد الشام، أثر كبير في إيقاظ القرابة القديمة التي تصل بين عرب الجزيرة، والقبائل العربية النازلة بالشام، هذه القبائل التي أحست بحاجتها إلى إحياء القرابة بينها وبين العرب الفاتحين، هذه القرابة التي سترتفع بها من المرتبة الثالثة في طبقات المجتمع أيام البيزنطيين إلى الطبقة الأولى في أيام العرب...

هذه القبائل كانت تتكلم العربية مع بعض التغيير، الذي يصيب اللغة حين تنأى عن الموطن وتجاور الغريب... وعلى ذلك لم يكن وقع لغة الفاتحين العرب غريباً على مسامع الأغلبية العربية الجذور، كذلك لم تكن نابية في مسامع الآراميين؛ لأن العربية والآرامية من أسرة واحدة، يجمع بينهما ماض بعيد وأصول عتيقة، ولكن الزمن غطى هذه الأصول الجامعة بطبقة كثيفة من الفروق، وانتهى الصراع بتغلب العربية، فقد كانت لغة القرآن ولغة الدولة، بينما كانت الآرامية تتآكل مع الزمن.

وهكذا فإن اللغة اليونانية (لغة الدواوين)، لم تستطع البقاء وحلت محلها العربية، في حين أن وحدة اللغة بين القبائل العربية والفاتحين عجلت في عملية التعريب.

التعريب في مصر:

لقد كان انتشار العربية في مصر عسيراً إلى حد ما، فليس بينها وبين اليونانية - التي كانت تسود الإدارة والحكم والطبقات المثقفة، كما كانت لغة العبادة في الكنائس المصرية نفسها - صلة ما...

وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة القبطية؛ اللغة اليومية لعامة الشعب المصري من الأقباط، ليس بينها وبين العربية أي صلة.

ومما لا ريب فيه أن امتداد الإسلام ساعد ولو ببطء على انتشار العربية؛ فالذين يسلمون يتعلمون العربية.. وقد نشأت لغة شعبية مبسطة مكنت- بالتدريج - لتحقيق الاتصال والارتباط بين المسلمين والمصريين، فأخذت طريقها إلى الاتساع والدقة شيئا فشيئا مع ازدياد الصلات، ومع استقرار الفتوح، ومع الإقبال على تعلم العربية حتى إذا كان تدوين الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان، حققت العربية وثبة واسعة في مصر، وفي غير مصر من الأقطار الأخرى في الشام وفي العراق، واضطر إلى تعلمها جيل من الناس، يشمل الموظفين جميعا ومن كان حولهم، ممن ترتبط حياتهم المعاشية، وقيمهم الاجتماعية، بهذه الدواوين وهؤلاء الموظفين.

التعريب في المغرب:

كانت تسود المغرب عقب الفتح ثلاث لغات؛ اليونانية، وهي لغة الطبقة الحاكمة من البيزنطيين وهي لغة الإدارة والسياسة، ولغة السكان الأفارقة في المدن؛ وهي خليط من اليونانية واللاتينية ومن السامية الفينيقية (قرطاجنة)، ولغة البربر في المناطق الداخلية.

وكما أن فتح أفريقيا قد تأخر حتى عهد عبد الملك بن مروان وما بعده، كذلك فإن اللغة العربية قد تأخر انتشارها على النحو الآتي:

١- حلت أولا محل اللغة اليونانية في الدواوين (في الإدارة والسياسة)

٢- تغلبت بالتدريج على لغة السكان في المدن بسبب الإسلام وبسبب القرابة بين العربية والفينيقية.

٣- أما البربرية فقد استمرت، لأنها اللغة الأم أولا، ولعزلة البربر النسبية ثانياً.

أثر الفتوح في اللغة:

ساعد انصهار الأفراد في الجيوش على صقل لهجاتهم وصهرها، وتقريب الفروق بينها، والتطلع إلى لهجة واحدة، تموت فيها استطالات اللهجات الأخرى وعيوبها، كذلك امتازت حركة الفتح أنها كانت حركة ذات كتاب، وكان لهذا الكتاب لغة، وكانت هذه اللغة على ألسنة الناس طوال النهار، لا تغادرهم أو لا تكاد.



لقد أدى الاختلاط بوجه عام إلى التطور اللغوي، فكان له أثره في السكان الأصليين فنشأت لغة التفاهم. كما أثر في العرب أنفسهم فظهر اللحن وفشوه.

نشأة لغة التفاهم:

كانت أول ما نشأ من علاقات لغوية في البلاد المفتوحة، وكانت نتائجها إصابة اللغة العربية بقدر كبير من الانحراف على ألسنة المتحدثين بها. ففي الأصوات؛ لا بد أنهم كانوا يصوغونها في نطاق عاداتهم الصوتية، لأن أعضاء النطق عندهم، لا تسمح لهم أن يهجروا هذه العادات هجرا سريعا مفاجئا.

وفي الكلمات، نجدهم اختاروا من الكلمات أبسطها نطقاً، وأقلها ازدحاماً بالحروف العربية الخالصة، وأكثرها درجاً على اللسان.

أما صوغ العبارات، فكان في قالب من لغتهم، والتخلي عن حركات الإعراب لأن الفارسية واليونانية، كانت قد تخلت عن النص الإعرابي.

فشو اللحن:

١-مظاهر اللحن:

أ- إسقاط حركات الإعراب وترك التصريف، أو إقامة الإعراب إقامة خاطئة، وقد خلفت لنا الروايات اللغوية نماذج عديدة من الخطأ في الإعراب على لسان العرب...

ب- استخدام الألفاظ العربية في غير ما وضعت له أو ما قتصرت عليه.

ج- انحراف بعض الأصوات العربية عن مخارجها الأصلية.

د- طغيان بعض الألفاظ الفارسية على مسميات لها مما يقابلها في العربية.

٢- مصادر اللحن: الاختلاط والتمازج في الأسواق، وفي داخل الأسر (الجواري والإماء)

٣- شمول اللحن: شمل كل من شاركوا في الفتوح واستوطنوا الأرض الجديدة، وشملت هذه الموجة العرب وغير العرب.

لقد قادت الفتوح إلى الاختلاط، وقاد الاختلاط إلى اللحن، واللحن بدوره كان وراء نشأة علم النحو الذي أدى إلى:

أ- تنقيط المصحف في عهد زياد بن أبيه على يد أبي الأسود الدؤلي.

ب- إعجام الحروف في عهد الحجاج على يد نصر بن عاصم.

ج- خروج النحو من دائرة الاهتمام بكتاب الله إلى الاهتمام بآثار الشعراء الجاهليين والإسلاميين.■

الهوامش:

١- باستثناء المعلقات إذا صدقت الرواية.

٢- راجع الطبري، ج٢، ص ٨٥٤.

٣- شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية، بيروت، ١٩٥٥، ص ٦٩-٧١.

٤- المرجع السابق، ص ١٦٣، ص ١٩٠.

المراجع:

١- دلال عباس، القرآن والشعر، لبنان، ٢٠٠٠م.

٢- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٥، القاهرة، ١٩٦٥م

٣- شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ط٧، القاهرة، ١٩٧٨م

٤- طه حسين، على هامش السيرة، بيروت، ١٩٧٣م

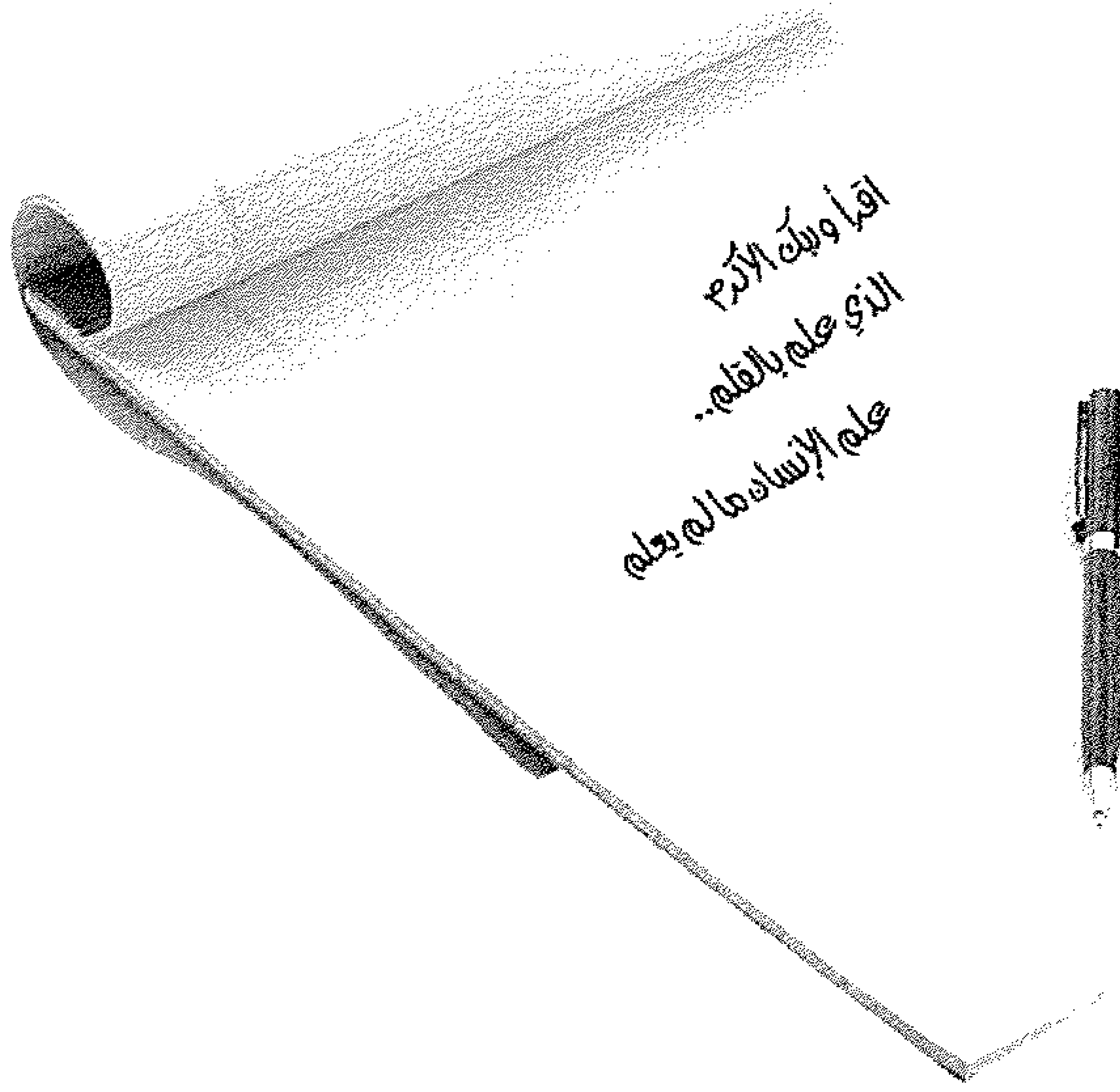
٥- محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، بيروت، ١٩٨٠م

الأغلاط الشائعة في النُّطق والكتابة (٢)

■ د. سمر روحي الفيصل

في القائمة الآتية أغلاط شائعة في النُّطق والكتابة، رتَّبتُها ترتيباً ألفبائيّاً بحسب الحرف الأول منها، بادئاً بالشّكل الصّحيح للكلمة، موضّحاً، بعد ذلك، المعنى المراد منها إذا تعددت معانيها، وكانت هناك خشية من اللّبس في المعنى المراد.

فإذا لم يكن لها غير معنى واحد معروف أهملتُ الإشارة إليه، مكتفياً بتصويبها. أما الغلط في الكلمة فقد أخّرتُه لأبعده عن أن يكون بداية الكلام، وأوّل ما يقع عليه بصر المتلقي، اعتقاداً مني بأن البدء بالصّواب خير من البدء بالغلط.



– استُشهِد، (بمعنى: مات في سبيل الله أو المُثُل العليا)، بدلاً من: استَشهَد (بمعنى: طَلَبَ شاهداً، أو: أتى بشاهد).

– أسدى إليه معروفاً ،(بمعنى: اتّخذه عنده)، بدلاً من: أسداه معروفاً. فالفعل (أسدى) يتعدّى بالحرف (إلى) إذا أردنا الدلالة على هذا المعنى، ولا يتعدّى بنفسه. ومثله: أسدى إليه نصيحة: وَعَظه. فإذا تعدّى بنفسه دلَّ على معنى آخر، من نحو: أسدى الثَّوبَ: مدَّ سداه؛ والسَّدى ما يُمدُّ طُولاً في النسيج، الواحدة: سداة. و:أسدى بين القوم: أصلح.

– أعلنَ النبأَ في نهاية الأسبوع، **وأعلن الرئيس أن السلام لا بدَّ منه**، بدلاً من: أعلن عن النبأ في نهاية الأسبوع، أو: أعلن الرئيس بأن السلام لا بدَّ منه. فالفعل (أعلن) يتعدّى بنفسه، ولا يتعدّى بحرف الجر (عن)، وإذا اقترن بالحرف المشبَّه بالفعل خلا هذا الحرف المشبَّه بالفعل من حرف الجر.

– **بكى الميت**، و: **بكى على الميت**، و: **بكى للميت**، سيّان، بمعنى دمعت عيناه حزناً عليه. و: بكى الميت: رثاه، و: بكت السحابة: أمطرت.

– **بِنية وبُنية** (بكسر الباء وضمّها) سيّان، والجمع: بِنى وبُنى. المنهج البِنيويّ، أو: البُنيويّ. ومنه: صحيح البِنية؛ أي: سليم. و: بنية الكلمة؛ أي: صِيغتها.

– **تطيَّر بالغراب**، و: تطيَّر من الغراب، سيّان، بمعنى: تشاءم.

– **الجِدُّ** (بكسر الجيم) لها معان، منها: الاجتهاد، و: ضدّ الهَزْل، وكثيراً (فلان كريم جِدّاً). بدلاً من: الجَدّ (بفتح الجيم) التي تعني أبا الأب أو الأم، و: الحظّ، و: العَظَمَة (وإنه تعالى جَدُّ ربِّنا)

وبدلاً من: الجُدّ (بضم الجيم) التي تعني جانب الشيء، و: شاطىء النهر.

– **الحماسة** (بمعنى: الشَّجاعة)، بدلاً من: الحماس. من ذلك: حماسة أبي تمّام، وحماسة ابن الشَّجري. وقد أُجيز استعمال (الحماس) في العصر الحديث.

– **حيويّ**: نسبة إلى: حياة، بدلاً من: حياتيّة. ومثلها: **دنيويّ** نسبة إلى: دنيا. نقول: الأمور الحيويّة والدّنيويّة؛ أي: أمور الحياة والدّنيا.

– **الدُّستور** (بالمعنى العامّ: القاعدة والأساس، وبالمعنى القانونيّ: الأنظمة والقوانين والمبادىء التي تُحْكَم الدولة بمقتضاها)، بدلاً من: الدَّستور.

– **الرَّضَاع والرِّضاع**: (بكسر الزاي المشدّدة وفتحها) سيّان. والرَّضيع: الرَّاضع.

– **رفاهِيَة**، بدلاً من: رفاهيَّة، من الفعل: رَفُهَ رَفَاهةً ورَفَاهِيَةً، فهو: رفيه ورافه؛ أي أصاب نعمةً وسعةً من الرزق، ورفُه عيشه: اتسع ولان.

– **سها بالي** عن الأمر (الفاعل في الجملة هو: بالي)، بدلاً من: سها الأمر عن بالي

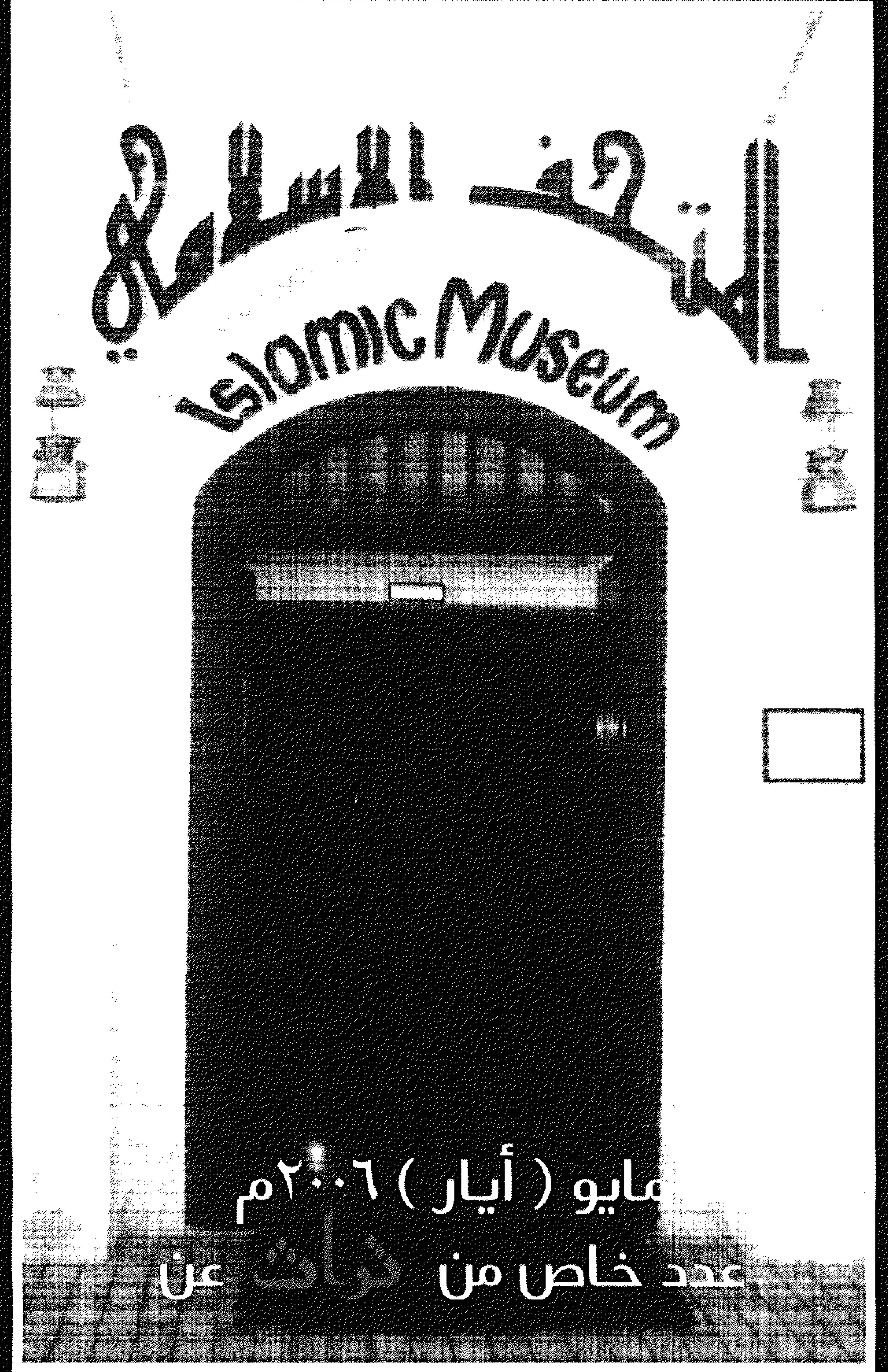
– **طالما و: طال ما**، سيّان. إنْ كُتبت (ما) متصلة بالفعل الماضي (طال)، فهي زائدة كافّةٌ الفعل (طال) عن الفاعل: طالما فعلتُ هذا. وقيل إنها اسم موصول، وتعني مع الفعل (طال): كثيراً ما ؛ أي: كثيراً ما فعلتُ هذا. وإنْ كُتبت منفصلة (طال ما)، فهي مصدريّة مؤوَّلة مع الفعل الذي يليها بمصدر في محل رفع فاعل للفعل (طال): طال ما فعلتُ هذا (طال فِعْلي هذا).

– **مؤيّدو الحربِ ومعارضوها** يقولون شيئاً واحداً (لا يُعطَفُ على المضاف قبل مجيء المضاف إليه)، بدلاً من: مؤيِّدو ومعارضو الحرب يقولون شيئاً واحداً.

– **مؤهِّلات** (بمعنى: الإمكانات التي تسمح للإنسان بتولّي أمر ما)، اسم فاعل من: أهَّل، وليست اسم مفعول (مؤهَّلات).

– **المَسُوق**: اسم مفعول من الثلاثي (ساق) ومضارعه (يسوق): (أثنيتُ على المسوق إلى فِعْل الخير)، بدلاً من المُسَاق (أثنيتُ على المُسَاق إلى فِعْل الخير).

– **المَيْت و: المَيِّت**، سيّان، بمعنى:الذي فارق الحياة، ومَنْ في حكمه. و: المَيْتة: الحيوان الذي زالت حياته دون ذبح شرعيّ. و: المِيْتة: هيئة الموت، يُقال: مات مِيتة الجبناء، أو: الأبطال.■



المتاحف في العالم العربي

ابن بسّام الأديب الفذّ.. والمؤرّخ العبقريّ

■ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي

ابن بسام.. هو أبو الحسن عليّ بن محمد بن بسّام.. ولد بمدينة (شنترين)، بولاية الغرب الأندلسية، وكان هذا الاسم يطلق على المنطقة الشاسعة، التي تمتد من غربي نهر (الوادي الكبير)، حتى (المحيط الأطلنطي)، وتشمل النصف الجنوبي من دولة (البرتغال) الحديثة.

ولم تذكر المراجع التاريخية تاريخ مولده، ولا ظروف نشأته ومراحل حياته الأولى، وكان (ابن خلكان) يعرف اسمه، واطّلع على كتابه، ونقل عنه، واعتمد عليه، ومع ذلك لم يذكره في (تاريخ أعيانه)، ولم يلتفت إليه (ياقوت الحموي) في معجمه إلا من خلال أسطر قليلة، وهو عنده مؤلف كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، وقد ذكره (المقري) عدة مرات في كتابه (نفح الطيب)، ونقل عنه، إلا أنه لم يخصص له ترجمة مفصلة أو موجزة.

ومهما يكن من أمر، فإن ابن بسام ظل بـ (شنترين) يحيا حياته، مكفول الرزق، إلى أن اضطر إلى مغادرتها، وذلك بسبب هجمات (الروم) المتتابعة عليها.

ولم يذكر ابن بسام سنة رحيله عن (شنترين)، ويبدو أنه قد صادف صعوبات كثيرة في طريق النجاة بنفسه، حتى استقرّ به الأمر في مدينة (إشبيلية)، وهناك قضى بضعة أعوام في بؤس وشقاء، يدرس على شيوخها، ويتعيّش بقلمه وأدبه، وكانت سوق الأدب بها غير رائجة، ولذلك لم يستطع الإقامة بها.

وفي سنة (٤٩٤هـ) اتجه إلى مدينة (قرطبة)، حيث استقر بها بقية حياته، وكانت (قرطبة) في ذلك الوقت قد فقدت الكثير من أهميتها القديمة، ولكنها احتفظت بكثير من سمعتها وتقاليدها العلمية، وظلت مركزاً من أهم مراكز الدراسة بالأندلس.

وكان العصر الذي عاش فيه ابن بسام عصراً تخللته الفتن والحروب المتعاقبة، وهو في الوقت نفسه عصر ازدهار للعلوم والفنون والآداب والمعارف!

وظلّ ابن بسام في مدينة (قرطبة) إلى أن توفيّ في سنة (٥٤٢هـ)، تاركاً خلفه العديد من الكتب والمؤلفات، التي أضافت ثروة عظيمة إلى المكتبة العربية.

سبب تأليف كتاب الذخيرة

يبدو أن السبب الذي دفع (ابن عبد ربه) إلى تأليف كتاب (العقد الفريد)، هو السبب نفسه الذي دفع ابن بسام إلى تأليف كتاب (الذخيرة)، فقد كانت معارضة المشارقة، والتشبّه بهم هي الشغل الشاغل للكثيرين من أهل الأندلس.

وكما سار (ابن عبد ربه) في كتابه (العقد الفريد) على نهج (عيون الأخبار) لـ (ابن قتيبة الدينوري)، اقتدى ابن بسام في كتابه (الذخيرة) بمنهج وطريقة (أبي منصور الثعالبي) في كتابه (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)، وتتبع نفس أسلوبه في التأليف والتقسيم، متبعاً في ذلك مبدأ الأقاليم.

ويشبه كتاب (الذخيرة) كتاب (يتيمة الدهر) من عدة وجوه، من بينها: غلبة السّجع، والتأنّق اللفظيّ على أسلوب الكاتب وعباراته، في التعريف بالشعراء، والترجمة لهم، وذكر أخبارهم، ونقدهم، وعناية الكاتب بالملوك والرؤساء، ومأثور كلامهم، ومدى تأثيرهم في الأدب.

بيد أن ابن بسام كان أبعد نظراً من (الثعالبي) وأنفذ رؤية، وأعمق تفكيراً، وأدقّ ملاحظة، لمَا يكون من الصلة القوية بين طبيعة البيئة، وبين الإنتاج الأدبي، وقد قصر ابن بسام كتابه على أدباء عصره، على غرار ما فعل (الثعالبي) في كتابه. ويتميز كتاب (الذخيرة) بغزارة النصوص، ويشتمل على كثير من منظوم القول ومنثوره، ويتضمن مختارات أدبية وفيرة، وتراجم كثيرة لأدباء القرن الخامس الهجري من الأندلسيين، أغلبها يتناول بإسهاب أعيان الأدب والسياسة، ممّن عاصرهم ابن بسام، أو تقدّموه قليلاً.

ويفصح ابن بسام عن منهجه في مقدّمة كتابه، فيقول بأسلوب أهل عصره المتأنّق: «ولا تعدّيت أهل عصري، ممن شاهدته بعمري، أو لحقه بعض أهل دهري، إذ كل مردّد ثقيل، وكلّ متكرر مملول، وليس الفضل على زمن بمقصور»، ثم يقول في زهو وافتخار: «وضمّنت كتابي هذا من أخبار أهل الأفق ما لعلّي سأربى به على أهل المشرق». ولعله أراد بذلك أن يبصّر أهل (الأندلس) بتفوق أدبائهم وبراعة إنتاجهم، وأنه من حقهم أن يتباهوا بأدبهم، وأن يتذوقوه، وعندئذ سوف يشعرون بأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق.

معرفة بفضل الشعراء

ويوضح ابن بسام في مقدمة كتابه الدافع النفسي الذي جعله يؤلف كتابه، ويجمع مادته، فيقول في صراحة وأسلوب رشيق: «وما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصيّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّيْن، وأئمة النَّوْعَيْن، قوم هُم مَا هُمْ، طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرّق، وحدوا بفنون السحر المنمق، حداء الأعشى ببنات المحلّق، فصبّوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم، وباهوا غرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل».

ولقد كان ابن بسام أعرف الناس بفضل الشعراء والأدباء المشارقة من أن يبخسهم حقهم، وأسلم ذوقاً، وأصحّ تقديراً من أن ينسب لأهل (الأندلس) و(المغرب) ما ليس لديهم، والدليل على ذلك أنه كان لا يرى الإجادة مقصورة على قوم دون قوم، وهو يرى عدم جدوى الرأي القائل: «إن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً»، منصفاً فكرة (الحداثة والتجديد)، إذ أنه لو اقتصر المتأخرون على ما صنّفه ودوّنه المتقدّمون، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير.

كتاب الذخيرة وأقسامه

يُعَدُّ كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) بمحتوياته من: التراجم، والمختارات النثرية والشعرية المتنوعة، والنبذ التاريخية الكثيرة، الموضوعة والمقتبسة من مصادر متعددة سابقة ومعاصرة من أنفس المصادر

التاريخية والأدبية والاجتماعية، وخاصة عصر (الطوائف) بأمرائه وأدبائه وشعرائه.

وقد اهتمّ وتأنّق في تقديم الكتّاب والشعراء، مشيراً إلى محاسنهم، ومنوهاً ببراعتهم، على طريقة وتأنق (الثعالبي) في الحديث عن شعراء اليتيمة وكتّابها، والإشادة بذكرهم.

ولم يشتهر من كلّ ما كتب وألّف ابن بسام سوى كتاب (الذخيرة)، وأغلب الظن أن هذا الكتاب قد استأثر بوقته، وملك عليه نواحي تفكيره، لا سيما وأن الكثيرين ممن ورد ذكرهم في الكتاب لم تكن لهم أخبار مكتوبة، ولا أشعار مجموعة، ولا رسائل مدوّنة، تمكّنه من الاختيار، وقد اضطره ذلك إلى البحث الطويل، والاستقصاء الشاق، وهذا راجع لسلامة ذوقه، ونفاذ بصره، وبراعة نقده، مع دقة الملاحظة.

ويشتمل كتاب (الذخيرة وفقاً لتصنيف مؤلفه على أربعة أقسام هي:

القسم الأول: وخصصه لـ (قرطبة) وما جاورها من وسط (الأندلس)، ويشتمل من الأخبار، وأسماء الرؤساء، وأعيان الكتّاب والشعراء على مجموعة كبيرة.

القسم الثاني: وخصصه لـ (إشبيلية) وما اتصل بها من بلاد غرب (الأندلس)، وفيه من الأخبار، وأسماء الرؤساء، وأعيان الكتّاب والشعراء جملة موفورة.

القسم الثالث: وخصصه لـ (بلنسيّة) وما يليها من شرق (الأندلس)، وفيه من القصص، وأسماء الرؤساء، وأعيان الكتّاب والشعراء طوائف.

القسم الرابع: وخصصه لمن طرأ على شبه الجزيرة في المدة المؤرخة، من أديب وشاعر وكاتب، ووصل بهذا القسم ذكر طائفة من مشهوري عصره، ممن وجدوا بـ (أفريقية)، و(الشام)، و(مصر)، و(العراق)، وذكر أنه ما أتى بهؤلاء إلا متأسياً بـ (الثعالبي) في اليتيمة.

وقد اختص بعنايته أخبار الملوك والأمراء والرؤساء، ومدى تأثيرهم في الأدب، مثلما فعل (الثعالبي)، و(الفتح بن خاقان) وغيرهما من مؤرخي الأدب، ليوضح العلاقة بين الأدب والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة، وتأثير تلك الأحوال في اتجاهات الأدب، ومشاعر الشعراء والكتّاب، وإنتاجهم الفني.

ميزة ابن بسام

وابن بسام في هذه الناحية يتميز عن (الثعالبي) وغيره من مؤرخي الأدب، لأنه لا يكتفي بالأخبار العامة، والملاحظات العارضة، وإنما يقف وقفات طويلة، حتى يستطيع أن يفصّل ويدقّق، ويتحرّى ويتثبّت، ويأتي بالفوائد التاريخية القيّمة، ويستقصي الأخبار من ينابيعها الأصلية.

وإن من يطلع على كتاب (الذخيرة) يدرك من أول وهلة أن ابن بسام من المؤمنين بالمنهج التاريخي في الأدب والنقد، وقد أخذ به، وعمل في حدوده، قبل أن يُعْرف هذا المذهب في القرن التاسع عشر، وترسّم حدوده، وتفصّل طرائقه، وجعله حرصه على التّحري والاستقصاء يرجع إلى المؤرخين الثقات ويستشيرهم، وينقل عنهم، وقد حالفه التوفيق كلية عندما اعتمد على شيخ مؤرخي (الأندلس) الذائع الصيت (ابن حيان)، الذي اشتهر بالصدق والأمانة، ودقة التحري والصراحة، والاستقلال في الرأي، مع براعة الأسلوب وطرافته، والمقدرة الفائقة في تصوير الحوادث ونقدها.

ولابن بسام استدراكات وتعليقات على بعض أبيات الشعر التي يوردها، والأخبار التي ينقلها، وهي تدل على سعة اطّلاعه، والأسجاع القوية التي كان يقدم بها الشعراء والكتّاب لا تخلو من مبالغة واضحة، وهذه المبالغة كانت آفة من آفات عصره، ولكنها لا تخلو من صدق نظر، وقوة تمييز.

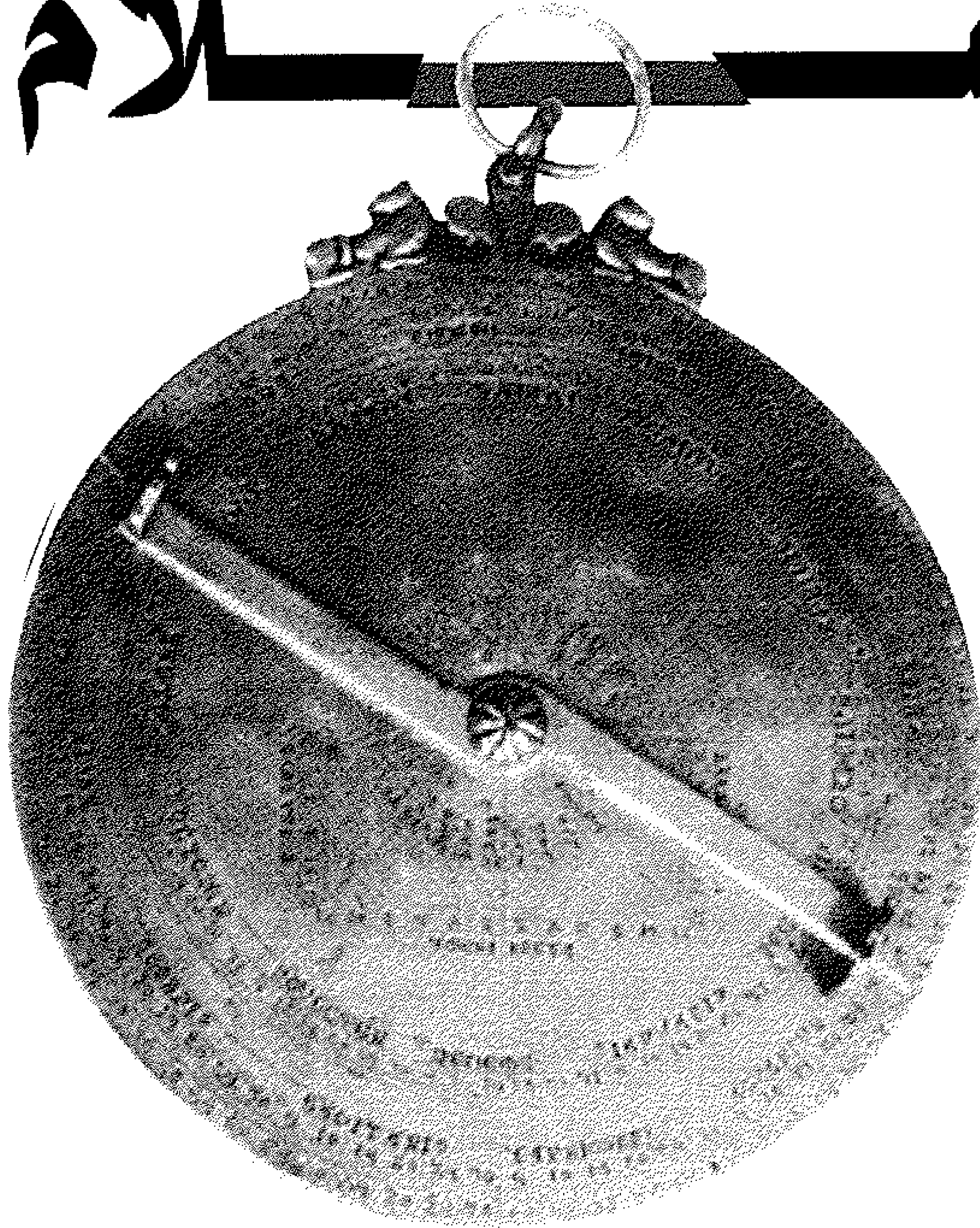
وبعد.. فإن ابن بسام يُعدُّ من الكتّاب الموهوبين، الذين يمتاز أسلوبهم بالجزالة والتعبير الفني الرقيق، وهو وإن كان يغلب على كتاباته السجع، إلا أن ذلك لا ينتقص من قدرته وبراعته، كما يمتاز بملاحظاته النقدية، البعيدة كل البعد عن المداهنة والرياء.

ويمتاز كتاب (الذخيرة) بأنه يجعل من يقرؤه يشعر من خلال قراءته لمحتوياته أنه يعيش مع شخصياته في عصرهم، وفي ظروف مجتمعهم، ويتذوّق مع مؤلّفه تلك المختارات الرائعة التي يوردها من عجائب علمهم، وغرائب منظومهم ومنثورهم، وهو يقع في ثمانية مجلّدات، ويكاد يقارب حجمه كتاب (العقد الفريد). ■

المراجع:

١) الأعلام: الزركلي.
٢) معجم الأدباء: ياقوت الحموي.
٣) نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب: المقرّي.
٤) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: لأبي منصور الثعالبي.
٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان.
٦) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محجوب، المجلدان (٧) و(١٨).
٧) تراجم إسلامية.. شرقية وأندلسية: محمد عبد الله عنان.
٨) مصادر التراث العربي: د. عمر الدّقاق.
٩) شخصيات أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية: محمد رجاء حنفي عبد المتجلي، (تحت الطبع).
١٠) مجلة (الخفجي) السعودية، العدد (٥)، السنة (٢٨)، جمادى الأولى ١٤١٩هـ / أغسطس ١٩٩٨م.

التراث الفلكي.. في حضارة الإســـــلام



■ د. مصطفى محمد طه *

واصل علم الفلك (الهيئة) مسيرة تطوره التي بدأها إبان القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، على يد الأمير الأموي خالد بن يزيد (ت: ٨٥هـ/ ٧٠٤م).

وشهد القرن الثامن الهجري، أبرز علماء الفلك المسلمين الذين أنجبتهم هذه الحضارة، واستطاعوا أن يتركوا بصمات علمية، ساعدت على ارتقاء وتطور هذا العلم وبالتالي فإن هذه البصمات الحيوية لعلماء هذا القرن في إطار علم الفلك، لا ينكرها أي باحث منصف.

ولعلّ الذي أضفى طابعاً من الحيوية على معطيات علماء هذا القرن، هو أنه شهد ميلاد الدولة العباسية، التي تعتبر من الوجهة الحضارية والعلمية، العصر الذهبي للثقافة الإسلامية. وقد شهد علم الفلك (الهيئة)، تحولاً جذرياً في مسار تطوره وارتقائه، فضلاً عن التغيير الشامل في كل مناحيه. حتى وجدنا المسلمين في هذه الفترة قد قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم والخرافة. ويُعد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (١٣٦– ١٥٨هـ/ ٧٤٣–٧٧٤م)، هو أول خليفة مسلم عني بالتنجيم في الدولة العباسية الناهضة، حيث ترجموا له كتاب (السند هند)(١).

وفي هذا دلالة أكيدة على مدى اهتمامه بقضية الاتصال الحضاري، فيما بين الأمم والحضارات عبر الترجمة، التي تعتبر في الحقيقة بمثابة العامل الحيوي لتفاعل هذه الحضارات المتلاقحة والمتزاوجة في آن.

وقد تبدّى ذلك المؤشر الواضح جلياً، من خلال اهتمامه الفائق بترجمة منجزات الغير في مناحي العلوم المتباينة –ومنها علم الفلك– إلى اللغة العربية.

وبناءً على مدى فاعلية حركة الترجمة هذه، رأينا أن المسلمين –منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي– قد أصبحوا يلمّون إلماماً تاماً بالفلك الهندي بفضل ترجمات إبراهيم بن حبيب الفزاري (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، ويعقوب الطارق. وقد ألّف الفزاري نفسه كتاباً بعنوان (السند هند الكبير)، اعتمد مقاييس الهند ووسائل التقدير عندهم، وقد غلبت طريقة السند هند عشرات السنين إلى أن صارت ترجمات بطليموس معروفة، ورغم ذلك فقد استمرت طريقة السند هند تؤثر –بعد ذلك– على بعض الفلكيين مثل الزرقالي الأندلسي (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)(٢).

ولعل من أبرز علماء الفلك الذين تألقت أسماؤهم في

* باحث علمي في الحضارة الإسلامية

سـمـاء الحضـارة الإسـلامـيـة خـلال الـقـرن الـثـاني الـهـجـري، الثامن الميلادي ما يلي:

أبرز علماء الفلك العرب

■ إبراهيم بن حبيب الفزاري (ت: ١٨٠هـ/ ٧٩٦م).

هو أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري[٣]. ويقول عنه القفطي: «هو الإمام العالم المشهور المذكور في حـكـمـاء الإسـلام، وهـو أول مـن عـمـل في الإسـلام اسطرلاباً، وله كتاب في تسطيح الكرة أخذ منه كل الإسلاميين، وكان من أولاد سمرة بن جندب، وكان ميله إلى علم الفلك وما يتعلق به، وله تصانيف مذكورة منها كتاب (القصيدة في علم النجوم)، وكتاب (المقياس للزوال)، وكتاب (الزيج على سني العرب)، وكتاب (الـعـمـل بـالأسـطـرلابـات ذوات الحلق)، وكـتـاب (الإسطرلاب المسطح)»[٤].

ويؤكد المنظور النسقي لترجمة الفزاري لدى كل من ابن النديم والقفطي أن الآخر الثاني نقل عن الأول دون نقد أو إعمال الذهن، ولعل هذا السبب هو الذي جعل الزركلي يؤكد أنه قد حدث التباس لدى القفطي وهو بصدد ترجمته لهذا العالم المسلم حيث يقول: «سمّاه ابن النديم في الفهرست وهو أول من ذكر أسماء كتبه (إبراهيم بن حبيب) ونقل عنه القفطي -كما ألمحنا سابقاً- ذلك في تاريخ الحكماء فجاءت ترجمته فيه مكررة مرة باسم (إبراهيم بن حبيب)، ومرة باسم (محمد بن إبراهيم)، وسمّاه المسعودي (إبراهيم الفزاري)، واقتصر الهمذاني في كتاب (صفة جزيرة العرب) على تسميته بالفزاري، وذهب الإمام ابن حجر العسقلاني (القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) في كتاب (تهذيب التهذيب)، إلى أنه إبراهيم الفزاري المحدث المتوفى في سنة (١٨٨هـ/ ٨٠٤م)، وأضاف إلى ترجمته هذه نقلاً عن ابن النديم أنه أول من عمل في الإسلام اسطرلاباً وله فيه تصانيف»[٥].

ويتفق المستشرق الإيطالي الشهير كرنلينو في نقده التاريخي والعلمي لرواية القفطي عن الفزاري فيرى في هذا السياق النقدي أن القفطي قد ركن في ذكر أسماء الفزاري -الثاني- أي محمد بن إبراهيم وأخباره إلى زيج بن الآدمي فقط، مع أن الذي قاله القفطي في أول المادة يوافق ما قيل في إبراهيم بن حبيب الفزاري في كتاب الفهرست لابن النديم، وفي الموضع الآخر من نفس كتاب القفطي. ولذا فإننا نضطر إلى الظن بأن الفزاريين.. في الحقيقة هما فزاري واحد وقع في اسمه خطأ في إحدى الروايتين كما اتفق لغيره أيضاً من الفلكيين مثل الفرغاني، وأبي سهل بن نوبخت، حيث إن كلاً منهما صار رجلين في كتاب القفطي[٦].

بين القفطي والفزاري

ومن جانبنا فإننا، لا نعرف ماهية المعلومات التي جاءت ضمن المحتوى العلمي لزيج ابن الآدمي ونقدها القفطي، وبالتالي ذكر كرلو إلى ما ذهب إليه، ولذا فإننا لا نملك إلا الاطمئنان العلمي إلى الرؤية النقدية لدى هذا المستشرق وخصوصاً أنه من أوائل الرواد الدارسين للتراث الفلكي في حضارة الإسلام، وقد تسنى له الاطلاع والتنقيب في التراث المخطوط المنتشر في مكتبات ومتاحف العالم شرقاً وغرباً. فضلاً عن ذلك فإن نص الفهرست لابن النديم هو أدقّ نص في هذا الإطار، وقد أيده نلينو.

ولم يقتصر الالتباس وتضارب الروايات بشأن الفزاري على القفطي في القديم وحده، بل إن عصرنا الحديث قد أبى إلا أن يشارك العصور الماضية في هذا المسلك -أو إذا شئنا الدقة- الخلل التاريخي.. والمنهجي -ابن حجر نموذجاً- وفي هذا السياق، فإننا نرى أن عمر رضا كحالة -الباحث السوري- قد وقع في نفس المأزق حيث يقول: «إن أول من عمل أسطرلاباً في الإسلام هو إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجه بن حصن بن حذيفة الفزاري سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م»[٧].

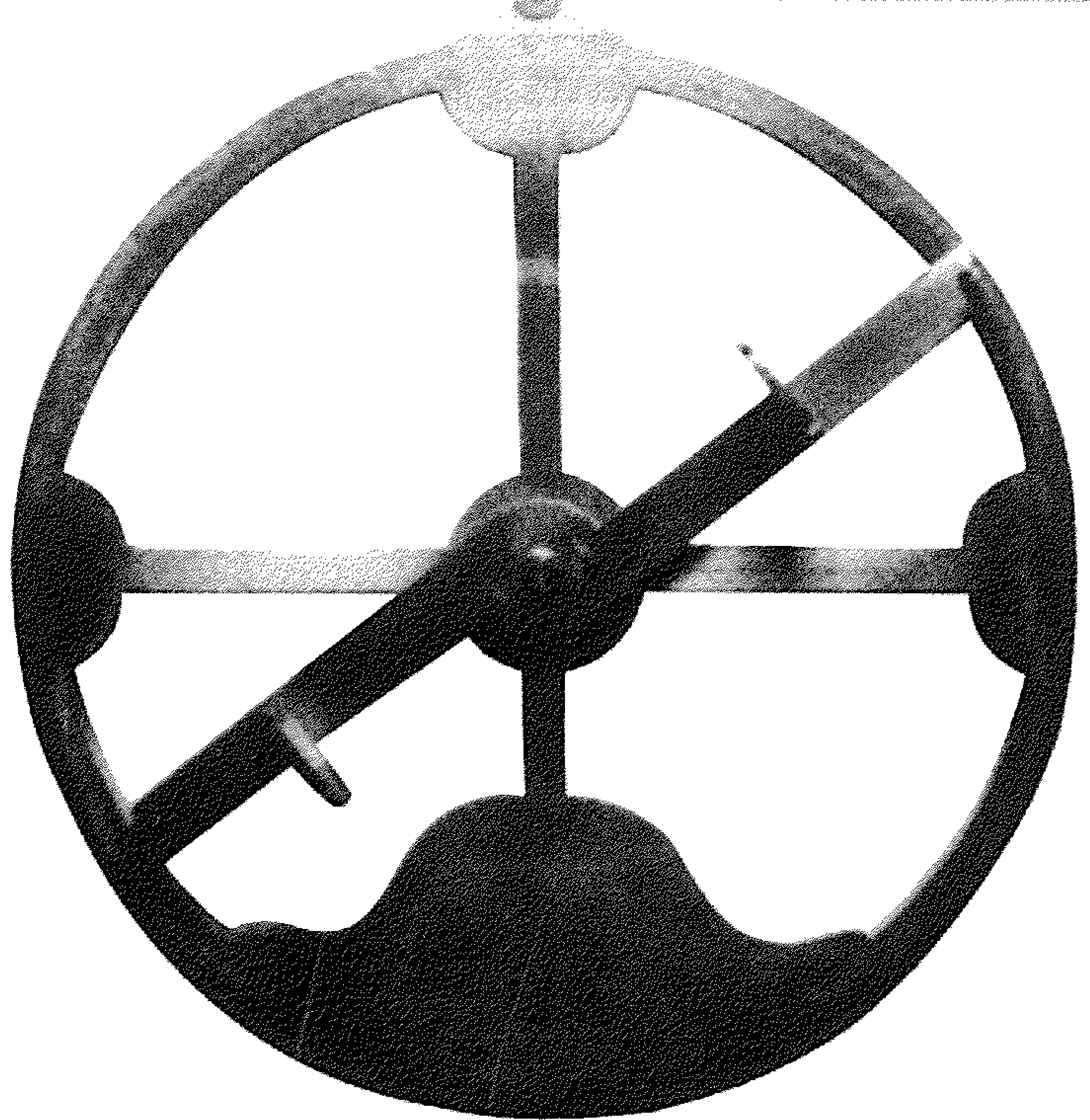
وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول بأن القدماء -بدءاً من القفطي وانتهاءً بابن حجر العسقلاني، قد تضاربت مروياتهم في اسم الفزاري، فعمر كحالة -كباحث حديث- قد ذهب به الشطط كل مذهب، وجعل الفزاري شخصاً آخر، لا يمت بأي صلة ما، لهذا العالم المسلم، الذي يعتبر ولا ريب أول مسلم يدرس الفلك على أسس علمية وفقاً لمعطيات عصره في هذا الإطار. وبناء عليه لا ندري على أي أساس علمي أو حتى تاريخي بنى كحالة ظنّه هذا. وذلك لأننا لم نعثر على المعلومات الشاذة -عن الفزاري- في أي من كتب التراث الأساسية، التي ترجمت لعلماء الفلك في الحضارة الإسلامية، مثل كتاب: الفهرست، وكتاب: تاريخ حكماء الإسلام.. أو حتى كتاب الأعلام، الذي يعدّ ولا ريب بمثابة امتداد طبيعي لكتب التراث الإسلامي في مجال البيبليوجرافيا (علم السير).

■العالم الثاني: ما شاء الله (ت: حوالي ٢٠٠هـ/ ٨١٥م).

هو المنجم ميشاين اثري، كان يهودياً في زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وعاش إلى أيام الخليفة العباسي المأمون وكان فاضلاً، أوحد زمانه في الإخبار بأمور الحدثان. وروي أن سفيان الثوري لقي ما شاء الله فقال له: «أنت تخاف زحل وأنا أخاف ربّ زحل، وأنت ترجو المشتري وأنا أرجو ربّ المشتري، وأنت تعذو بالاستشارة وأنا أعذو بالاستخارة فكم بيننا. فقال له ما شاء الله: كثير ما بيننا حالك أرجى وأمرك أنجح وأحجى»[٨].

حرية الإبداع مكفولة للجميع

ويشير هذا الحوار التاريخي الصريح والجريء في آن واحد، بين عالم دين مسلم ملتزم بمعطيات الدين، وعالم فلك يهودي، كان يتعاطى الاستعانة بالنجوم



على تسيير أمور البشر، عاشا معاً في ظلال حضارة الإسلام، يشير إلى أن هذه الحضارة قد ضمنت حرية الإبداع للجميع طالما كان يهدف إلى الارتقاء بالإنسان، الذي هو في الحقيقة حجر الزاوية ومحور الارتكاز في البناء الحضاري بمفهومه الشامل.

ولعل الذي يجعلنا نخرج ما شاء الله من دائرة التنجيم -الضيقة علمياً والمحرمة شرعياً- إلى فضاء عالم الفلك الرحيب هو ما جادت به قريحته وخطه يراعه من كتب مثل: كتاب (المواليد الكبير)، ويحتوي على أربعة عشر كتاباً هي: كتاب: الواحد والعشرين في القرانات والأديان والملل، وكتاب: مطرح الشعاع، وكتاب: المعاني، وكتاب: صنعة الاسطرلابات والعمل بها، وكتاب: ذات الحلق، وكتاب: الأمطار والرياح، وكتاب: السهمين، والكتاب المعروف بالسابع والعشرين.

الكتاب الأول: ابتداء الأعمال، الكتاب الثاني: على دفع التدبير، الكتاب الثالث: في المسائل، الكتاب الرابع: في شهادات الكواكب، الكتاب الخامس: في الحدوث، الكتاب السادس: في تسيير النيرين وما يدلان عليه، كتاب: الحروف، كتاب: السلطان، كتاب: السفر، كتاب: الأسعار، كتاب: المواليد، كتاب: تحويل سني المواليد، كتاب: الدول والملل، كتاب: الحكم على الاجتماعات والاستقبالات، كتاب: المرضى، كتاب: الصور والحكم عليها[9].

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول بعد الدراسة التحليلية لقائمة هذه الكتب المتنوعة، التي كتبها ما شاء الله إنه قد مزج فيها ما بين علم الفلك والتنجيم، ولعل السبب المباشر الكامن وراء وجود مثل هذا المزج الفريد، هو أن نشأة علم الفلك لم تكن في بدايتها خالصة، بل كانت تشوبها شائبة في معطيات التنجيم، وذلك على الرغم من أن الشريعة الإسلامية السمحاء قد حرّمت التنجيم في مصدريها الأساسيين وهما: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

تصورات ختامية

إن التصور الختامي لدراسة آفاق وملامح علم الفلك في القرن الثاني الهجري (٢٠١- ٣٠٠هـ) تشير وبكل الوضوح إلى أن معطيات الفزاري الفلكية تعتبر في الحقيقة بمثابة نقطة تحول هامة في مسار علم الفلك الإسلامي، الذي سوف يشهد في القرون التالية، وعلى يد علماء آخرين، نقلة نوعية، بل إذا شئنا الدقة.. وثبات هائلة.. على المستوى التعليمي والحضاري، مما يجعل من إسهامات المسلمين في علم الفلك علامة فارقة في تاريخ هذا العلم الحيوي في حياة الإنسان.

أما بالنسبة لمعطيات ما شاء الله، فلقد كانت بمثابة امتداد طبيعي لمعطيات السابقين في هذا العلم، وفي هذا مؤشر قوي على أن عصور الانتقال الحضاري -ومنها بطبيعة الحال القرن الثاني الهجري- هي عصور التمازج الحيوي بين إفرازات الحقبات السابقة واللاحقة في آن، حتى أنه ليصعب أحياناً على الباحث التاريخي معرفة إلى أي فترة من الزمن تنتمي المعطيات العلمية التي يدرسها. وليس هذا عيباً فالتاريخ والحضارة هما في نهاية المطاف حلقات متتالية في سلسلة واحدة يكمل كل منها الآخر، وفق نمط إعجازي يدل على مقدرة الإنسان على الإبداع الحضاري في كل زمان ومكان طالما توافرت له مقتضيات وشروط هذا الإبداع.■

الإحالات المرجعية

١) د. سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص٢٤٣.

٢) د. سيد حسين نصر: العلوم في الإسلام، ترجمة: مختار الجوهري، دار الجنوب للنشر، تونس ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٩٧.

٣) ابن النديم: الفهرست، دار المسيرة، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٣٢.

٤) القفطي: تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، تحقيق: د. يوليوس ليبرت، ليبزج ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ص٥٧.

٥) خير الدين الزركلي: الأعلام، الجزء السادس، مطبعة كوستاتوماس، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ص١٨١.

٦) كرلونلينو: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، أوراق شرقية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٥٧-١٥٨.

٧) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، الجزء الأول، المكتبة العربية، دمشق ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ص٩٠.

٨) القفطي: المصدر السابق، ص٢٣٧.

٩) ابن النديم: المصدر السابق، ص٢٧٣-٢٧٤.

التاريخ.. وأسماء الشهور العربية

■ مختار فوزي النعال

عرف الإنسان الوقت منذ وُجد على هذه الأرض، مستفيداً من تعاقب الليل والنهار، أي من شروق الشمس إلى غروبها، تسمَّى هذه الفترة يوماً، وعرف أن الليل يبدأ بغروب الشمس إلى شروقها، وعرف أن النهار هو الزمن الواقع بين طلوع الشمس من مشرقها إلى مغربها، وتوصل إلى معرفة الشهر من خلال دورة القمر وتقلبه في منازله هلالاً فبدراً فمحاقاً، ثم عرف الحول من تعاقب الفصول. وعلم أنها أربعة فصول في إثني عشر شهراً قمرياً مصداق قوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً) التوبة-٣٦، وعرف العام أو السنة من دوران الشمس والقمر فاتخذها وسيلة لحساب مواقيته، فراح يؤقت بهما لأعماله سواء اليومية منها أو الشهرية أو الحولية مصداق قوله تعالى: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) يونس-٥.

ولعلماء اللغة في معنى العام والسنة أقوال منها ما قاله الجواليقي: ولا تفرق عوام الناس بين السنة والعام ويجعلونهما بمعنى واحد فيقولون لمن سافر في وقت ما من السنة إلى مثله: عام، وهذا خلط، والصواب ما قاله أحمد بن يحيى فإنه قال: السنة من أي يوم عددته إلى مثله، والعام لا يكون إلا شتاءً وصيفاً [١]، وجاء في تهذيب اللغة: (العام: حول يأتي على شتوة وصيفة، وعلى هذا فالعام أخص من السنة، فكل عام هو سنة وليس كل سنة عاماً، وإذا عددت من يوم إلى مثله فهو سنة وقد يكون فيه نصف الصيف ونصف الشتاء، والعام لا يكون إلا صيفاً وشتاءً متواليين [٢].

والسنة هي الجدب والقحط، وقيل أصلها بالهاء (سنه) بدليل جمعها على سنهات، وقيل سنو بدليل جمعها على سنوات وهو الأشهر، وقيل غلبت السنة على القحط [٣]. ويقولون: سنة سنهاء، أي لا نبات فيها ولا مطر، وفي حديث حليمة السعدية - مرضعة الرسول «صلى الله عليه وسلم» (خرجنا نلتمس الرضعاء بمكة في سنة سنهاء)[٤]، وأكثر ما جاء لفظ السنة في القرآن الكريم جاء بمعنى القحط والجدب، ففي التنزيل: (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات) الأعراف-١٣٠، أي أخذناهم بالقحط والجدب ونقص من الثمرات، وبهذا قالت أكثر المعاجم اللغوية، فقد جاء في بعضها (غلبت السنة على القحط) [٥]. (وأرض سنهاء أو سنواء إذا أصابتها السنة، وهي الجدب) [٦].

كان لابد للعرب من تقسيم الزمن إلى أقسام لمعرفة الوقت وتحديده، فقسموه إلى يوم وأسبوع وشهر وسنة، ثم قسموا كلا من الليل والنهار اثنى عشر قسماً، وأطلقوا على كل قسم لفظ الساعة، وسموا هذه الساعة باسم يليق وتقلباتها في الزمن فكانت أقسام الليل هي: الجهمة - الشفق - الغسق - العتمة - السدفة - الزُّلة - الزلفة - البهرة - السحر - الفجر - الصبح - الصباح. وكانت أقسام النهار هي: البكور - الشروق - الإشراق- الرأد - الضحى - الهاجرة - الأصيل - العصر - الطفل - العشي - الغروب. وثمة أسماء أخرى مغايرة لما ذكرت لا حاجة لذكرها لأننا أخذنا بالأرجح الأشهر. وقد اتخذت كل ملة من الأسبوع يوماً تستريح فيه، فاتخذ اليهود يوم السبت لاستراحتهم لأنهم كما يقولون، فيه خُلق العالم وفرغ الإله من خلقه يوم الجمعة، فاستراح يوم السبت، وجاء في الكتاب المقدس: (احفظ يوم السبت لتقدسه كما وصاك الرب إلهك، ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا تعمل



فيه عملا) [٧]، واتخذ النصارى يوم الأحد لاستراحتهم لأنهم يقولون: إنه بهذا اليوم ابتدأ الله خلقه، واتخذ المسلمون يوم الجمعة قائلين: إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في هذا اليوم، وخلق فيه آدم وبه سيكون النفخ في الصور[٨].

وعن أبي هريرة أن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم وفيه أُسكن الجنة وفيه أهبط، وفيه تقوم الساعة» [٩].

التاريخ العربي والإسلامي

كان لبعض الأيام في الجاهلية والإسلام وقع في نفوسهم، فألحقوا باليوم اسم الحدث الذي وقع فيه وأضافوه إليه، ففي الجاهلية كان لهم أيام من مثل: (يوم البسوس، وهو يوم بكر وتغلب، ويوم الفجار، وهو يوم بين كنانة وقريش، ويوم حليمة، وهو بين المنذر والحارث الغساني) وفي الأمثال: «ما يوم حليمة بسر». ويوم ذي قار وهو بين ببكر بن وائل والفرس) [١٠]. وذو قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، وقعت فيه أول معركة بين العرب والفرس وانتصر فيها العرب، وكان ذلك يوم ولادة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وكذلك كان للمسلمين أيام جديرة بالذكر كيوم بدر، ويوم أحد، ويوم الحديبية كما نعت العرب في الجاهلية والإسلام لياليهم وأضافوها إلى مسميات كان لها أهمية لديهم تركت في نفوسهم أثراً كبيراً نذكر من ليالي الجاهلية ما يلي:

– ليلة الميلاد: وهي الليلة التي ولد فيها المسيح عيسى عليه السلام.

– ليلة التمام: وهي أطول أيام السنة.

– ليل المحب: وأكثر الشعراء في وصف ليل المحب فقيل: (ليل المحب بلا آخر) وسواها ونذكر بعضاً من ليالي المسلمين:

– ليلة القدر: وهي في الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان المبارك.

– ليلة الغدير: وهي الليلة التي خطب فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) في غدها بغدير خم [١١]، فقال: من كنت مولاه، فعلي مولاه، الله والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

– ليلة الهرير: وكانت في صفين، فاشتد القتال بين الإمام علي ومعاوية ابن أبي سفيان، وكشفت الحرب عن ساقها وكثر عدد القتلى، فضرب المثل بهذه الليلة في الشدة واستفحال المطاردة [١٢] وسواها.

كما أضاف العرب إلى أعوامهم أسماء الأحداث التي وقعت فيها، وراحوا يؤرخون بها من مثل: عام الفيل، وهو يوم هاجم أبرهة الحبشي الكعبة بغية نقلها إلى اليمن ليتوافد الحجاج إلى بلده، فهلك جيشه وتبدد وارتد على أعقابه خاسئاً حسيراً، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحادثة في محكم التنزيل فقال:

(ألم تر كيف فعل ربُك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول) سورة الفيل. وكذا سميَّ المسلمون أعوامهم بالحدث الجلل الذي وقع فيها، كعام الحزن، وهو العام الذي توفيت فيه السيدة خديجة زوجة النبي (صلى الله عليه وسلم). وفي هذا العام توفي عمه أبو طالب، فكانت وفاتهما مدعاة لحزنه، إذ حزن حزناً كبيراً، وسمَّي هذا العام بعام الحزن.

السنة القمرية والنسيء

والسنة القمرية مؤلفة من اثني عشر شهراً قمرياً، فكانوا يعدلونها بالنسيء، أي بالتأخير، وهو شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ليكون صدورهم عن الحج في وقت واحد من السنة حفظاً منهم على توالي المواسم والأعياد في مواقيتها المحددة لها من كل عام تمشياً مع السنة الشمسية، فلما جاء الإسلام حرَّم هذا النسيء بقوله تعالى (إنما النسيء زيادة في الكفر) التوبة– ٣٧.

وكان العرب في الجاهلية يوافقون النسيء حسب مشيئتهم ووفق هواهم ليستبيحوا به القتال في الأشهر الحرم. وفي حجة الوداع، كانت الشهور القمرية قد عادت إلى طبيعتها، وعاد النسيء إلى المحرم، فوقف النبي (صلى الله عليه وسلم) في عرفات خطيباً في الناس قائلاً لهم: (ألا وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماء والأرض) وعنى بذلك أن الشهور

العربية قد عادت إلى دورتها الطبيعية كما فطرها الله، وزال عنها ما أجروه عليها من التعديل تقديماً أو تأخيراً، ثم تلا قوله تعالى: (إنما النسيء زيادة في الكفر).

كان المسلمون قبل الهجرة النبوية يؤرخون بعام بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) فيقولون: قبل البعثة بسنة أو سنتين... وبعد البعثة بسنة...إلخ، ولما توفي النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولحق به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فكر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوضع تقويم إسلامي يؤرخون به أحداثهم، فبحث هذا الأمر مع أولي الرأي الرشيد والفكر الراجح السديد فقيل له: نجعل ولادة النبي (صلى الله عليه وسلم) بدءاً تاريخياً، وقال آخرون: نجعل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدءاً لتاريخنا، وقال فريق ثالث: بل نجعل من يوم بعثته بدءاً لتاريخنا.. وارتأى الإمام علي رضي الله أن يتخذ من الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة المنورة بداية التاريخ الإسلامي، فالهجرة حدث كبير نقل العالم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، وأنار بضوئها العالم بأسره، واتفق على ذلك وجعل هلال أول محرم من السنة ذاتها بدءاً للتاريخ المعروف اليوم بالتاريخ الهجري، وكان ذلك اليوم موافقاً ليوم الجمعة السادس عشر من شهر تموز سنة ٦٢٢هـ، وحصل هذا في السنة السادسة عشرة للهجرة النبوية وشرع الأخذ به.

الشهور العربية وسبب تسميتها

قسّم العرب سنتهم إلى اثني عشر قسماً، وسموا كل قسم شهراً، لأنه يشتهر بالقمر، ثم أطلقوا على كل شهر إسماً، وكانت أسماء الشهور العربية في الجاهلية قسمين: قسم غير مستعمل وضعته العرب العاربة وانقرض بانقراضها وهي الشهور التالية: المؤتمر – ناجر – خوان – بصَّان – خنتم – زباء – الأصم – عادل – نافق – واعل – هواع – برك. وفي هذه الأسماء خلاف يسير عند أهل اللغة [١٣]، أما القسم المستعمل والمعمول به إلى يومنا هذا فقد وضعته العرب المستعربة، وكلا القسمين وضع للأشهر العربية القمرية. أما أسماء القسم الثاني فهي كما يلي: المحرم– صفر – الربيعان – الجماديان – رجب – شعبان – رمضان – شوال – ذو القعدة – ذو الحجة. وقد وضعت أسماء هذه الشهور لأسباب مناخية ولاتفاق حالات وقعت في كل شهر فأضيفت إليه، وفيما يلي سبب هذه التسميات:

١– المحرم: هو الشهر الأول من أشهر السنة القمرية ويقال له الشهر الحرام، وقد أشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) المائدة–٢، والشهر الحرام المعني في هذه الآية هو شهر المحرم وهو أحد الأشهر الأربعة الحرم، ثلاثة منها سرد أي متوالية متتابعة وهي: ذوي القعدة، ذو الحجة، المحرم، أما الشهر الرابع فهو شهر فرد، وهو شهر رجب الواقع بين شهر جمادى الآخرة، وبين شهر شعبان، ويقال له رجب الفرد، وكان العرب يحرمون القتال في هذه الشهور الأربعة، واتخذ المسلمون من هذا الشهر بدء سنتهم الهجرية وذلك في أيام عمر بن الخطاب كما أسلفنا وأشرنا إليه، وقد ورد في فضل هذا الشهر، وفي أجر من يصوم أيامه أحاديث صحيحة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر المحرم» وأخرج الترمذي في سننه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لرجل: «إن كنت صائماً شهر رمضان فصم المحرم فإنه شهر الله» وقيل سمي (محرما) لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه وسموه محرماً.

٢– صفر الخير: هو اسم الشهر الثاني من الشهور القمرية، يأتي بعد المحرم، وفي تسميته صفراً قولان: الأول: لصفر بيوت العرب وأسواقهم إبَّان خروجهم للغارات كما جاء في اللسان: (عن رؤية أنه قال: سمي صفراً لصفار مكة من أهلها إذا سافروا، فكانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفر المتاع) [١٤]. الثاني: قيل سمي صفراً لاصفرار سنابل القمح فيه [١٥] ووصف هذا الشهر بالخير، فقيل: صفر الخير، وذلك تيمناً وتفاؤلاً.

٣–٤ ربيع (١–٢): كان هذان الشهران يقعان في السنة العربية القديمة بين منتصف تشرين الأول ومنتصف كانون الأول وسميا بالربيع لسقوط بعض الأمطار فيها وظهور العشب، والعرب تسمي ما اخضر من النبات وما تعتلفه الدواب من الخضرة ربيعاً [١٦]. ويقول البيروتي في الآثار الباقية: وشهرا الربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار وهو نسبة إلى طبع الفصل الذي نسميه الخريف.



حدث في شهر ربيع الأول أعظم وأكرم حادث على وجه البسيطة، ففيه ولد خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وذلك في عام الفيل سنة (٥٣) قبل الهجرة النبوية، وفي الأول من هذا الشهر هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة، وكان ذلك سنة (١٣) بعد البعثة النبوية الموافق سنة (٦٢٢)م. وفي اليوم الثالث عشر من هذا الشهر من السنة الحادية عشرة للهجرة النبوية الموافق ٦ حزيران سنة (٦٣٢م) توفي النبي (صلى الله عليه وسلم).

٥-٦ جمادى الأولى وجمادى الآخرة: وجاءتهما التسمية (جمادى) من الجمد. قال الليث: الجمد الماء الجامد، وقد جمد جموداً. والجماديان اسمان لشهرين عربيين فإذا أضفت قلت: شهرا جمادى [١٧] . وفي الجاهلية كانوا يقولون: جمادى خمسة، وجمادى ستة، فجمادى خمسة هي جمادى الأولى وهي الشهر الخامس من شهور السنة القمرية، وجمادى ستة هي جمادى الآخرى لأنها تمام ستة أشهر من أول السنة [١٨] واللفظة مؤنثة، أما إذا جاء اللفظ مذكراً فإنما يعود التذكير إلى الشهر. وظاهر هذه التسمية من الثلج وما جمد من ماء لأنهما كانا يقعان في السنة العربية القديمة في معظم البرد من منتصف كانون الأول إلى منتصف شهر شباط. ويقول النويري في كتابه نهاية الأرب: (والجماديان من جمد الماء لأن الوقت الذي سميا فيه بهذه التسمية كان فيه الماء جامدا).

٧- رجب الفرد: هو الشهر السابع من أشهر السنة القمرية، وفي تسميته أقوال منها: قيل سمي رجباً لتعظيمهم له. والترجيب: التعظيم، وقيل لأنه وسط أشهر السنة فهو مشتق من الرواجب وهي أنامل الإصبع الوسطى، وقيل: لكونه كان مقدساً في الجاهلية يذبحون فيه العتائر - الشياة - ويقدمونها للأصنام، وكانوا يقومون فيه بعض مناسك الحج، ويقال له: رجب الفرد وهو أحد الأشهر الأربعة الحرم، عرف هذا الشهر (برجب مضر) نسبة إلى قبيلة مضر التي كانت أكثر القبائل العربية تعظيماً له. وفي حديث رواه البخاري في صحيحه: (رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان) فقوله صلى الله عليه وسلم بين جمادى وشعبان بياناً وإيضاحاً له ولموقعه من الأشهر، لأن العرب كانوا يؤخرونه بالنسيئ من شهر إلى شهر فيتحول عن موضعه الذي اختص به) [١٩].

٨- شعبان: هو الشهر الثامن من أشهر السنة القمرية، سمي شعبان لتشعب الناس فيه، أي تفرقهم، في طلب المياه، وقيل لأنه شَعَبَ، أي ظهر، بين شهري رجب ورمضان، وقيل سمي شعبان لتشعبهم في الغارات، ويسمى اليوم الثلاثون من هذا الشهر بيوم الشك إذا كانت السماء ليلة ذلك ملبدة بالغيوم والقمر



فيها غير مرئي. بحيث لا يعرف الناس ذلك اليوم أهو من شعبان أم من رمضان. ويحرم الفقهاء صيام هذا اليوم. أما ما يروى في بعض الكتب من فضل النصف من هذا الشهر، والأجر العظيم لمن أقام ليله، وصام نهاره، فهي أحاديث ضعيفة لا يعمل بها [٢٠].

٩- رمضان: هو الشهر التاسع من أشهر السنة القمرية، وهو شهر الصيام والشهر الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن صراحة، وذلك بقوله تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) البقرة -١٨٥. وقيل إن اسمه مشتق من الرمضاء وهي شدة حر الشمس على الأرض، قال ابن دريد: (.. كما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة وسموها بالأزمنة التي هي فيها، فوافق شهر رمضان زمن الرمض وشدة الحر فسمي به، كان هذا الشهر ينعت بالشهر الأصم، لأنه لا يسمع فيه صوت السلاح لكونه أحد الأشهر الحرم المقدسة التي لا قتال فيها [٢١]، وإلى هذا الشهر تنسب فضائل جمة بأصول الإيمان، ففيه نزل القرآن وفيه فرض الصيام على المؤمنين بقوله تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) البقرة-١٨٥. وفي هذا الشهر كانت غزوة بدر وفيه كان الفتح.

١٠- شوال: وهو الشهر العاشر من أشهر السنة القمرية، وينعت بشهر المكرم، وكان يعرف في الجاهلية بشهر (واعل)، وكان العرب يتشاءمون منه فلا يعقدون فيه زواجاً غير أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أبطل طيرتهم هذه إذ تزوج عائشة في هذا الشهر، تقول السيدة عائشة: (تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال، وبني بي في شوال، فأي نسائه كانت عنده أحظى مني [٢٢]. وفي تسمية هذا الشهر أقوال منها: ما قال البيروني: (.. يقال شوال لارتفاع الحر وإدباره) [٢٣]، وقيل اللفظ من شال يشول إذا ارتفع.. وقيل سمي بذلك لأن الإبل كانت تشول – ترفع – فيه أذنابها من شهوة الضراب. ولذلك كرهت العرب فيه التزويج [٢٤]. وهناك قول آخر يقول: سمي شوالاً لتشويل لبن الإبل، أي لتوليه وانقطاعه من شدة الحر وانقطاع الرطوبة [٢٥]، من فضائل هذا الشهر: إن أول أيامه هو أيام عيد الفطر، وفي هذا الشهر يسن صيام ستة أيام منه تعرف بالأيام البيض وذلك عملاً بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أخرجه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر) [٢٦]. وفي هذا الشهر يجوز لمن أراد الحج أن يباشر فيه أعمال الحج من إحرام وطواف وسعي..

١١- ذو القعدة: هو الشهر الحادي عشر من أشهر السنة القمرية وهو أول الأشهر الأربعة الحرم وفي تسميته هذه أقوال منها: (لقعودهم فيه عن القتال) [٢٧]. يقول البيروني في كتابه الآثار الباقية: (سُمي ذو القعدة للزومهم منازلهم)، وقيل: (لقعودهم في رحالهم عن الغزو والميرة طلباً للكلأ) [٢٨]. وكان العرب لا يشنون فيه حرباً ولا قتالاً ليتمكن الناس من أداء مناسك الحج بأمان.

١٢- ذو الحجة: هو الشهر الثاني عشر من أشهر السنة القمرية، فيه يحج الناس إلى مكة للنسك والتعبد وأداء فريضة الحج. والحج قديم يرجع عهده إلى أبينا إبراهيم عليه السلام، إذ قال له ربه: (وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) الحج-٢٧. فلما جاء الإسلام أبقى هذه الفريضة، إذ جاء في محكم التنزيل: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) البقرة-١٩٧. ولم يكلف الله سبحانه وتعالى عباده جميعاً في أداء هذه الفريضة، وإنما فرضها على المستطيعين القيام بها وإمكانية أداءها أداءً صحيحاً مالياً وجسدياً مصداق قوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) آل عمران-٩٧، فهذه الاستطاعة تتمثل في القدرة الجسدية على القيام بمناسك الحج من طواف وسعي ووقوف في

عرفات وسواها.. كما تتطلب القدرة المالية التي يحتاجها الحاج لإنفاقها في المأكل والمشرب والمبيت وأجور النقل وسواها.

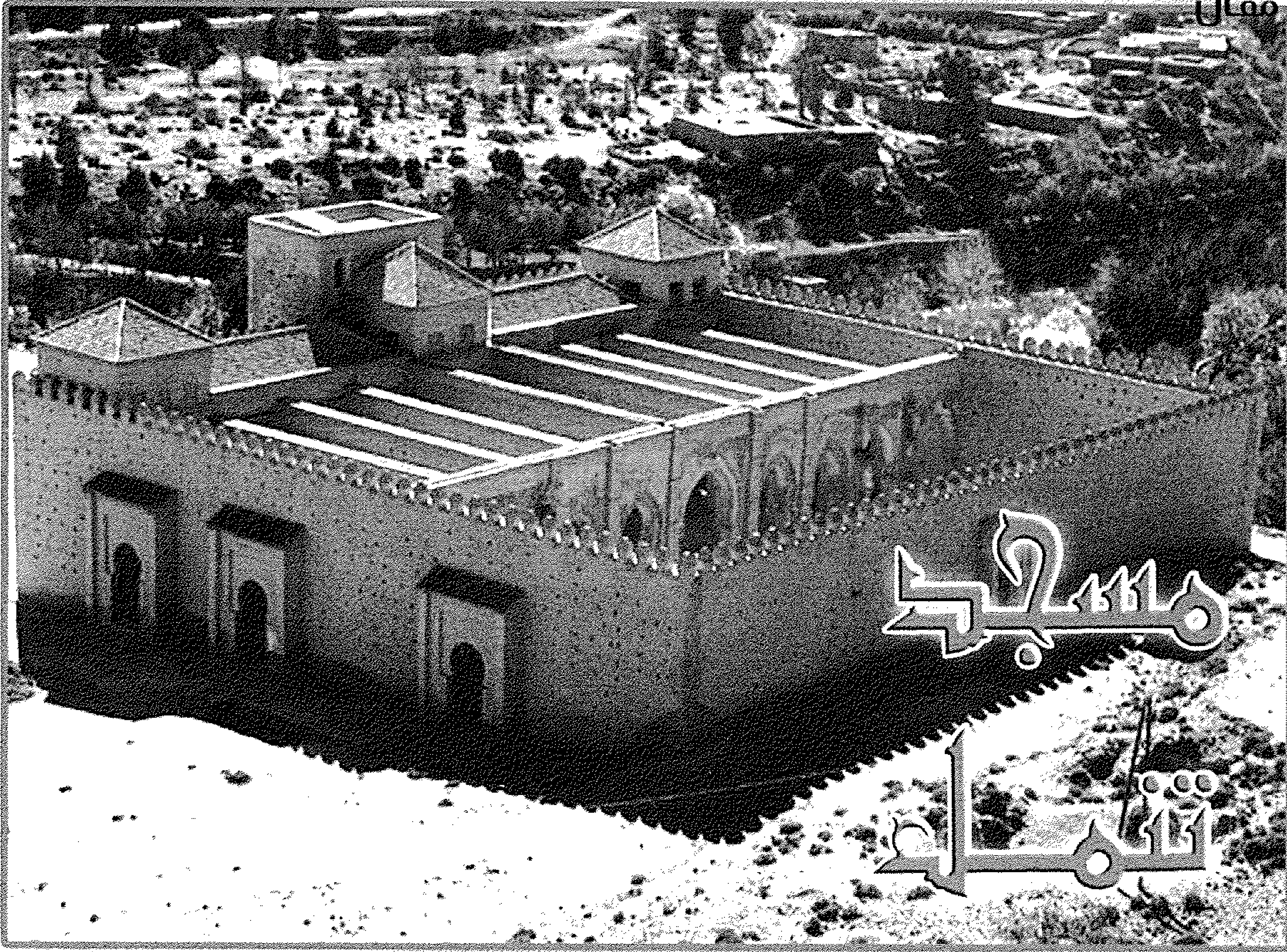
سمي هذا الشهر بذي الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمي به، وهو أحد الأشهر الأربعة الحرم وأكثرها مزية وفضلاً وخصوصية لأنه يشتمل على أيام وليال فضيلة مباركة أقسم الله بها فقال: (والفجر وليال عشر) الفجر-٢. قيل إن الفجر المقصود في هذه الآية هو انفجار الصبح الذي ينفجر كل يوم ويبدده الظلام [٢٩]، وقيل الفجر هو فجر أول شهر الحرام رأس السنة القمرية. وقيل الفجر: الذي تؤدى فيه صلاة الصبح [٣٠] أما الليالي العشر ففيها أقوال أيضا، أرجحها أنها الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، وبهذا قال كثيرون من أهل العلم ورجال التفسير، وقيل إنها العشر الأواخر من شهر رمضان، لأنها تضمنت ليلة القدر [٣١]، وأخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشرة» ويستحب الإكثار فيها من ذكر الله في هذه الأيام المباركة التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) الحج-٢٨. وفي إجماع أهل العلم أنها الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة هذا الشهر الكريم، والحمد لله رب العالمين. ■

المراجع

١- الآثار الباقية عن القرون الخالية - محمد البيروني.
٢- أسماء الشهور والعدد والأيام - أنيس فريحة.
٣- البستان، معجم لغوي مطول - عبد الله البستاني.
٤- تاريخ الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
٥- تفسير المراغي - مصطفى المراغي.
٦- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
٧- التفسير الواضح - محمود حجازي.
٨- تهذيب اللغة - أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري.
٩- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب - أبو منصور عبد الملك الثعالبي.
١٠- زاد المسير في علم التفسير - الإمام أبو الفرج جمال الدين الجوزي.
١١- سنن الترمذي - محمد بن عيسى بن سورة الترمذي.
١٢- سيرة ابن هشام - تحقيق عبد السلام هارون.
١٣- الكتاب المقدس - العهد القديم.
١٤- لسان العرب - ابن منظور.
١٥- فقه السنة - سيد سابق.
١٦- معجم البلدان - ياقوت الحموي
١٧- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة - مصر.
١٨- المنتخب في تفسير القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- مصر.
١٩- الموسوعة الإسلامية الميسرة الأعداد ٤-٦-٧-١٠ مختار فوزي النعال.

الهوامش

(١) البستان، معجم لغوي مطول، مادة (عوم)، عبد الله البستاني.
(٢) تهذيب اللغة، مادة (عوم)، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري.
(٣) ينظر البستان - مادة: سنو.
(٤) سيرة بن هشام - تحقيق عبد السلام هارون - المجمع العربي الإسلامي - بيروت.
(٥) المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - مصر.
(٦) أسماء الشهور والعدد والأيام - زنيس فريحة - بيروت.
(٧) الكتاب المقدس. العهد القديم سفر التثبنة الاصحاح الخامس الفقرة ١٣ / ١٤.
(٨) أسماء الشهور والعدد والأيام - أنيس فريحة - بيروت.
(٩) تاريخ الطبري - ج١ - أبو جعفر بن جرير الطبري.
(١٠) نهاية الأرب - النويري.
(١١) غدير خم: بين مكة والمدينة على بعد ثلاثة أميال من الجحفة - معجم البلدان - ياقوت الحموي - مادة (خم).
(١٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب - الباب (٥٦) في الليالي المضافة، أبو منصور عبد الله الثعالبي.
(١٣) نهاية الأرب، النويري.
(١٤) لسان العرب، ابن منظور - مادة صفر.
(١٥) انظر أسماء الشهور والعدد والأيام - أنيس فريحة.
(١٦) الموسوعة الإسلامية الميسرة- مادة ربيع- مختار فوزي النعال.
(١٧) تهذيب اللغة للأزهري.
(١٨) لسان العرب، ابن منظور.
(١٩) الموسوعة الإسلامية الميسرة، مادة رجب، مختار فوزي النعال.
(٢٠) الموسوعة الإسلامية الميسرة، مادة شعبان.
(٢١) المصدر السابق.
(٢٢) سنن الترمذي- باب النكاح حديث رقم ١٠٩٣.
(٢٣) الآثار الباقية في القرون الخالية - للبيروني.
(٢٤) الموسوعة الإسلامية الميسرة، شوال، مختار فوزي النعال.
(٢٥) المصدر السابق.
(٢٦) فقه السنة، سيد سابق، صيام التطوع.
(٢٧) نهاية الأرب- النويري - الجزء الأول - القسم الثالث.
(٢٨) الموسوعة الإسلامية الميسرة- ذو الحجة.
(٢٩) ينظر التفاسير التالية: التفسير الواضح ج٢، تفسير سورة الفجر وتفسير المراغي، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم، تفسير القرطبي: أحكام القرآن.
(٣٠) ينظر زايد المسير- سورة الفجر - الإمام أبي الفرج جمال الدين علي بن محمد الجوزي،
(٣١) المصدر السابق.



نموذج فريد للعمارة الأندلس - مغربية

■ مولود محمد سوسي

من أبرز صفات العمارة الإسلامية العربية، اهتمام المسلمين بتعمير المساجد والتفنن في بنائها وزخرفتها على اعتبار أن عمارة المساجد تتميز عن بقية الفنون الإسلامية الأخرى، كونها أكثر التعبيرات أمانة وصدقاً والأكثر استجابة وتجسيداً لرسالة وروح تعاليم الإسلام وأهدافه السامية. ويعدُّ مسجد قباء أول مسجد في تاريخ الإسلام، وبعده أسس المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، وبعد ذلك كثرت المساجد وزاد انتشارها بتوسع الإسلام شرقاً وغرباً، وتنافس أمراء المسلمين وملوكهم في تشييد المساجد والجوامع. وقد عرف الغرب الإسلامي بدوره حركة بناء المساجد على نطاق واسع، ومن بين هذه المساجد التي لقيت عناية واهتماماً من طرف الباحثين وخاصة المستشرقين منهم مسجد "تنمل"، على الرغم من صغر مساحته وموقعه الجبلي.. فماذا عن هذه المَعْلَمة المعمارية؟ وما هو سرّ الاهتمام بعمارتها ؟

قبل الحديث عن مسجد ''تنمل'' وأهميته المعمارية، لا بأس أن نلقي نظرة ولو مختصرة عن باني هذا المعمار الفني (أي الموحدين) وعن مكانه في منطقة ''تنمل''.

فالموحدون هم قبائل من جبال الأطلس المغربي ومن سكنة الجزء الساحلي المغربي الذين خلفوا المرابطين في حكم شمال إفريقيا والأندلس سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م).

وقد أسس حركة الموحدين بالمغرب الزعيم الديني ابن تومرت (محمد بن عبد الله) الملقب بالمهدي، وهو من المصلحين، وانضمت إليه قبائل كثيرة وكان مقره في بلدة ''تنمل''* في جبال الأطلس عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وبعد وفاته سنة ٥٢٤م خلفه تلميذه وساعده الأيمن عبد المومن بن علي، الذي يرجع له الفضل في تأسيس دولة الموحدين وتوطيد أركانها، وجاء بعده خلفاؤه الآخرون، وبلغ الموحدون أوج عظمتهم وسيطرتهم على شمال إفريقيا والأندلس، لكنهم لم يفكروا في جعل الأندلس قاعدة لحكمهم(١).

ويقع مكان جامع ''تنمل'' كما يطلق عليه، في قرية صغيرة تقع في قلب جبال الأطلس الخلفية في جنوب المملكة المغربية منطقة صعبة لا يصلها الزائر إلاّ عبر طريق جبلي وعر خطير، ولهذا السبب اختارها ابن تومرت مهدي الموحدين، مركزاً لجماعته الدينية، التي أنشاها ففرق في أهلها أموالاً عظيمة، وأمر ببناء مسجدها وتوسيعه(٢). فقام ذلك المسجد الجميل الذي يعتبر من المعالم الفاصلة في تاريخ العمارة في الغرب الإسلامي كله.

مسجد "تنمل"

اشترك في بناء مسجد ''تنمل'' معماريون وفنانون من المغرب والأندلس فجمع لهذا خصائص الفنين المغربي والأندلسي على صورة بديعة من التناسق والانسجام. وتجدر الإشارة إلى أن الموحدين أصبحوا أصحاب مدرسة في العمارة والزخرفة، متأثرين في ذلك تأثراً عميقاً بالحضارة الأندلسية، حيث تمكنت هذه الأخيرة من غزو المغرب فنياً وعلمياً. ويعد عصر الموحدين هو عصر توثق العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس(٣). وهذا التأثير ظهر في جميع العمائر التي أقامها خلفاء الموحدين في المغرب مثل جامع الكتبية بمراكش وجامع حسان برباط الفتح.

ويقع جامع ''تنمل'' في الطرف الغربي من قريته، ويوجد قبر المهدي قريباً منه، وعلى الرغم من اتساعه، فإنه يبدو صغيراً وأنيقاً لأنّ المعماريين بذلوا أقصى جهودهم في إتقان أعماله. حيث يبلغ طوله ٤٦ متراً وعرضه ٤٩ متراً(٤). ويتسم الجامع بالإنسجام والتناسق في تخطيطه وفي زخارفه البديعة.

مخطط الجامع

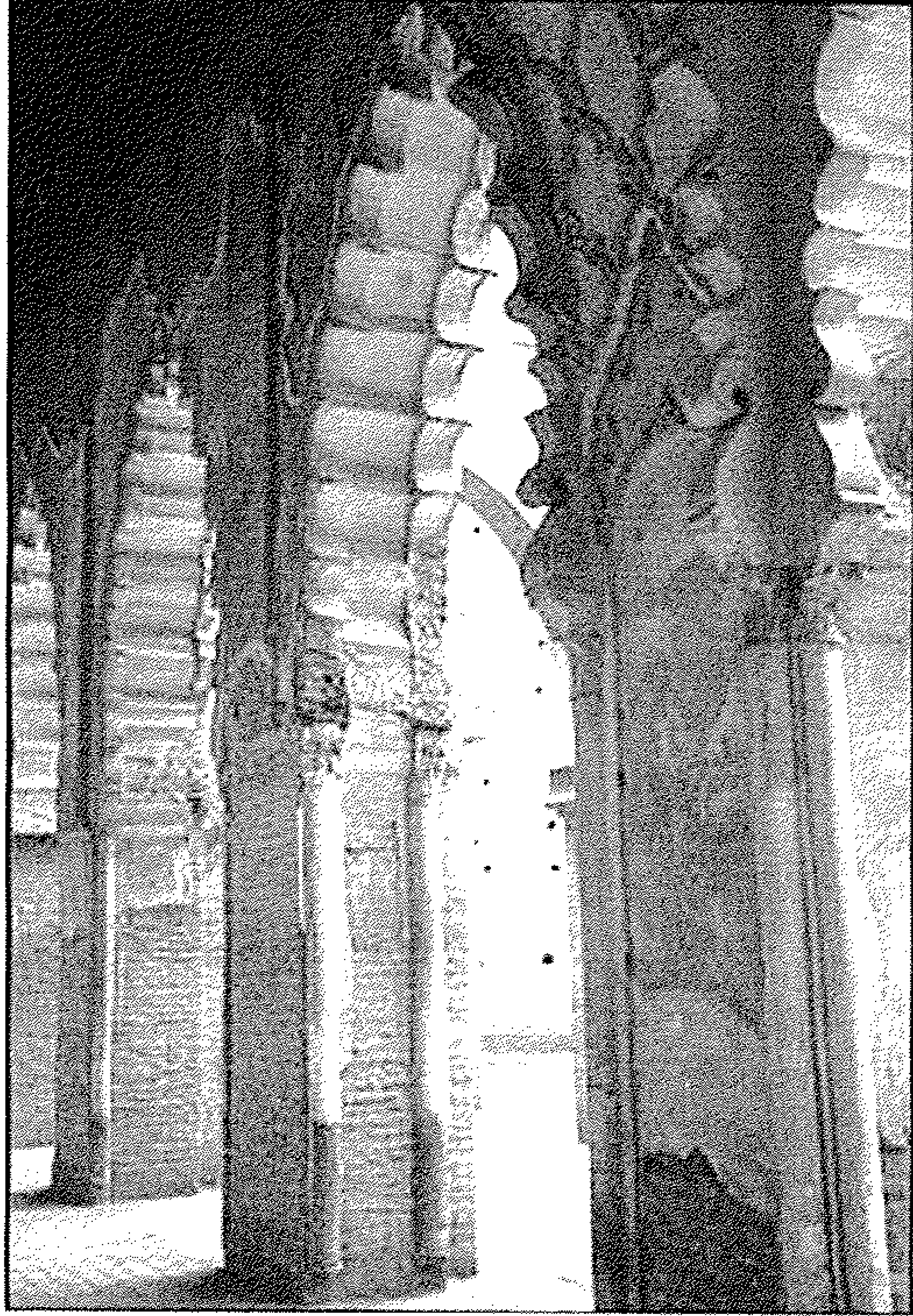
يشمل مسجد ''تنمل'' معظم مساحته، ويتألف من تسع بلاطات عمودية (أي أروقة عمودية على جدار المحراب) جدار القبلة، والأروقة واسعة، ولهذا لم يجد المعماري ما يدعو إلى توسيع رواق المحراب، ووضع السعة في الرواقين الجانبيين، وتشمل كل من هذه البلاطات على خمسة صفوف من الدعائم(٥).

أما أساكيب الجامع (أي الأروقة الموازية لجدار القبلة) فهي أربعة، وأسكوب القبلة أوسع من الأساكيب الأخرى. ويظهر تأثير نظام القباب في جامع قرطبة في عمارة مسجد تينمل الذي زيّنه الموحدون بثلاث قباب: واحدة تقوم فوق تقاطع أسكوب القبلة مع رواق المحراب. وهي قبة جميلة تزينها من اليمين واليسار قبتان، وتجاويف هذه القباب كلها مزينة بالمقرنصات(٦) ويعتقد الأستاذ مارسيه، أن نظام وضع هذه القباب الثلاثة على أسكوب المحراب متأثرة بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة(٧).

ولاشك أن وضع هذه القباب يختلف عن قباب مساجد المرابطين (الذين سبقوا الموحدين)، التي لم تعرف نظام القبلتين اللتين تكتنفان قبة المحراب، وكل ماكانت تعرفه هو قبة المحراب وأحياناً قباب تتوزع على البلاطة الوسطى(٨). وهذا دليل على الجهود التي قام بها الموحدون لتطوير فن عمارة المساجد في المغرب.

وتتميز دعائم بيت المسجد بتنوع الشكل، فالكتل المربعة تزدان في جوانبها الشمالية والجنوبية بأصناف أعمدة صغيرة محفورة في الجص، ويسود هذا النوع من من الدعائم سائر مساجد الموحدين(٩).

أما صحن المسجد فهو مستطيل الشكل، ويبلغ عرضه أكثر من عمقه، وهو صغير بالنسبة لسطح بيت الصلاة، وتحف به مجنبتان شرقية وغربية، كل منهما تشتمل على رواقين. وينفتح بجدار المحراب على جانبيه فتحتان(١٠). وعقود المسجد مدبدبة في غير مبالغة، وأفاريزها مزينة بالمقرنصات وخاصة عقود رواق المحراب والرواق الموازي لجدار



القبلة[١١].

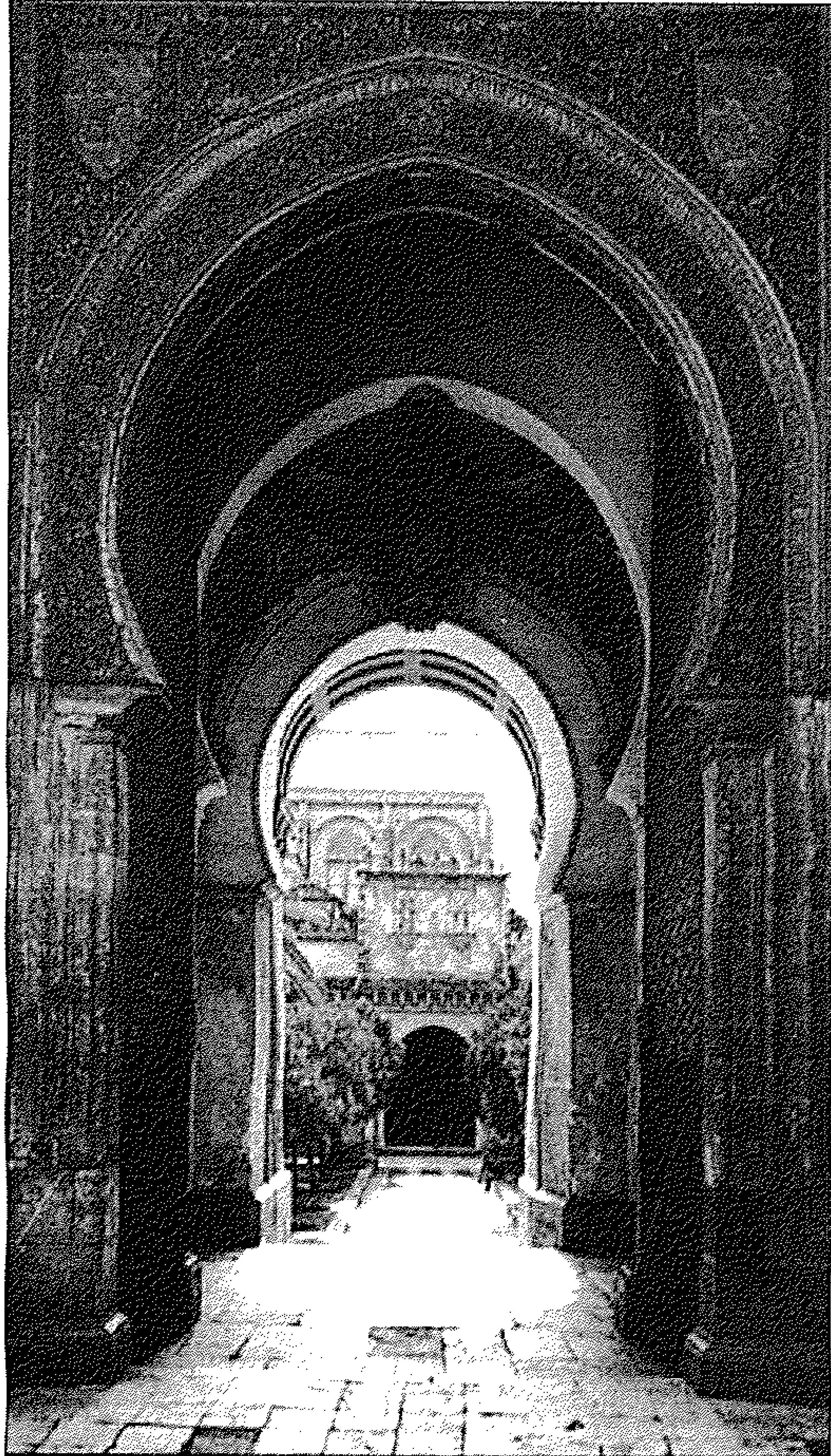
أما محراب الجامع، فأنيق مزين بالزخارف من كل نوع، ويعد من أجمل المحارب المغربية في عصر الموحدين، وفيه تتمثل القيم الجمالية في الزخرفة الإسلامية من الانسجام والتناسق في سائر التكوينات الزخرفية، كما أورد ذلك الأستاذ تيراس[١٢].

ويذكر د. السيد عبد العزيز سالم، أن عقد جوفة المحراب منفور منكسرٌ انكساراً طفيفاً، ويحيط به عقد زخرفي مفصص مهمته الإيهام بفخامة المحراب ويشغل جانبي المحراب قوقعتان تمتد منهما دوائر تشبه رؤوس المسابح.

ويكتنف المحراب إلى اليمين واليسار بابان صغيران: أحدهما باب الإمام، والآخر باب المنبر، والبابان نجد لها نظائرهما في مسجد الكتبية بمراكش والقرويين بفاس، وهذا النظام موجود في جامع قرطبة بالأندلس[١٣] يدل على تأثير الفن المعماري الأندلسي في مثيله المغربي.

أبواب ومئذنة

ولمسجد ''تنمل'' سبعة أبواب: باب في الشمال ينفتح تجاه المحراب، وثلاثة أبواب في كل من الجانبين الشرقي والغربي تبرز في السور، وتتميز كل مداخل جامع ''تنمل'' باستثناء الباب الشمالي، بأنها تقع بين كتلتين بارزتين من البناء. وقد يكون هذا النظام، كما ذكر سالم، متأثراً بنظام أبواب المساجد الفاطمية في المهدية والقاهرة، ودليله على ذلك أن هذا النظام لم يشاهد في عمائر المرابطين وعمائر الأمويين بالأندلس[١٣].



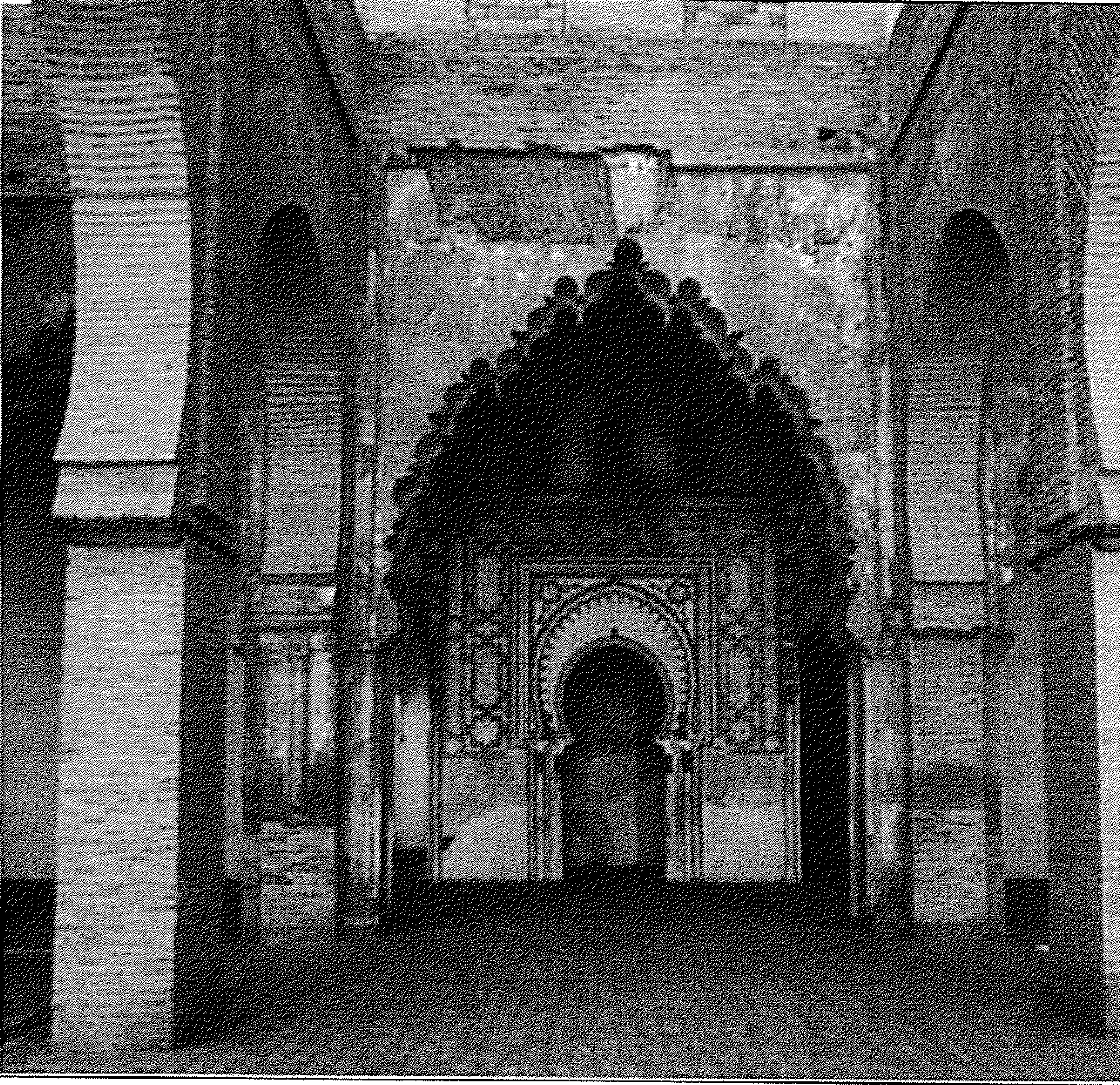
بينما تختلف المئذنة في مسجد ''تنمل''، من حيث الموقع، ومن حيث الشكل، عن مآذن الموحدين الأخرى فهي مئذنة مستطيلة (٩.٥٠ × ٥.٥٠ متراً مربعاً)، وليس على المحور في الجهة المقابلة للمحراب، بل إنها بارزة فوق المحراب مباشرة. ويذكر بأن بمدينة (سلا) مئذنة صغيرة، يبدو أنها ترجع إلى عصر الموحدين، مستطيلة الشكل وترتفع أعلى سطح المسجد بأعلى المحراب[١٤].

وهذا النموذج الذي اتخذه المعماريون لإنشاء مئذنة جامع الكتبية الشهيرة بمراكش، وجدران المئذنة وعقودها وسقفها مزينة بالزخارف، وهذه الزخارف كلها قطع فنية تدل على قدرة الفنان المغربي في الإبداع

في الخطوط والزوايا والدوائر تعطي أشكالاً عجيبة[١٥].

وهكذا نجد أنّ عمارة الأندلس، كانت ذات أثر بعيد في عمائر المغرب، خاصة بعد قيام الدولة المغربية الكبرى – دولة المرابطين والموحدين وبني مرين، وأصبح المغرب والأندلس بلداً واحداً سياسياً وحضارياً فتبادل الجانبان التأثيرات، ويمكن القول بأن فن العمارة بالمغرب والأندلس أصبح طرازاً واحداً، هو الذي يسمى بالإسباني المغربي HISPANO MAURESQUE ومن نماذجه الكبرى مسجد الكتبية بمراكش ومسجد حسان في الرباط ومسجد اشبيلية، الذي مازالت مئذنته باقية معروفة باسم الدوارة (الخيرالدا).

كما أن كل مساجد المغرب –سواء كانت كبيرة أو صغيرة– كمسجد "تنمل" تستعمل كمدارس وتتراوح بين مكاتب تحفيظ القرآن والجامعات كالقرويين. وهكذا ظلّ الطراز المغربي محافظاً على خصائصه، وعلى أساسه تم إنشاء –في أيامنا– مسجد الحسن الثاني في ولاية الدار البيضاء.■



المصادر والمراجع

* ينطق المغاربة هذه الكلمة كما كُتبت، لكنها في المصادر (تنملل) لذا وجب التنويه

١) رؤوف الأنصاري: عمارة المساجد، دار الينبوع والنشر والتوزيع، بيروت، جمادى الأولى ١٤١٧هـ، تشرين الأول ١٩٦٦م الطبعة الأولى، ص١٠٣.

٢) علي بن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ص٧٢.

٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ص٧٤٦.

٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول دار الرشاد الحديثة الطبعة ٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م ص٣٤٤، وحسين مؤنس: المساجد، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ص٢٢١، والسيد عبد العزيز: تاريخ المغرب، ص٧٥٤.

٥) حسين مؤنس: المساجد ص٢٢١، د. السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب، ص٧٥٤.

٦) كذلك، المرجع السابق، ص٢٢٢، وسعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص٥٠٠.

٧) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب عن MUSULMANE MARCaAIS :LARCHITECTURE ص٧٥٤.

٨) كذلك: تاريخ المغرب ص٧٥٥.

٩) نفسه ونفس المرجع، ص٧٥٦.

١٠) سعد زغلول: العمارة والفنون، ص٥٠٠، والسيد عبد العزيز: تاريخ المغرب، ص٧٥٤

١١) د. حسين مؤنس: المساجد، ص٢٢١.

١٢) د. السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب، ص٧٥٦.

١٣) نفسه ونفس المصدر ص٧٥٥.

١٤) د. السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب، ص٧٥٦، عن ٤٨
BASSET ET TERRASSE SAUCTUAIRES ET FORTERESSES P.

١٥) د. حسين مؤنس: المساجد، ص٥٠٠، والسيد عبد العزيز: تاريخ المغرب، ص٧٥٦، و سعد زغلول: العمارة والفنون، ص٢٢١.

القبة المنصورية..

تباهي القباب القاهرية بجمالها

■ د. محمد الششتاوي

بين ربيع الآخر ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م وجمادى الأولى ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م أي ما لا يزيد على أربعة عشر شهراً أنشأ السلطان الملك المنصور قلاوون مجموعة معمارية ضخمة بقصبة القاهرة وهي شارعها الأعظم (شارع المعزّ لدين الله) بخط بين القصرين، تضم مارستاناً (مستشفى) وقبة ومدرسة وقيسارية (وكالة تجارية)، ومكتب سبيل (كتّاب) وحوض سقي دواب وحمّاماً.

والمستشفى هو أول ما بني من تلك المجموعة، أما ثانيها فكانت القبة وقد استغرق بناؤها خمسة أشهر فيما بين شوال ٦٨٣هـ وصفر ٦٨٤هـ، إذ نقش على باب القبة: «أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس إنعامه ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه، وكان ابتداء عمارتها في شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة، والفراغ منها في صفر سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية النبوية».

وتعدّ القبة المنصورية من أروع نماذج القباب القاهرية سواء في تخطيطها الفريد الذي لم يتكرر بعد ذلك أو في تنوع عناصرها المعمارية والزخرفية، وفيما كانت تؤديه من وظائف دينية وتعليمية واجتماعية، إذ أن القبة المنصورية لم تكن مشيدة أصلاً لتكون قبة للدفن وإنما كانت تقوم بوظيفة المسجد والمدرسة، ويؤيد ذلك وثيقة وقف القبة وغيرها من المنشآت، وهي رقم ١٠١٢ (أوقاف) إذ جاء فيها:

«إن السلطان قلاوون قد أوقف الرواق القبلي الذي بصدره المحراب مسجداً لله تعالى على حكم المساجد» أما باقي القبة ورواقاتها فإنه وقف ذلك «لقراءة القرآن العظيم، وتلاوة الذكر الحكيم، ولتدريس الأخبار النبوية، وإلقاء الأحاديث المحمدية، ولإقامة من يرى الناظر إقامته فيها من الواردين عليها وإليها، والمصلين والمتطوعين والأئمة والمؤذنين والقومة والخدام، يقيمون بها ويقرأون القرآن فيها، ويجتمعون للاشتغال فيها بالأحاديث النبوية، وأما الخزائن التي بالقبة المذكورة فإنه وقفها لحفظ الكتب المتعلقة بالقبة المذكورة».

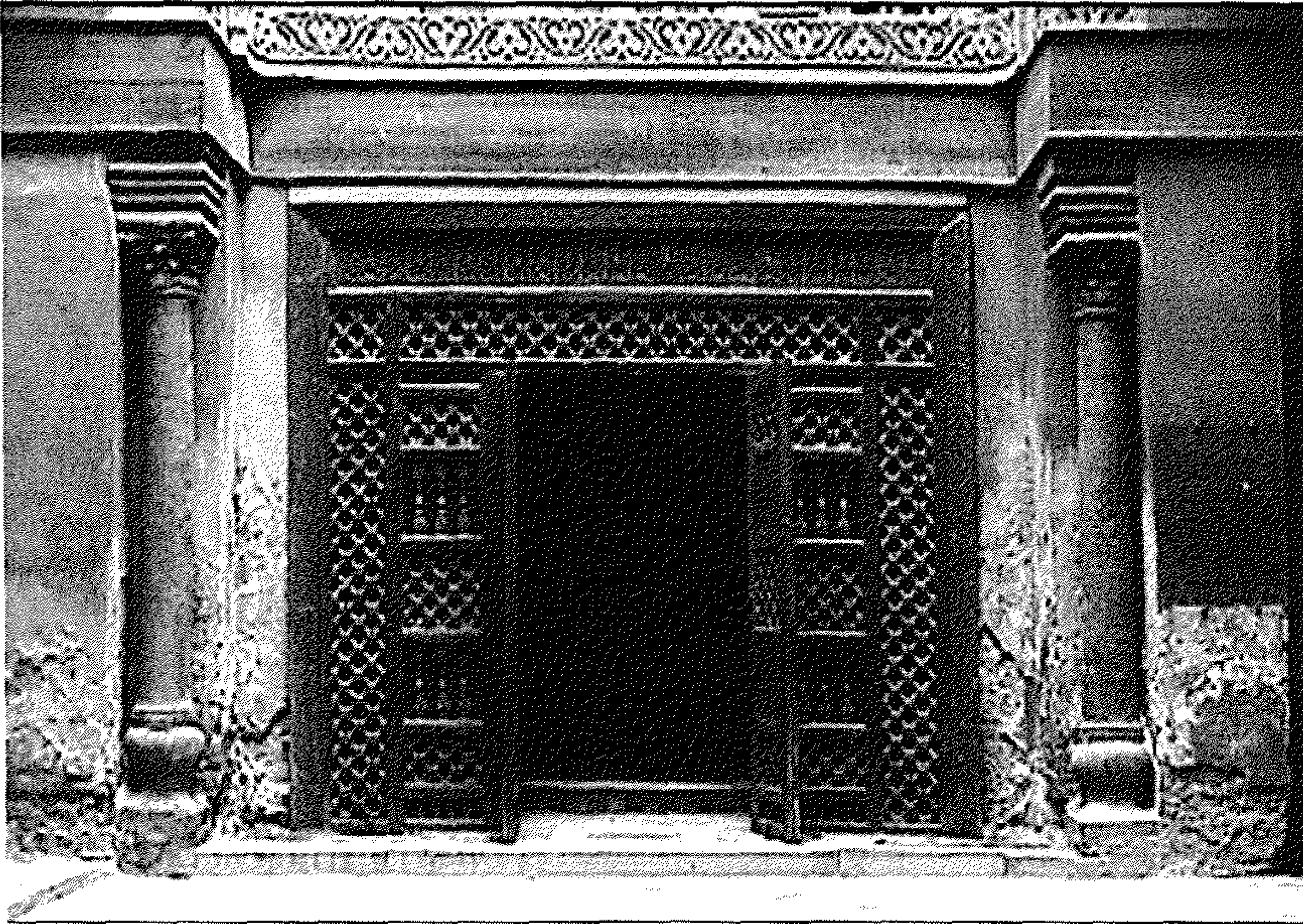
النويري وأرباب الوظائف

أما عن أرباب الوظائف المختلفة بالقبة فقد ذكرهم النويري في كتابه (نهاية الأرب) فقال: إنه رتب بالقبة المباركة المنصورية خمسين مقرئاً يقرأون كتاب الله تعالى ليلاً ونهاراً بالنوب، وجعل لكل منهم في كل شهر عشرين درهماً، ورتب بها إماماً على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وله في كل شهر ثمانون درهماً من أصل الوقف، وفي كل سنة في ليلة ختم صلاة قيام رمضان خلعة من خزانة السلطان كاملة مسخية مقتدرة، ورتب بها رئيساً ومؤذنين يعلنون الأذان بالمئذنة الكبرى، ويقيمون الصلاة ويبلغون خلف الإمام وهم سبعة نفر:

الرئيس وله كل شهر أربعون درهماً، والمؤذنون ستة، لكل منهم في كل شهر ثلاثون درهماً، ورتب بها درس تفسير لكتاب الله تعالى، فيه درس يلقيه مدرس، رتب له في كل شهر أربعين درهماً، وطلبة عدتهم ثلاثون، لهم في كل شهر ثلاثون درهماً، ودرس حديث يذكر فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، له مدرس ومعيد وطلبة، وزيادة على ذلك قارئ يقرأ الحديث بين يدي المدرس في أوقات الدروس ويقرأ ميعاداً للعوام بين يديه أيضاً في صبيحة كل يوم أربعاء رتب له في كل شهر ثلاثين درهماً.

ورتب لخازن كتبها في كل شهر أربعين درهماً، وخزانة كتبها من الختمات الشريفة والربعات المنسوبة الخط وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعر شيء كثير، ورتب بها الخدام اللازمة يقيمون بالقبة لحفظ حواصلها ومنع من يعبر إليها في غير أوقات الصلوات وهم ستة، لكل منهم في كل شهر خمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين.

ويضيف المؤرخ المقريزي في خططه على ذلك فيذكر أن: بهذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة وتعرف بدروس وقف الصالح وهو الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون وكان لا يليها إلا قضاة القضاة، بالإضافة إلى وجود قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار.



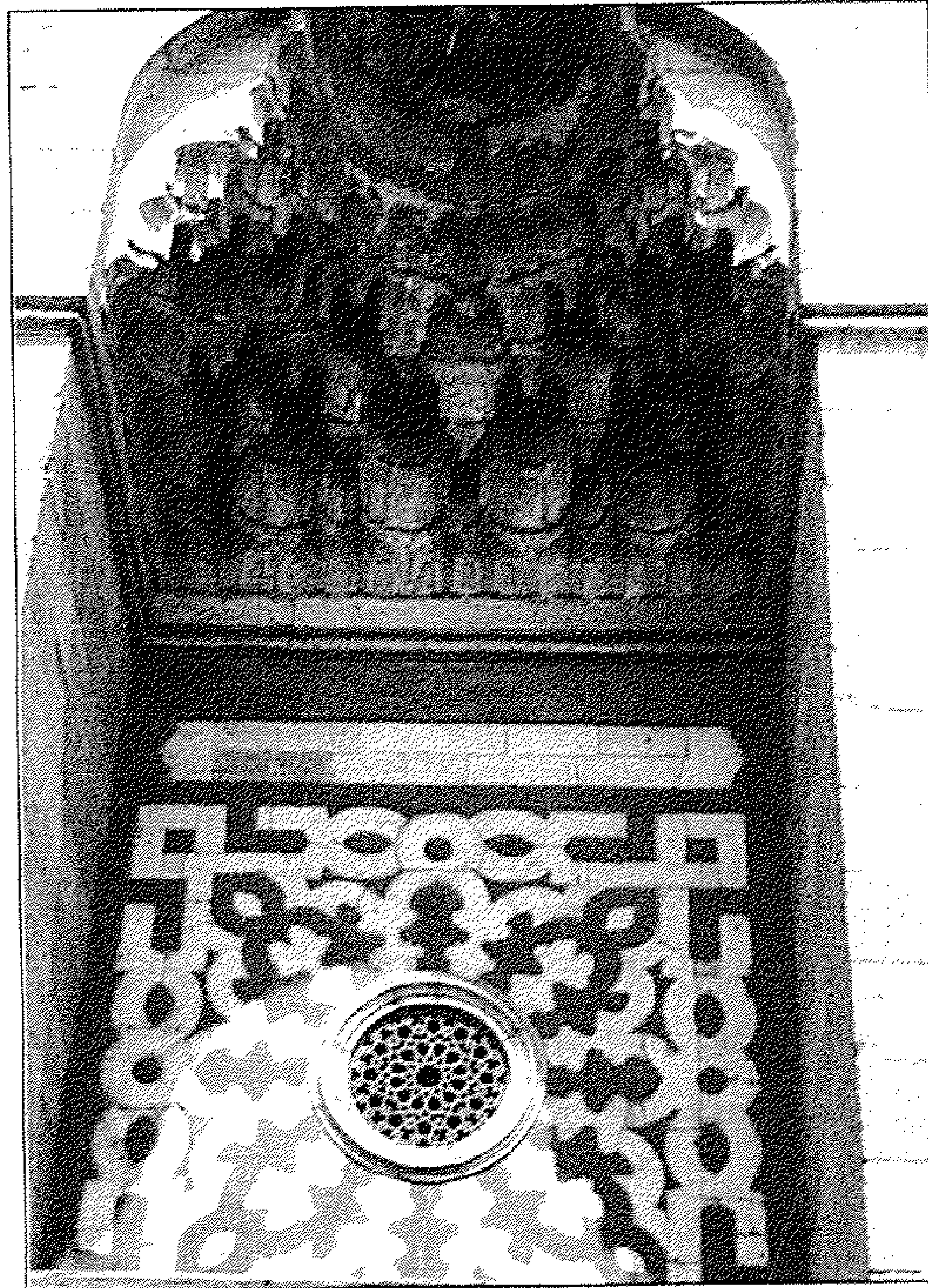
قبة المنصور قلاوون من الداخل

وفضلاً عمّا سبق كان يوجد بهذه القبة «إمام راتب يصلي بالخدام والقراء وغيرهم الصلوات الخمس، ويفتح له باب فيما بين القبة والمحراب يدخل منه من يصلي من الناس ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة».

وكان السلطان قلاوون يزور مجموعته المعمارية باستمرار، وكان يستمع إلى قراء القرآن الكريم وإلى دروس الأحاديث النبوية الشريفة ودروس التفسير والفقه.

وثمة دليل قوي على عدم استخدام القبة للدفن عند إنشائها وهو أنه عندما توفي السلطان قلاوون في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م لم يدفن في القبة مباشرة لأنه لم يكن بها مكان معدّ للدفن أصلاً، ولذلك حمل جثمان السلطان قلاوون إلى القلعة وغسل وكفن وصلي عليه ووضع في بعض الأماكن من القلعة حتى يتم ترتيب موضع دفن السلطان، وفي ذلك يذكر ابن عبد الظاهر - وهو شاهد عيان- أنه بعد أن صعد بالسلطان إلى القلعة وغسل وكفن وصلي عليه وجعل في بعض أماكنها -أي القلعة- جعل الشروع في ترتيب مكان دفنه.

واستمر جثمان السلطان بالقلعة لمدة شهرين حتى أعد مكان دفنه أسفل تربته بالقبة المنصورية في الثاني من محرم وقيل العاشر من المحرم ٦٩٠هـ / ١٢٩١م. وبناءً على ما سبق يتضح أن القبة المنصورية لم تصبح قبة للدفن إلا منذ دفن السلطان قلاوون بها في المحرم سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، ودفن بها بعد ذلك كل من السلطان الملك الصالح محمد بن قلاوون وابنه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون.



حفر على الرخام

الوصف المعماري للقبة

كان يتقدم باب القبة قاعة مساحتها ١٠ × ١٣م قسمت إلى ثلاثة أروقة أوسطها أوسعها بواسطة بائكتين تتكون كل بائكة من ثلاثة عقود مدببة ترتكز على عمودين من الجرانيت الوردي ذي تيجان كورنثية، وكان يتوسط هذه القاعة قبة هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا تقع فوق الفسقية التي يصلها الماء من فوارة بديعة الزي وسائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملون.

ويتكون داخل القبة من مساحة شبه مربعة ٢١×٢٣ متراً يتوسطها أربع دعامات مربعة من الآجر المكسي بالرخام، وأربعة أعمدة من الجرانيت الوردي ذوات تيجان كورنثية، وقد رتبت هذه الدعامات وتلك الأعمدة لتشكل هيئة مثمن، مقامه قبة فوق المثمن، والقبة الأصلية هدمت ثم أعاد بناءها الأمير عبد الرحمن كتخدا فهدمت هي الأخرى، والقبة الحالية بنتها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٠٣م على غرار قبة الأشرف خليل بن قلاوون بجوار السيدة نفيسة. وتتوسط أرضية القبة تركيبة رخامية من مستويين نقش بها اسم وألقاب السلطان قلاوون والدعاء له.

ويذكر بعض علماء الآثار أن تخطيط القبة يذكرنا بالعمائر الموجودة في بيت المقدس ولا سيما قبة الصخرة الشريفة.

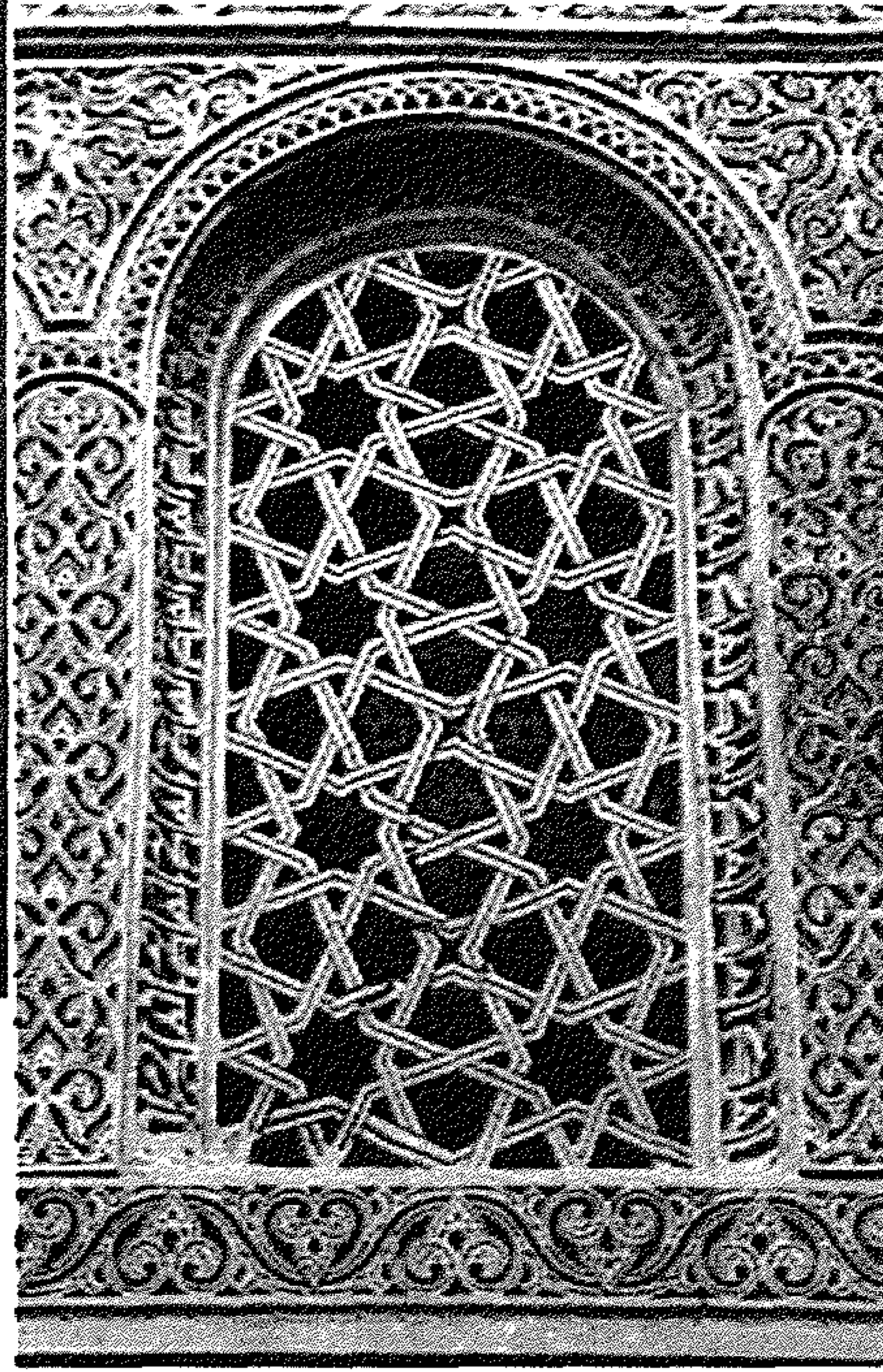
وبجدار القبلة محراب يتقدمه ثلاث دخلات اتساع الخارجية منها ٤٤٥سم. والمحراب اتساعه ١٧٩سم وعمقه ١٣٠سم وهو يشبه محراب المدرسة، وقد زخرف المحراب بكسوات رخامية وفسيفسائية عبارة عن زخارف هندسية وأطباق نجمية، وزخرفت جدران القبة بأشرطة رخامية بديعة الألوان، بالإضافة إلى الزخارف الجصية المتقنة مفعمة بالزخارف النباتية من أفرع وأوراق نباتية ومراوح نخيلية، وأشكال مسننة.

تنصيب الأمراء في القبة المنصورية

ارتبطت القبة المنصورية بمظهر اجتماعي ساد في عصر أسرة قلاوون التي حكمت مصر زهاء قرن من الزمان، وهو تنصيب الأمراء في القبة وأداؤهم اليمين عند قبر السلطان قلاوون. وهذا التقليد يعد امتداداً لما كان يحدث من أيام المعز أيبك إذ يتم الاحتفال في قبة الصالح نجم الدين أيوب، وكانت مراسم الاحتفال تبدأ



ضريح قلاوون



أحد الشبابيك الأمامية

بأن ينزل الأمير من القلعة وعليه التشريف والشربوش (الطربوش) وتوقد له شوارع القاهرة، إلى أن يصل إلى المدرسة الصالحية بين القصرين ويحلف عند قبر الصالح نجم الدين أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة، وكان يحضر تحليفه حاجب الحجاب وخاصكية السلطان، ثم يمد السماط السلطاني لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير في موكب من القبة الصالحية إلى القلعة.

وقد نقلت مراسم هذا الاحتفال بعد ذلك إلى القبة المنصورية وظلت تجري فيها حتى انقرضت دولة قلاوون.

وقد كان أهل الأغاني يجلسون في طول الطريق من القلعة إلى القبة المنصورية، ليزفوه في نزوله وصعوده، وقد عد هذا الاحتفال من جملة متنزهات القاهرة حسبما ذكر المقريزي في الخطط (ج٢، ص٣٨١).

وكان سلاطين بيت قلاوون قد أدخلوا تقاليد وقواعد جديدة على مراسم هذا الاحتفال بعد أن نقل إلى القبة المنصورية، منها ركوب الأمير فرسه تحت السنجق (العلم) يحف به الأمراء، ومنها طلوع الأمير إلى حضرة السلطان بالقلعة حيث يبوس الأرض ثم يقبل يد السلطان.

مثال ذلك ما ذكره المقريزي في السلوك (ج٢، ص٣٣٤) لمراسم الاحتفال بتنصيب أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون في ذي الحجة ٧٣١هـ، فيذكر أن السلطان الناصر محمد كان قد عزم على أن يُؤَمِّر ولده أحمد المُحْضَر من الكرك، فركب الأمير بكتمر الساقي وسائر الأمراء وجمع الخاصكية إلى القبة المنصورية وعلى رأسه سنجق، وأمر معه أيضاً ثلاثة أمراء عشروات في يوم الاثنين ٢٦ ذي الحجة، وألزم الأمير ناصر الدين بن المحسني والي القاهرة جميع أرباب الحوانيت بالقاهرة، فزينوا الأسواق وأشعلوا الشموع والقناديل، وجلس أرباب الملهى في عدة أماكن يضربون بآلاتهم فرحاً بتأمير أحمد ابن السلطان. ■

مقال

في الجزائر

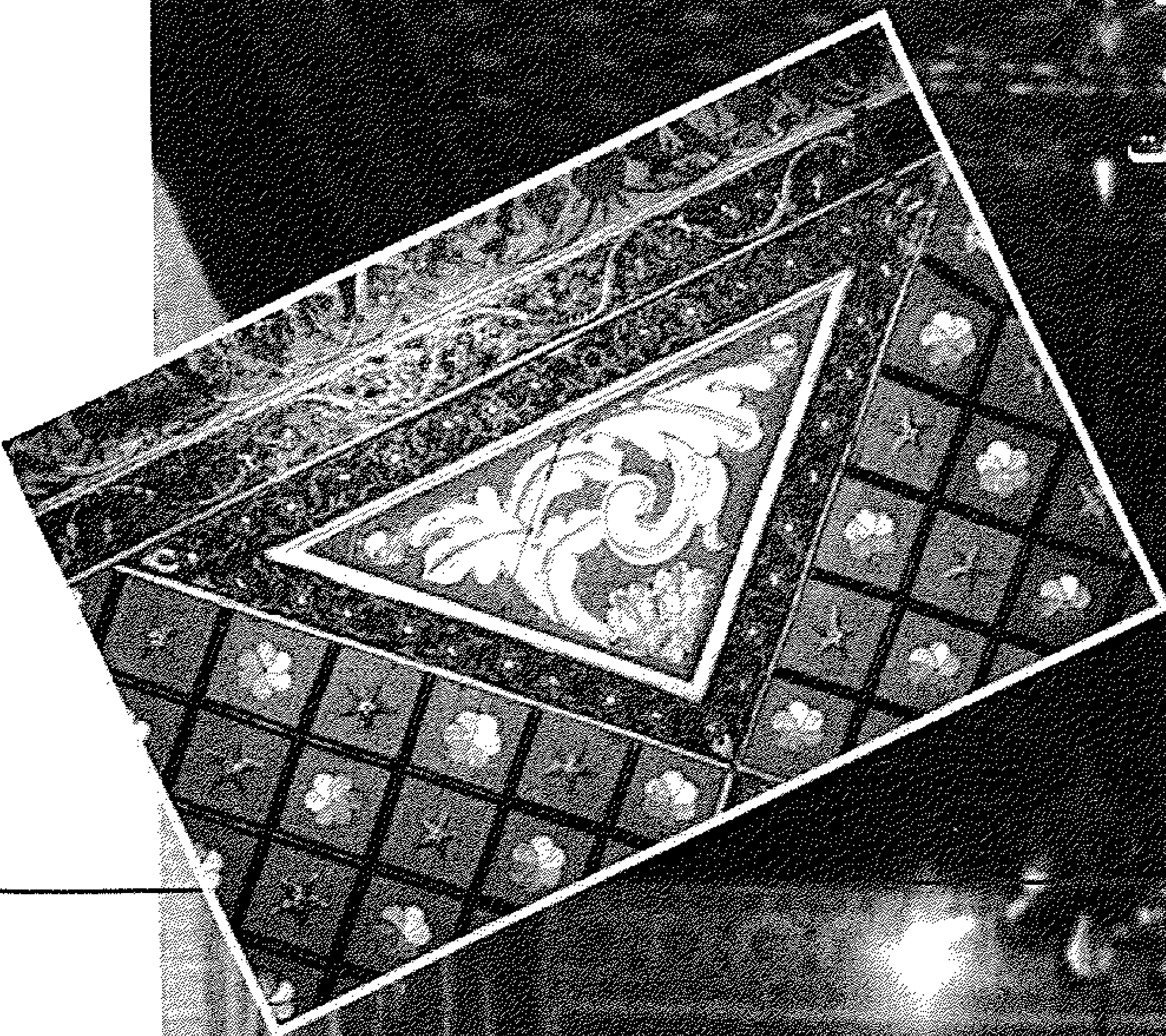
السُقُفُ الخشبية المزوقة..
روائع فنية مجهولة

■ نجاة أحمد عروة- الجزائر

ما بين الحضارة والعمران علاقة وثيقة، سماها العلامة ابن خلدون فن «التنميق والتزويق»، وقد شهد العديد من المؤرخين على تطور هذا الفن في مدينة الجزائر التاريخية، من حيث إتقان الصنائع البنائية وتجانس التصاميم الزخرفية وتعدد الأساليب التقنية.

وفن التزويق يعتمد في بعض أركانه على حرفة النجارة التي اتسع مجالها في العمارة التقليدية ليشمل صنع البوابات والدرابيز والكنات والسقف واللجف الواصلة بين الأعمدة والشبابيك وهي التي تتم صناعتها من خشب الأرز والعفصة وغيرهما من أصناف الأشجار الموجودة محليا. والواقع يؤكد أن فن العمارة ليس حديثا في الجزائر، حيث استعمله الأغالبة (القرن ٩م) في العمارة بشكله الطبيعي أو مزوقاً لصنع الروافد وهياكل القباب أو سُقف البيوت، وكذلك خلال فترة الحكم الفاطمي، التي اقتصرت الحرفة فيها على صنع الأمتعة والأثاث، حتى عادت تلك الحرفة إلى الواجهة مرة أخرى على يد الموحدين.

ويحتفظ متحف مدينة تلمسان العريقة بمجموعة معتبرة من الوحدات الخشبية تشهد على ازدهار حرفة النجارة قديماً، وتعدد أساليبها التقنية ما بين نقش وتزويق وتدوير وخرط.



والمعروف عن الخشب المزوق أنه لعب دوراً هاماً في العمارة الجزائرية التقليدية خلال المرحلة العثمانية، لا سيما في زخرفة بعض البيوت الثرية بالعاصمة مثل «دار عزيزة» التي تأوي اليوم مقر الوكالة الوطنية للآثار والحفاظ على المواقع والنصب التاريخية، و«دار خداوج» (حاليا متحف الفنون والتقاليد الشعبية)، و«دار حسن باشا» تحت الترميم، و«قصر الرياس» الذي تحول بعد ترميمه إلى مركز الفنون والثقافة بالعاصمة.

وتعد هذه الزخارف من مظاهر الرخاء والذوق الفني الرفيع، وهي تنتمي إلى تيار فني شائع آنذاك في الجزائر وفي غيرها من العواصم الإسلامية والأوروبية مثل تونس والمغرب وتركيا وأسبانيا وايطاليا وفرنسا.

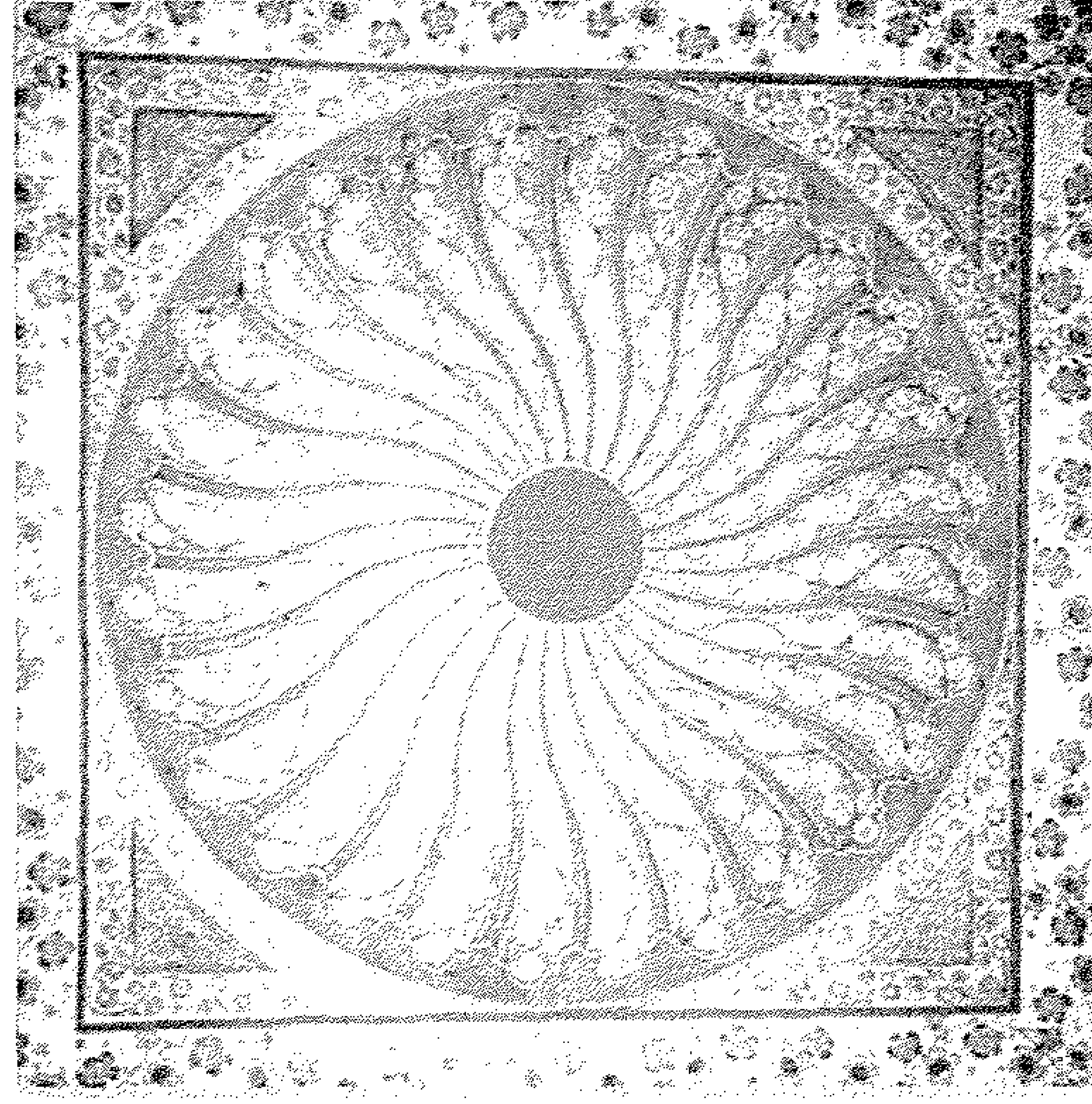
وبينما تبدي الجزائر اليوم رغبتها في الحفاظ على تراثها المعماري المتميز، فإن المختصين يجدون صعوبة في الحصول على التراجم أو الدراسات الكاملة والشاملة التي تعنى بعناصره الزخرفية، لا من حيث إحصائها وفهرستها وتصنيفها، ولا من حيث تحليل تصاميمها وأساليبها التقنية أو تركيبات مواد تزويقها فقط. إذ لا بد من الإطلاع على جميع هذه التفاصيل الدقيقة والإلمام بها قبل كل عملية تصنيف أو ترميم جدية. فأكثر المباني عرضة لعوامل الطبيعة الرطبة خاصة وأنها واقعة في المناطق الشمالية وبالخصوص في المناطق الساحلية. ولقد لاحظنا تشويهات خطيرة تصيب الروائع الزخرفية بدون تمييز، تتسبب في إزالة التزويق من فوق الخشب مثلا، وفي تعفنه نتيجة لانتشار الجراثيم والطفيليات في وسطه.

وعملا بهذا المبدأ العلمي والعملي، قامت المعمارية «نعيمة بودوة» [1] بدراسة شاملة لبعض النماذج الموجودة في البيوت المذكورة سابقاً، وباشرت في وضع جدول يبين خصائصها من حيث الشكل العام والأبعاد والتصاميم الزخرفية والألوان المستعملة.

خلصت في هذه الدراسة الوصفية التي شملت ٢٢ نموذجاً، إلى تعيين مجموعات متباينة من حيث الهيكل التركيبي وهذه المجموعات تحوي عدة لوحات فنية أو تتمحور حول لوحة زهرية مركزية. وقد اتضح وجود ثلاثة أصناف من السُقُفْ:

– سُقُفْ ذات لوحات مربعة ومخطط هندسي وزخرفة هندسية أو زهرية مع ألوان فاتحة وقليل من التذهيب.

– سُقُفْ ذات لوحات مستديرة أو بيضوية الشكل، مخطط هندسي (مربع أو معين)، زخرفة زهرية وألوان عميقة.

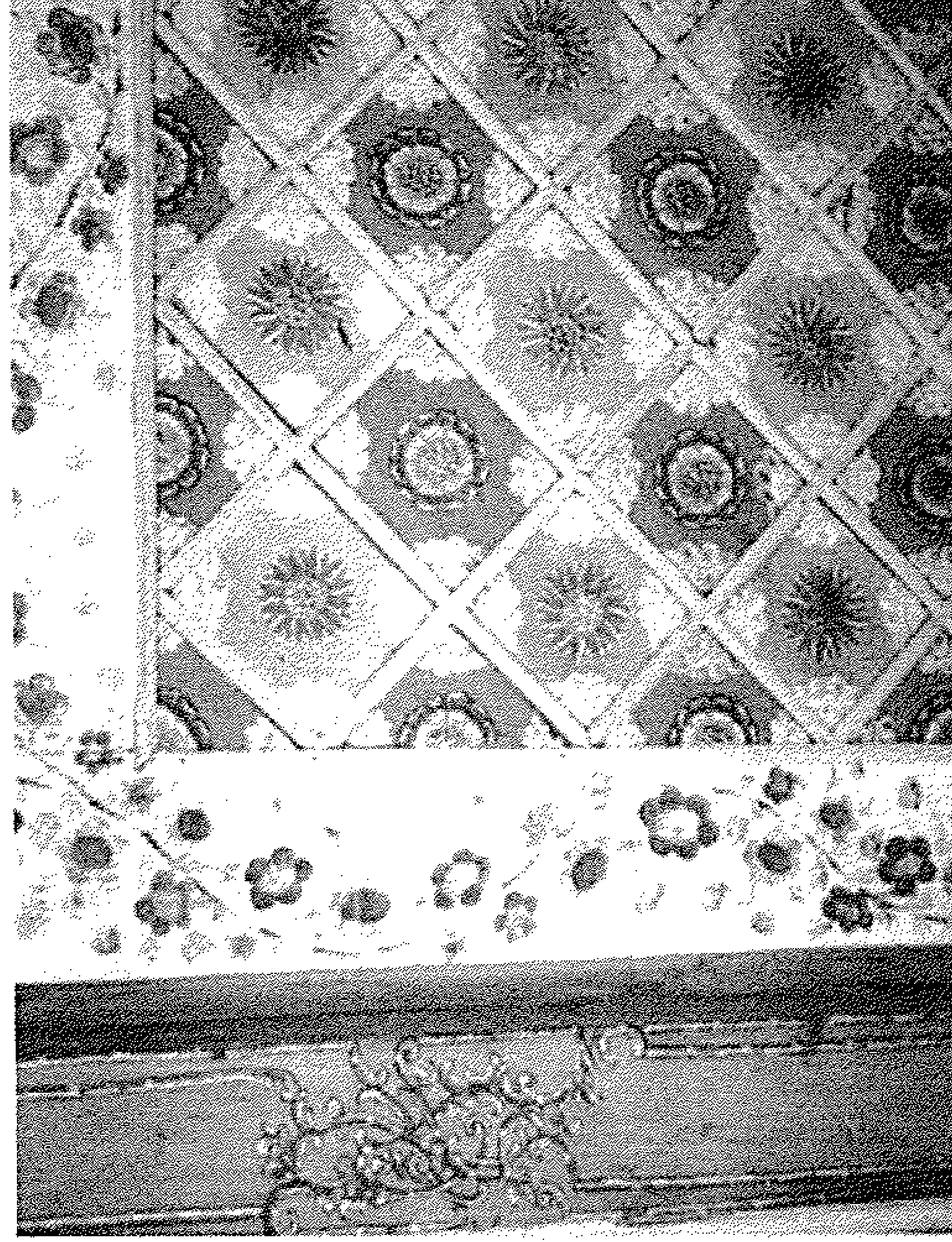


– سُقُفْ تشبه النماذج السابقة من حيث الشكل العام والتصميم الزخرفي، لكنها ذات تذهيب مبالغ فيه.

وقد بينت البحوث التاريخية استعمالاً مكثفاً لخشب الأرز الموجود بكثرة في الجزائر، خصوصاً في جبال الأطلس والورسنيس جنوب شرق العاصمة، حيث كان الحرفيون يفضلون استخدامه نظراً لخصائصه الطبيعية، فهو يحوي كمية من مادة التربنتين مما يجعله غير قابل للتعفن. لكننا لا نعرف الكثير عن ظروف استغلاله وقطعه ونقله باتجاه العاصمة، سوى أنه كانت تتم معالجته الأولية وزخرفته محليا في مكان استعماله، حيث تلصق القطع الخشبية المزوقة مباشرة على السقف بعد طلائه بدهان من القطران يمنع الماء من التسرب بداخله.

واستناداً إلى شهادة القنصل البريطاني آنذاك (منتصف القرن ١٨م)[2]، كان الحرفيون يعتمدون في ذلك على لصق خاص يستخرجونه من الجبن (أو اللبن)، وهو شديد المقاومة ضد الماء. لهذه المادة اللاصقة المسماة «كازيين»، خاصية طبيعية مضادة للتعفن ولتوالد الديدان في صلب الخشب. أما الزخارف الزهرية والنجمية المركزية، فكانت تكسى بأوراق مذهبة تلصق بواسطة سائل عسلي خثر.

ولم يتم الحصول على معلومات مفصلة حول المواد الصبغية المستعملة ولا عن تركيباتها الكيماوية، غير أنه يفترض تشابهها بتلك المستعملة في المغرب وتونس في ذلك الزمن، وقد تواصلت بها هذه الحرف إلى عهد



قريب نسبياً بينما اختفت في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية.

لذلك، فمن المرجح أنها كانت تستخدم مواد صبغية طبيعية، نباتية ومعدنية، ترش بمادة لاصقة للاستعمال الداخلي أو ببياض البيض للاستعمال الخارجي. وكانت القطع الخشبية تطلى بدهان أحمر أولا، ثم ترسم فوقه التصاميم الزخرفية المختلفة، ثم تزوق، ثم تحفظ بطلاء مستخرج من زيت الكتان يزيد من بريقها وحدّة ألوانها.

أما التصاميم الزخرفية، فتخضع لمخطط هندسي عام، تزين حواشيه أفاريز نباتية وزهرية مورقة. وتحوي هذه التصاميم تركيبات مورقة وزهرية تتوسطها أشكال نجمية. أما التصاميم النباتية فتبدو بسيطة في اللوحات القديمة (أوائل القرن ١٦ و١٧م) بينما تميل إلى الواقعية في اللوحات الأحدث عهدا (منها ما تم تجديده أو إعادة تزويقه خلال الفترة الاستعمارية)، مما يؤكد أثرا فنيا أوروبيا بلغ الجزائر عبر تركيا بداية من منتصف القرن ١٨م. وبعض اللوحات تضم رسومات حيوانية حية بينما لا نكاد نعثر على زخرفة خطية إلا نادراً جداً.

وبالمقارنة مع تلك الموجودة بتركيا وبالأندلس في نفس الفترة، تبدو النماذج الجزائرية مختلفة نوعاً ما، بالرغم من إدماجها لبعض العناصر الجمالية المشتركة. حيث توجد بمدينة تلمسان العريقة (غرب العاصمة) نماذج يعود تاريخها إلى القرن ١٢م (دولة عبد الوديد الأندلسية المنشأ والثقافة) فهي إذا سابقة للفترة العثمانية. ثم تطورت حرفة تزويق السقف الخشبية بالعاصمة بداية من القرن ١٥م على أيدي اللاجئين الأندلسيين المسلمين.

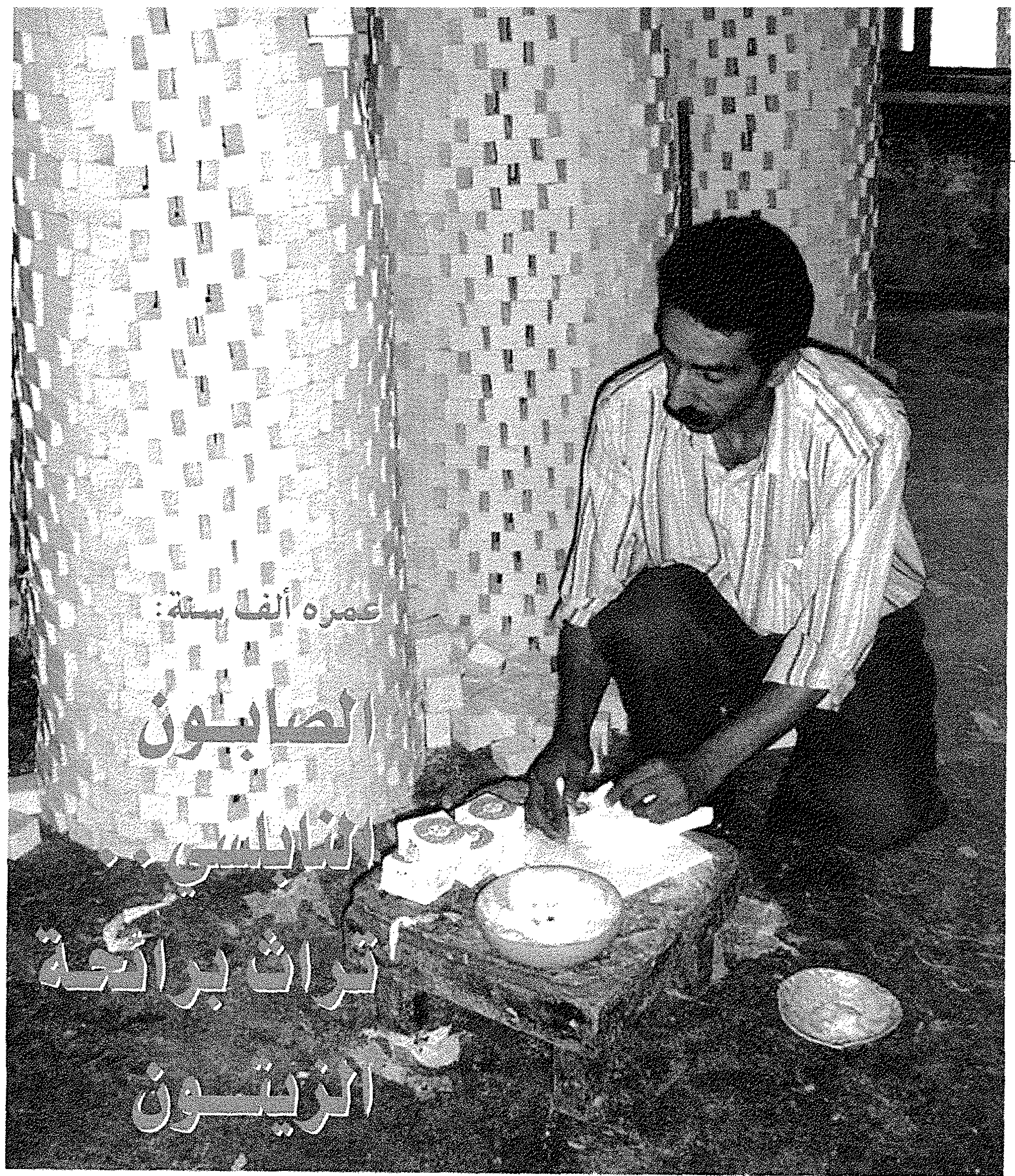
وينسب هذا الطابع الفني إلى فن «الأرتسونادس» وهو عبارة عن ترصيع دقيق لوحدات خشبية صغيرة في شكل فسيفساء رائعة. لكنه تراجع خلال القرن ١٨م، ويتحول إلى تزويق يوهم بوجود ترصيعات مختلفة الأشكال والألوان. بعدها، ظهر أثر التيار الفرنسي «روكوكو» والتيار الايطالي «باروك» بإدخال أشكال مستديرة وبيضوية مميزة. لذلك فإن العديد من السُقُف التي لا تزال موجودة إلى اليوم تجمع ما بين هذه التأثيرات الفنية كلها في طابع فريد ومميز، يعرف بالطابع الجزائري العاصمي.

يتوقف نجاح نشاط الترميم المعماري على مجموعة من العوامل القانونية والإدارية والمالية والتقنية والاجتماعية والثقافية والإعلامية، وهي في ارتباط وثيق فيما بينها. كما تتوقف أيضاً على حسن تدبيرها وتطبيقها في إطار عملي جماعي منسق ومتكامل بين الأخصائيين في مختلف هذه الميادين. أما إذا كانت عملية الترميم تستلزم خبرة تقنية حديثة معلومة، فقد تستدعي أيضا اللجوء إلى حرفيين مختصين في ميادين الحرف اليدوية المتصلة بالعمارة التقليدية، بالخصوص زخرفة الخشب المزوق. نظرا لصعوبة العثور على حرفيين مختصين في مثل هذا المجال اليوم في الجزائر، وأمام استعجال بعض الحالات، يضطر المعماري إلى استخدام التقنيات والمواد البنائية الحديثة وهي المتوافرة والأقل كلفة، مع الحرص قدر المستطاع على توافقها مع الشكل الأصلي. بغض النظر عن الاعتبارات الإدارية والاقتصادية، حينئذ تحرجه ضرورة الاختيار ما بين الحفاظ على المبنى، أو الحفاظ على أصالة المبنى.. تلك هي المسألة.! ■

الهوامش

١- بودوة نعيمة، السُقُفُ الخشبية المزوّقة في العمارة السكنية بالجزائر خلال الفترة العثمانية (١٦م الى نهاية ١٩م)، دبلوم الدراسات المعمقة، جامعة السوربون، باريس، أكتوبر ٢٠٠٤.

2- SHOW, Voyage dans la rgégence d'Alger, Ed Bouslama, Tunis, 1980, 410 page.



■ ميرفت عوف:

«نابلس» مدينة تاريخية تحفر بشوارعها وأزقتها صور التراث العريق، وتتعلق بأحجارها العتيقة رائحة الصابون النابلسي المتميز، وهي المدينة التي تتمتع بأهمية خاصة بين المدن الفلسطينية لخصوبة أرضها واعتدال مناخها وكثرة خيراتها، ناهيك عن أهميتها الاقتصادية الكبيرة حيث تتمركز فيها العديد من الحرف الرئيسة الثلاث: وأهمها صناعة الصابون النابلسي الذي اكتسب شهرة عالمية على امتداد العصور نظراً لجودته.

«الصابون النابلسي» كان وما زال أهم السلع التي تجوب البلدان العربية المجاورة، حيث كان التجار من قديم الزمان ينقلونه إلى المدن الشمالية في سوريا، ويسوقونه بشكل جيد نظراً لارتفاع الطلب عليه ولجودة المادة الخام المصنوع منها، وأهمها زيت الزيتون المتوافر في مدينة نابلس والمدن المحيطة بها، بالإضافة إلى انتشار الحمامات التركية في المدينة، فالعامل ينتهي من عمله في المساء، ثم يقوم بشراء قطعة من الصابون النابلسي ويذهب بها إلى الحمامات العامة ليغتسل. ورغم المنافسة الشديدة حالياً في ظل توافر العديد من المنتجات التي تحمل الماركات العالمية، والتي تقوم الإعلانات عنها بعملية «غسيل مخ» يومي للمستهلك، إلا أن الصابون النابلسي برائحة الزيتون يصمد أمام تلك العمليات، فهو الأكثر أصالة، والأكثر قبولاً لدى الناس.

تاريخ الصناعة

توجد في نابلس ثلاثة مصانع من أقدم مصانع الصابون التي شهدتها المدينة على مر العصور، ويرى بعض المؤرخين أن تاريخ صناعة الصابون في نابلس يعود إلى ما يزيد عن ألف سنة، مستندين في ذلك إلى الكثير من الكتابات التي كان يدونها الرحالة القدامى، ويقال إن أول وصف لصناعة الصابون النابلسي كان في القرن العاشر الميلادي، فقد جاء على لسان شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي: «إن الصابون يصنع في المدينة ويحمل إلى مختلف البلاد المجاورة».

إلا أن هذه الصناعة شهدت احتكاراً من قبل الملك في العصر الصليبي، حيث كان يمنع أصحاب المصانع ممارسة هذه الصناعة إلا بعد أن يمنحهم الإذن بموجب عقد يضمن به مورداً مالياً ثابتاً من أصحاب المصانع، وفي عام ١٩٣٠م، تعرضت صناعة الصابون في نابلس لهزة قوية لعدم وجود حماية «الاسم التجاري»، مما شجع العديد من أصحاب المصانع التجارية على تقليد علامة الصابون. بالإضافة إلى الضرائب الجمركية التي فرضتها عليه الحكومة المصرية بالتعاون مع حكومة الانتداب البريطاني، ورسوم الاستهلاك التي فرضتها الحكومة السورية على الوارد منه حينذاك.

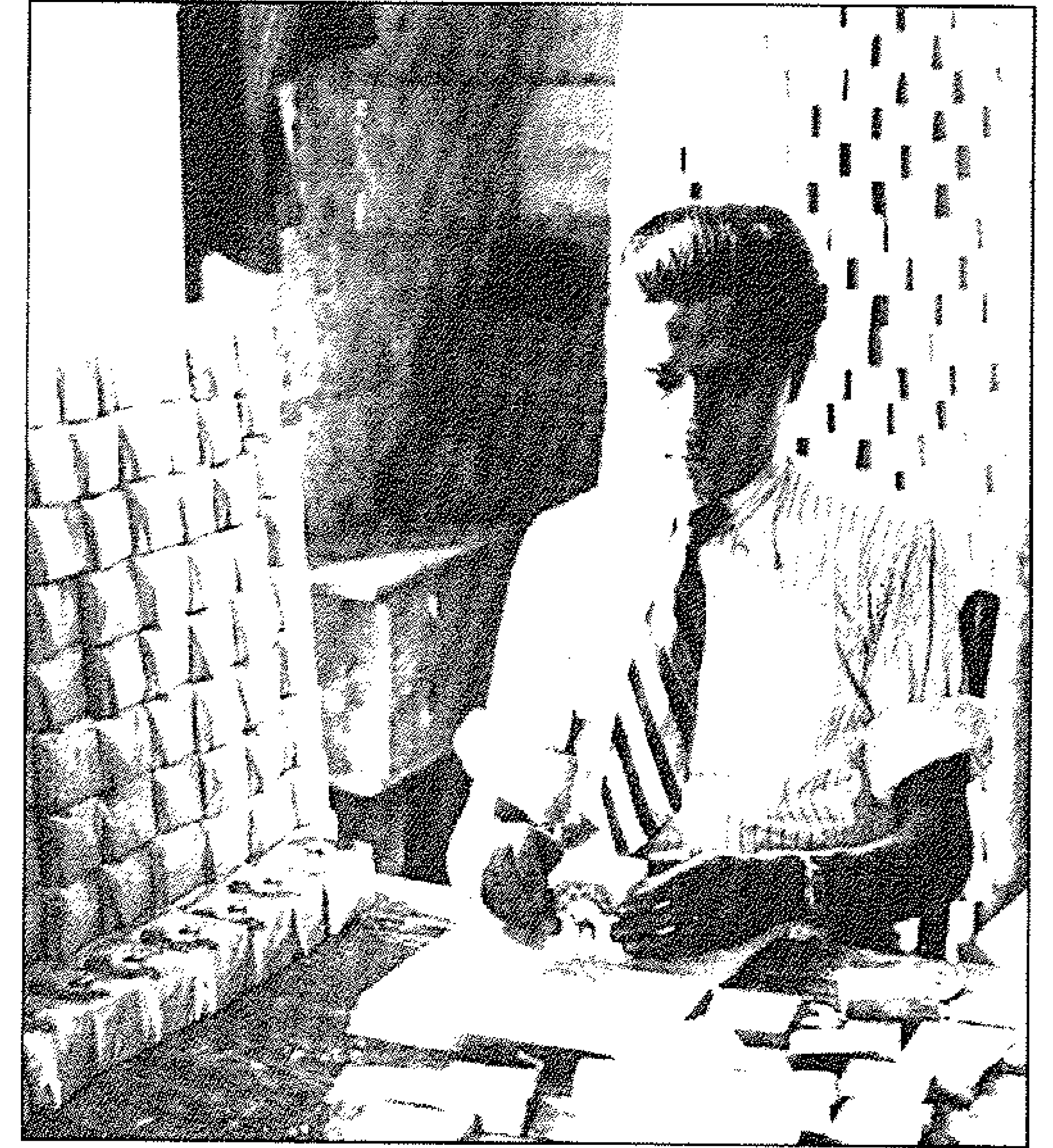
لقد كان لنابلس الفضل في انتشار هذه الصناعة على أيدي الصليبيين إلى دول أوروبا وخاصة فرنسا التي أسست مصانع الصابون من زيت الزيتون في مرسيليا، إلا أن هذه المصانع لم تتمكن من تحقيق الجودة العالية التي يمتاز بها الصابون النابلسي برغم تحضيرها إياه تقريباً بنفس الطريقة، ومن ثم انتشرت هذه الصناعة في انجلترا في القرن الرابع عشر الميلادي.

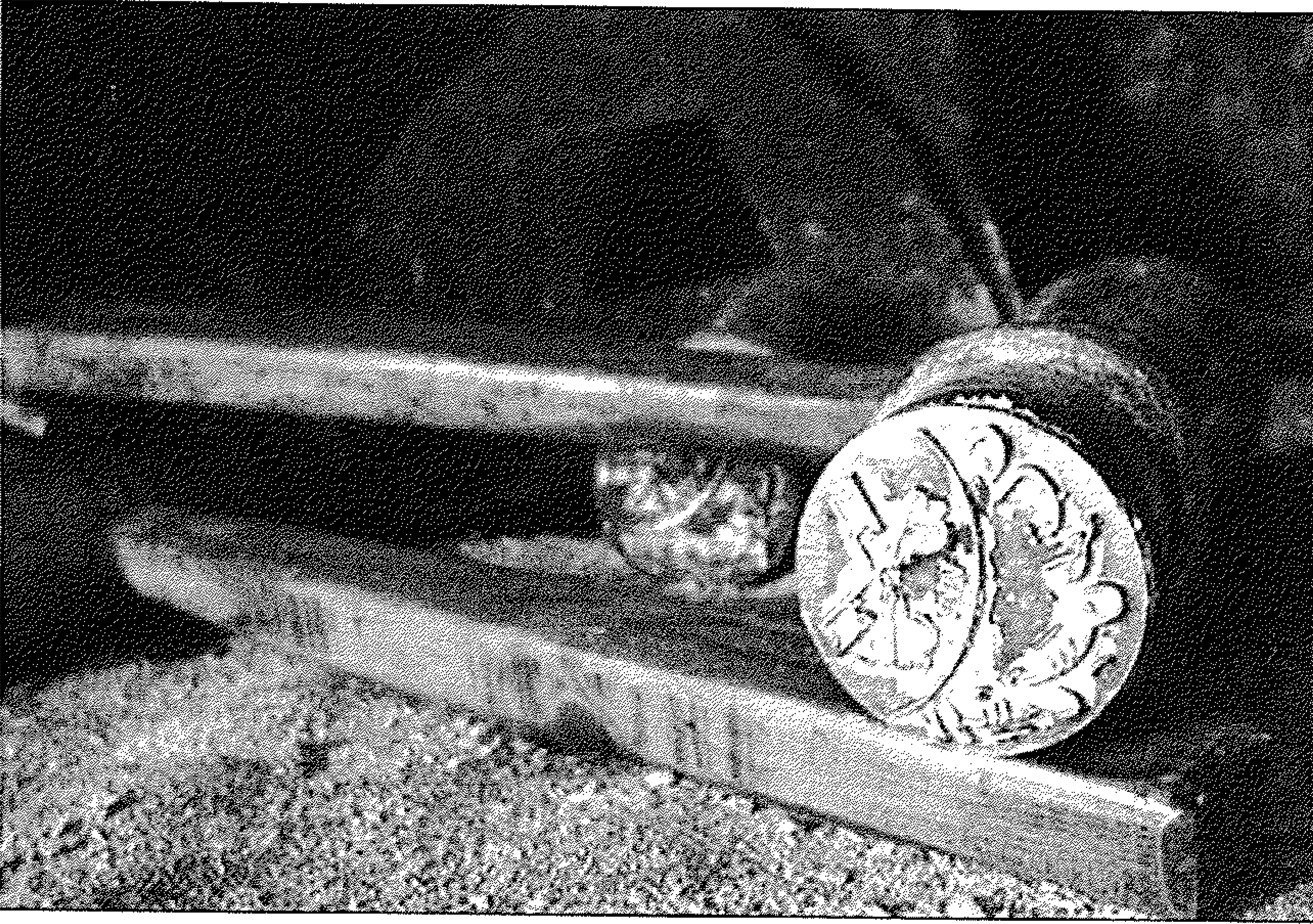
المصبنة قديماً

حسب المصادر التاريخية فإن المصبنة النموذجية في نابلس كانت تتألف من ثلاثة أقسام رئيسة، القسم الأول يشتمل على الآبار، وفيها يخزن الزيت، وقد تراوح عدد الآبار من ثلاث آبار إلى سبع، واختلفت سعة كل منها من خمسة أطنان إلى ثلاثين طناً أو أكثر، والبئر الكبرى كانت تسمى «البحرة» بينما كانت الصغرى تسمى «الجانبي» وتلفظ «الجنيب»، أما القسم الثاني فيحتل كل الطبقة الأرضية ذات السقف العالي، والذي صمم لامتصاص الحرارة المنبعثة من عملية الطبخ، وفي مؤخرة الطبقة الأرضية وعلى جانبيها كانت تقوم مستودعات المواد الأولية الأخرى: القلو والشيد وخزان ماء، وكان القميم يقع تحت مستوى الطبقة الأرضية، ويتم الوصول إليه عبر بضع درجات، وفوق القميم كانت القدور النحاسية التي تزن نحو طن، وفي جوار القميم كانت بئر الزيت الجنيب، التي كانت تتسع للكمية نفسها من زيت الزيتون التي يستوعبها القدر، وقد صمم موقع هذه البئر بحيث يوفر الوقت في عملية الكيل حفاظاً على الطاقة، فعندما تنتهي الطبخة الأولى تكون الثانية أصبحت دافئة للشروع فيها، والقسم الثالث من المصبنة كان يسمى «المفرض» وكان يحتل الطبقة الثانية كلها، وهناك كان الصابون ينشر ويقطع ويجفف ويجهز.



قطعة صابون نابلسي





مراحل الإنتاج

كان إنتاج الصابون يجري على مراحل، تستغرق كل منها وقتا أطول من سابقتها، وكانت المرحلة الأولى تتضمن إعداد مزيج القلو الشيد، فيوضع القلو في جرن حجري ويدق بمهباج خشبي حتى يصبح مسحوقاً ناعماً، وفي هذه الأثناء يفرش الشيد في حوض قليل العمق، وينقع في الماء حتى يتخثر ويجف، ثم يدحى ويطحن طحناً ناعماً، ثم يخلط المسحوقان ويوضعان في صف من أحواض التخمير تضم من ثلاثة إلى ستة أحواض مرتفعة عن الأرضية، وكان كل حوض يبلغ نحو متر طولاً، وسبعين سنتمتراً عرضاً، وعشرين سنتمتراً عمقاً ثم يصب عليه الماء الساخن من مبزل يقع في أسفل القدر النحاسية، لأن الزيت يبقى في الأعلى، وعندما يمتص المحتوى الكيماوي المزيج، يجري تقطيره قطرة قطرة في مجموعة مماثلة من الأحواض أدنى من نظائرها وأعمق منها.

وكانت هذه العملية تتكرر حتى يصل المحتوى الكيماوي للماء إلى درجة معينة من القوة ثم يضاف هذا الماء إلى القدور النحاسية كي يمتص الزيت المواد الكيماوية وتنتهي الدورة، وكانت هذه الدورة تتكرر عشرات المرات (متوسطها أربعون مرة) بينما يحرك سائل الصابون الساخن في القدر باستمرار بواسطة الدكشاب (وهو قطعة خشبية شبيهة بالمجداف).

تحديات

وكأنه لم يكن لهذه الصناعة التراثية المنافسة الشديدة من المنتجات الأخرى، فقد دأبت قوات الاحتلال الإسرائيلي على تدمير هذا المنتج وأماكن صناعته، فأتت على العديد من المصانع وهدمت الكثير من المصابن الأثرية علها تقضي على الشريان الرئيسي لاقتصاد هذه المدينة، والذي يعد رمزاً حضارياً يشد العالم إليها، فقد دمرت قوات الاحتلال ثلاث مصابن خلال عملية السور الواقي وهي مصابن كنعان والنابلسي والرنتيسي، كما فرضت في تلك الفترة أبريل ٢٠٠٢ حظر التجوال على المواطنين لمدة تزيد عن ٩٠ يوماً مما أثر سلباً على مختلف الصناعات في المدينة.

إلا أنه ورغم كل هذه الإجراءات بقي الصابون النابلسي محافظاً على مكانته إلى يومنا هذا، حيث يعد أفضل الهدايا التي ينتظرها الكثير في الخارج، وما زال الصابون النابلسي وفق المعلومات المتوفرة لدى الغرفة التجارية الفلسطينية يحتل أعلى نسبة صادرات للخارج حيث بلغت في عام ٢٠٠١م حوالي ٤١٪ إلا أن هذه النسبة تقلصت في العام ٢٠٠٢ إلى ٣٦٪ نتيجة تدمير قوات الاحتلال الإسرائيلي لعدد من مصانع الصابون التاريخية في المدينة كمحاولة منها لضرب الاقتصاد الفلسطيني. ورغم كل تلك المحاولات والتحديات، يبقى الصابون النابلسي تراثاً محبباً.. برائحة زيت الزيتون. ■

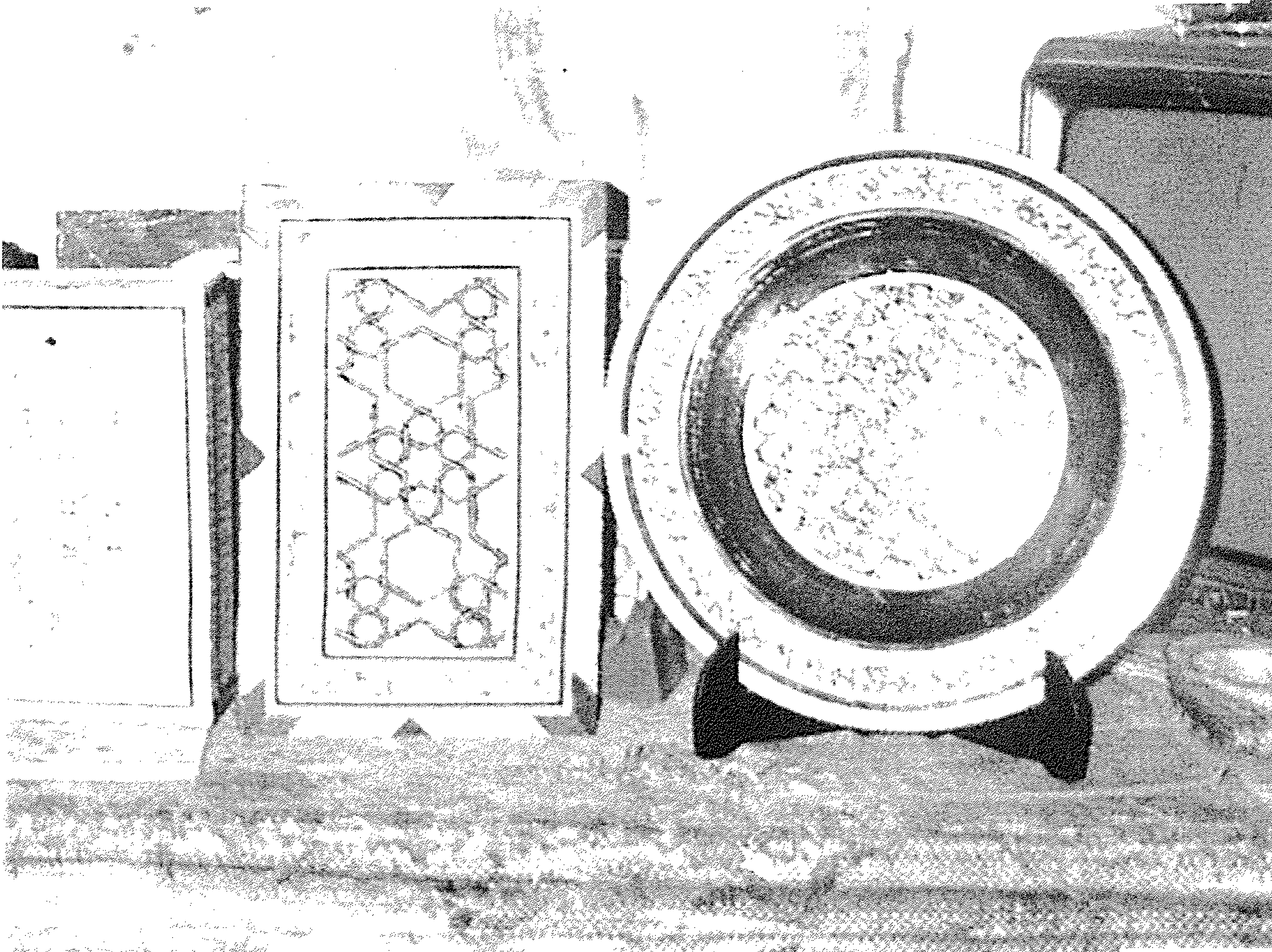
التطعيم بالصدف.. تراث عريق فن دقيق.. وذوق رفيع

■ د. سماح أحمد فريد*

رافقت الحرف التراثية الإنسان منذ آلاف السنين واندمجت في حياته اليومية، بل وتكيّفت مع متغيرات العصر في صور وأشكال جديدة، وأصبح هناك علاقة انسجام بين الإنسان وتذوقه للجمال وبين الطبيعة والبيئة التي يعيش فيها.

وساهم التغير الاجتماعي الحادث في المجتمع المصري في الفترة الأخيرة في تبلور نظام محدد من الإنتاج الحرفي التراثي، صحيح أنه قد تعرض، وما زال، حتى الآن لذبذبات عديدة تهدد بعض أشكاله بالانقراض أو بالتدهور، إلا أنه يتمتع بقدر معقول من الاستقرار في ملامحه العامة. وفي هذا البحث نقوم بعرض الخصائص العامة لهذا التكوين الحرفي، بهدف التحليل المتعمق لما سوف تكشف عنه الدراسة الميدانية من ملامح التغير التي طرأت على هذا النشاط، وأبعاد هذا التغيّر في العصر المعاصر.

* المدرسة المساعدة بقسم الاجتماع - كلية التربية - جامعة عين شمس





نماذج من مشغولات
التطعيم بالصدف



الصدفة الخام قبل تقطيعها

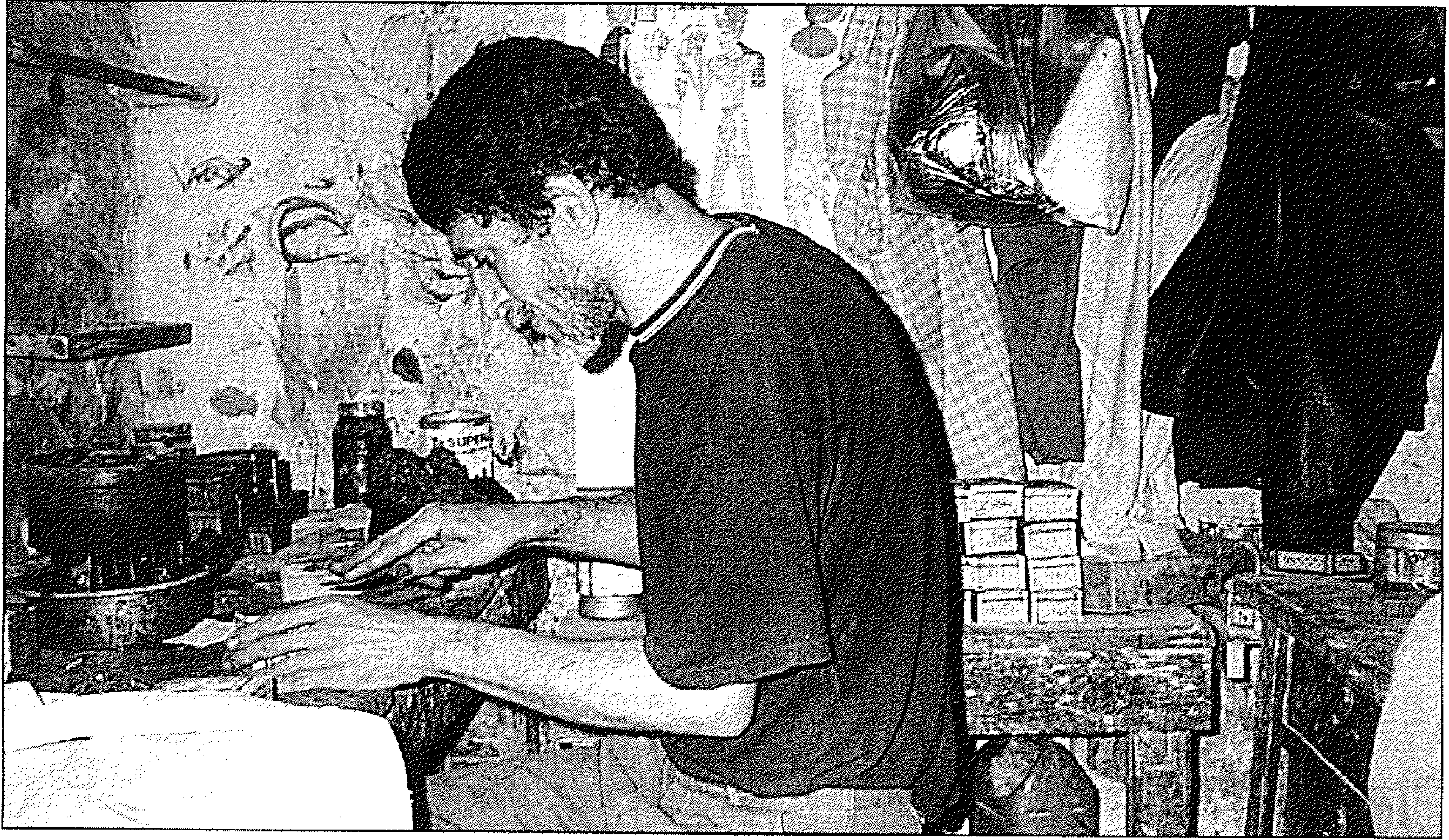
يعدُّ تطعيم الخشب بالصدف أحد الفنون التراثية التي تمارس داخل بعض الورش الصغيرة، ويعمل بها عدد محدود من العاملين لقلة عدد مراحل العملية الإنتاجية. وهو عبارة عن تثبيت مواد منتقاة في مكان يتمّ حفره في سطح الخشب بهدف تجميله بزخارف معيّنة. ومن أهم المواد المستخدمة في التطعيم: الصدف، والعاج، والعظام بأنواعها، والأخشاب والمعادن الثمينة كالأبنوس والخشب الأحمر والنحاس والفضة والذهب، ويتم وضع مثل هذه المواد داخل الحفر الغائر بالخشب المراد تطعيمه مع تهذيبه حتى يظهر شكل المنتج الفني بشكله البديع.

ذكاء وفطنة

ويعدُّ التطعيم من الحرف التي تحتاج من صانعيها قدراً كبيراً من الذكاء والفطنة، والقدرة على إطلاق العنان للخيال كي يصل إلى التصميم المقصود. وإجمالاً يمكن القول بأن التطعيم هو عملية وضع الصدف أو العاج أو المعادن المختلفة داخل حفر الخشب المراد تطعيمه، مع عمل المعالجات اللازمة حتى يظهر المنتج بشكله البديع الآسر. وقد عرف العالم القديم أسلوباً آخر لهذه الحرفة وهو التجميع أو الترصيع، والذي كان يحتاج إلى عناية وجهد كبيرين، حيث يتم ترصيع مربعات صغيرة من العظم والعاج أو الصدف جنباً إلى جنب في أشكال هندسية مختلفة، ثم يتم لصقها على أرضية خشبية تحتضن التصميم المقصود. وغالباً ما يقوم (الصدفجية) أولاً بخرط المنتجات الخشبية إلى قطع مختلفة الأحجام والأشكال منفصلة أو متصلة في عمود، ثم يتم تجميع هذه القطع في قوالب دون مواد لاصقة وذلك من خلال تعشيقها في بعضها لإعطاء الشكل المطلوب كالمشربيات أو الخلفيات الزخرفية أو علب المجوهرات وغيرها. وجدير بالذكر أن هذه المخروطات تتفاوت في قيمتها تفاوتاً كبيراً تبعاً لحجم الخشب المخروط، فكلما كانت القطعة صغيرة ودقيقة اكتسبت قيمة فنية أكبر، كذلك تتفاوت قيمة المشغولة الفنية باختلاف أنواع الخشب المستخدم وذلك للتنوع الهائل في أشكاله وأنواعه وألوانه، وهو ما يساعد على إبداع عدة تكوينات ذات تنويعات لونية تولّد نغماً بصرياً جذاباً(1).

تاريخ حرفة التطعيم

عرف المجتمع المصري في العصر الفرعوني ألواناً متعددة من إنجازات وصيغ الحرف التقليدية والفنون الشعبية. وقد وصلت إلى القاهرة بواكير من خرط الخشب متمثلة في كرسي توت عنخ أمون، والذي ظهرت فيه الحلقات المخروطة بالقوائم وصناديق حفظ



أحد العمال وهو يجلس على التركة للصق الصدف بالغراء

الملابس المطعمة بالصدف والعاج، وقد لعب التوسع التجاري لمصر الفرعونية، وازدهار الأنشطة التجارية بها إلى ازدهار الحرف والفنون التقليدية، كما لعبت الاحتفالات الفرعونية دوراً لا يستهان به في اهتمام الحكام الفرعونيين بالصناع المهرة في تشييد المساكن والأماكن المخصصة لإقامة هذه الاحتفالات، وتذكر النصوص القديمة العديد من الأدعية الدينية التي قام الصناع بحفرها ونقشها على مختلف المساكن، كما تشير البرديات القديمة إلى مشاركة الصناع المهرة في إقامة ما يسمى بقاعة الأعياد في القصر الفرعوني وما يصاحبها من موائد وأدوات ونقوش بارزة، حيث كان من التقاليد الخاصة بالملوك الفراعنة في هذا الصدد تخصيص بهو كبير لاستقبال جمهور الرعية أثناء الاحتفال بالأعياد الدينية، أو أثناء الاحتفال بفيضان النيل[٢].

وقد كان فن التطعيم والترصيع فناً شائعاً في شرق العالم الإسلامي وغربه على السواء طوال العصور المختلفة، ثم بلغ درجة من الروعة والبهاء أيام حكم المماليك حيث استخدم في صناعة الأبواب والمناضد والصناديق والآلات الموسيقية مثل العود والكمان والطبلة. ويحتوي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة على نماذج عدة من التحف العاجية المملوكية[٣].

وقد تميزت العناصر الزخرفية في الفن الشعبي عامة بالتجريد والتحوير حتى أنها أصبحت رسوماً رمزية تظهر أوضح مميزات الأشكال فقط، وكان البعض منها يستخدم لأغراض سحرية، كما كثر رسم الهلال والدوائر على التحف الفنية والتي تعبّر عن الوقاية من الحسد، فضلاً عن ذلك فضّل الكثير من المصريين الاحتفاظ بالقطع الفنية التي نقش عليها اسم الجلالة برسوم مختلفة، وبعض الأدعية والعبارات الدينية مثل: ما شاء الله، والله خير حافظاً.. إلخ. وبصفة عامة يمكن القول إن المعتقدات الدينية والعبادات والطقوس كانت من القوة بحيث أثرت على الفنون الشعبية وارتبطت بها وأكسبتها طابعها المميز، فكان الفنان ينتج فنه ليدعم به عقيدته[٤].

ثم كان لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وإرسال الحرفيين المهرة إلى الأستانة أثر كبير في تدهور الحرفة، ومع ذلك فقد استمر (الصدفجية) في الحفاظ على الطابع المصري الإسلامي الأصيل في زخرفة العمائر. وبدخول الاستعمار الفرنسي ثم الإنجليزي انزوت حرفة التطعيم بالصدف وأصبحت محاصرة في العطفات والحواري، كما انعدم الإقبال على الطراز العربي في المعمار، وتغير الذوق المصري بشكل عام وأصبح خليطاً من أذواق كثيرة مستمدة من الثقافة الغربية والمعمار الغربي[٥].



سنفرة الصدف
الخام وتقطيعه
تمهيداً لتشكيله

دراسة ميدانية

تهدف الدراسة إلى وصف وتسجيل بعض البيانات عن تواجد ورش التطعيم بالصدف باعتبارها جزءاً من الثقافة المادية داخل منطقة الدرب الأحمر الذي يمثل مجتمع البحث، فقد راعت الباحثة ضرورة أن يكون المجتمع المحلي متوافراً به عدد من ورش التطعيم بالصدف التي تعايشت مع هذا المجتمع منذ وقت طويل بكافة خصائصه، بحيث أصبحت تحمل سمات هذا المجتمع، كذلك مراعاة البعد التاريخي لهذه الحرف، أي أن تكون له خلفية تاريخية طويلة. وقد اعتمدت الباحثة في الحصول على المعلومات من أقوال أصحاب الورش، وخاصة ما تبقى من شيوخ الحرفة وأسطواتها، كما عقدت الباحثة عدة مقابلات مع المشرفين على العملية الإنتاجية نظراً لتواجد معظم أصحاب الورش في أعمال مهنية، أو انشغالهم بالتسويق، كما عقدت الباحثة عدة مقابلات مع بعض التجار الوسطاء وبعض رواد هذه الأسواق أثناء تواجدها بمجتمع البحث.

المواد الخام المستخدمة

أ - الصدف: وهو ذلك الغطاء الخارجي الصلب الذي يفرزه الحيوان المائي، وكذلك الأصداف الجيرية لكثير من أنواع الرخويات، وينطبق هذا على الهيكل الخارجي للسرطان والقشريات الأخرى. وقد استعمل الإنسان القديم الصدف في حياته اليومية فصنع منه أوعية مختلفة للطعام والماء، ولشدة صلابته استخدمه أيضاً في تذويب الملح عن طريق دعك الملح بقطعة من حجر الديوريت الأسود أو البازلت داخل الغطاء الصدفي الأجوف[٦].

ويوجد الصدف في قاع بعض البحار والمحيطات، وكذلك في بعض أنواع القشريات والحيوانات المائية، وله عدة أنواع كالصدف المحار والأكريلك، وهو نوع من الصدف المستورد الذي يلجأ إليه كثير من الحرفيين، والصدف الياباني الذي يتسم بجودة خامته وسهولة تطعيمه من قبل الحرفيين، والصدف المحلي الذي يستخرج من النيل وشواطئ البحر الأحمر، وهو الأقل استخداماً نظراً لعدم لمعانه، ويسمى صدف (سيرديا) داخل السوق الحرفي، ويتم شراؤه بالكيلو، ويتراوح ثمنه ما بين ٨٠-١٠٠ جنيه. وهناك بعض الأنواع الأخرى كالصدف الأسترالي والسويسري والخليجي.

ب - العاج: وهو من المواد النادرة والتي ليس لها سوق داخل العمل الحرفي نظراً لعدم توفره خاصة بعدما تم منع استيراده، فمع نجاح الحملة ضد صيد الحيوانات التي يستخرج منها كالفيلة على سبيل المثال أصبح من الصعب الحصول عليه. وقد وجدت الآن في السوق الحرفي بعض الخامات الصناعية التي يتم استخدامها بدلاً من العاج الحقيقي، وينتشر التطعيم بالعاج في بعض الأنتيكات فقط حيث يقبل عليها بعض السائحين وبعض الأثرياء نظراً لارتفاع ثمنه وندرة وجوده.

الأدوات المستخدمة في عملية الإنتاج

تتعدد الأدوات والآلات المستخدمة في عملية التطعيم بالصدف والعاج فيما بين أدوات بسيطة يستخدمها العامل يدوياً، وأدوات أو آلات معقدة تُشغَّل كهربائياً أو آلياً دون استخدام اليد، وغالباً ما يستخدم الصدفجية الآن كلا النوعين من الأدوات في العملية الإنتاجية، بينما يتفاوتون فيما بينهم في عدد المراحل الإنتاجية التي تتم بواسطة كليهما. وتتمثل الأدوات والآلات المستخدمة في التطعيم بالصدف على النحو التالي:

- **المنشار الكهربائي:** وهو عبارة عن سلاح حاد طوله حوالي ٣٠ سم، ويطلق عليه الحرفيون اسم الساحقة، ويقوم بقطع المادة الخام إلى عدة أجزاء من الصدف وفقاً لحجم الفراغات الموجودة في الخشب.
- الصاروخ الكهربائي: وتتلخص وظيفته في تنعيم المادة الخام وسنفرتها، ويطلق عليه أيضاً موتور السنفرة والتنعيم.
- **المخرطة البلدي:** وهي عبارة عن لوح كبير من الخشب (قاعدة خشب) مثبت بها قاعدتان كبيرتان من الخشب مثبت بهما عمود حديدي لوضع قطعة الخشب عليها لخرطها يدوياً.
- **المخرطة الكهربائية:** وهي نفس شكل المخرطة «البلدي» ولكنْ مثبت بها موتور صغير يعمل كهربائياً وهو النمط الشائع في كافة الورش الحرفية العاملة في مجال الخرط والتطعيم، حيث اندثرت طريقة خرط الخشب بالقوس (المخرطة البلدي) لتحل محلها المخرطة الكهربائية.
- **الشنيور الكهربائي:** يستخدم الشنيور الكهربائي ببنطاته المختلفة لخرط الخشب وفقاً للمقاسات المحددة، كما أنه يستخدم في عملية تثقيب الخشب وإعداد الحفر الغائر بالعمق المطلوب لوضع التطعيم به بدلاً من المثقاب اليدوي.

– **المثقاب:** وهي آلة يدوية يستخدمها بعض الحرفيين بدلاً من الشنيور الكهربائي للحصول على ثقب يدوي دقيق.

– **أقلام صغيرة:** يستخدم (الصدفجية) بعض الأقلام الخشبية مدببة الطرف لالتقاط قطع الترصيع ولصقها فوق المشغولات الخشبية، أو داخل الحفر الغائر ببعض المنتجات الخشبية.

– **الأزميل:** الأزميل هو أداة مثبتة في المخرطة الكهربائية لتشكيل خرط الخشب ودورانه للحصول على شكل المنتج المطلوب.

– **المبارد بمقاساتها المختلفة:** والمبارد أدوات يدوية تساعد الحرفي في تشطيب المنتج، ونظراً لكونها مسننة فهي تقوم ببرد سطح الخشب، أو الصدفة الغائرة داخل الخشب، وعلى الرغم من حلول الآلة في معظم ورش الدراسة محل المبارد في إخراج الزوائد من قطعة الخشب، إلا أنه يظل هناك بعض الرتوش التي لا تقطع إلا يدوياً باستخدام المبارد بأحجامها المختلفة. كما تقوم المبارد بتنعيم المنتج أي المعالجة النهائية للمنتج وإزالة كافة الرتوش والزوائد النهائية.

– **الشاكوش أو القدُّوم:** وهو آلة يدوية يستخدمها قلّة من الحرفيين في تطعيم الخشب بالصدف وذلك بالطرق على الصدفة داخل المنطقة الغائرة بالخشب.

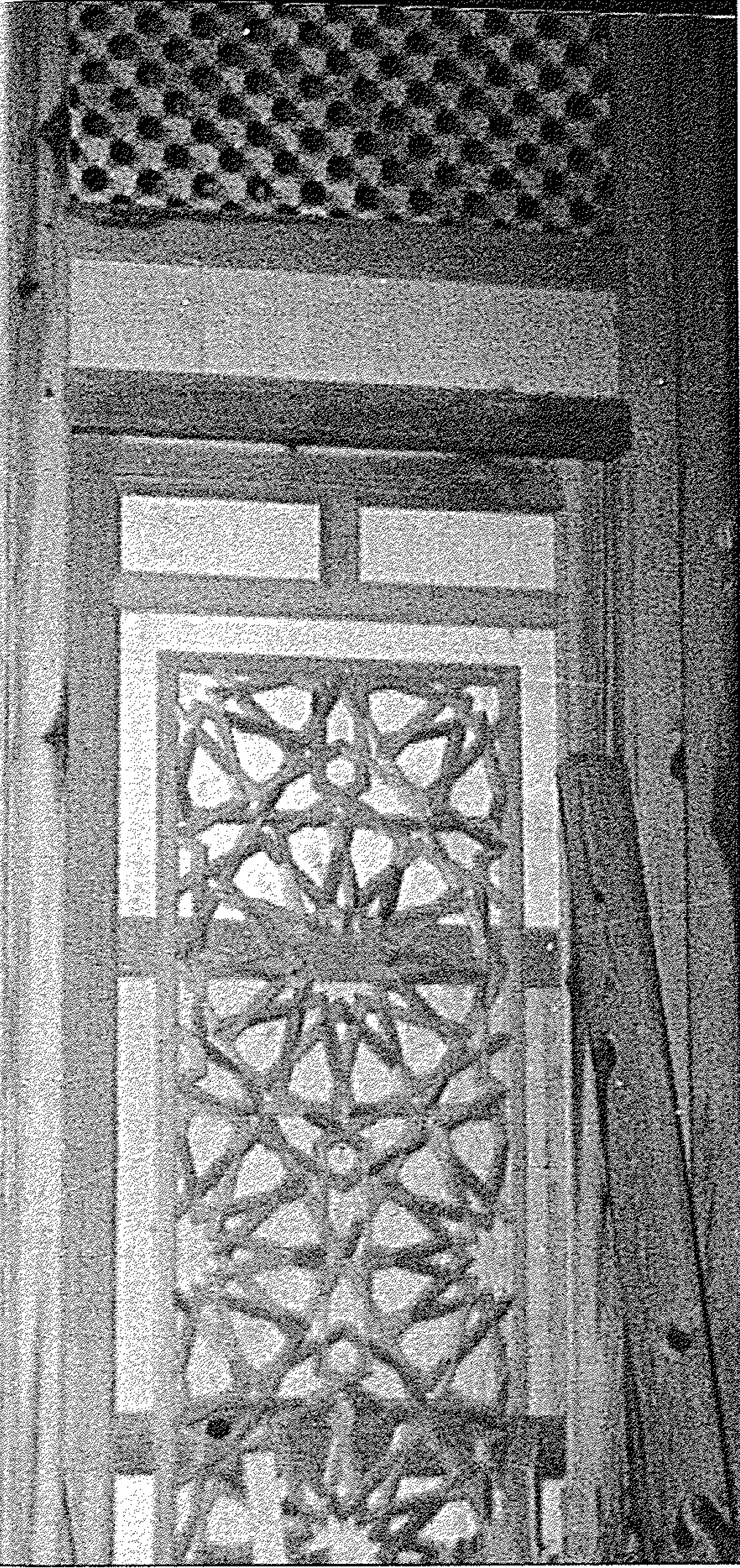
– **آلة السنفرة والتلميع:** وهي آلة كهربائية تقوم بوظيفة الشاكوش في تثبيت الصدف داخل الحفر الغائر بالخشب وتلميعه.

– **العصا والغراء:** هي مجموعة أدوات يدوية يقوم الحرفي من خلالها بالتقاط الصدفة بواسطة عصا خشبية طويلة ووضعها في فتحة تطعيمها بعد ملئها بالغراء لتثبيت الصدفة، وتعدّ هذه الطريقة من الطرق الشاقة في الوقت الراهن على الحرفيين نظراً لأنها قد تحتاج إلى وقت وجهد مما يدفع معظم الحرفيين إلى الاستعاضة عنها بطرق آلية حديثة.

– **أدوات التطعيم:** كالمطارق الصغيرة للطرق فوق الأجزاء المطعمة لتسويتها وتماسك أجزائها معاً نظراً لكونها عبارة عن مجموعة من الأسلاك الرفيعة التي تدق بجانب بعضها حتى تمتلئ المساحة المطلوب تطعيمها.

– **مقشطة صغيرة:** لتنعيم السطح بعد التطعيم لإزالة الحفر الذي يسبق التطعيم.

– **أجزاء اللحام:** تتطلب المشغولة الفنية لحام بعض أجزائها لتكوين المنتج المطلوب، ومن أهم هذه الأدوات:

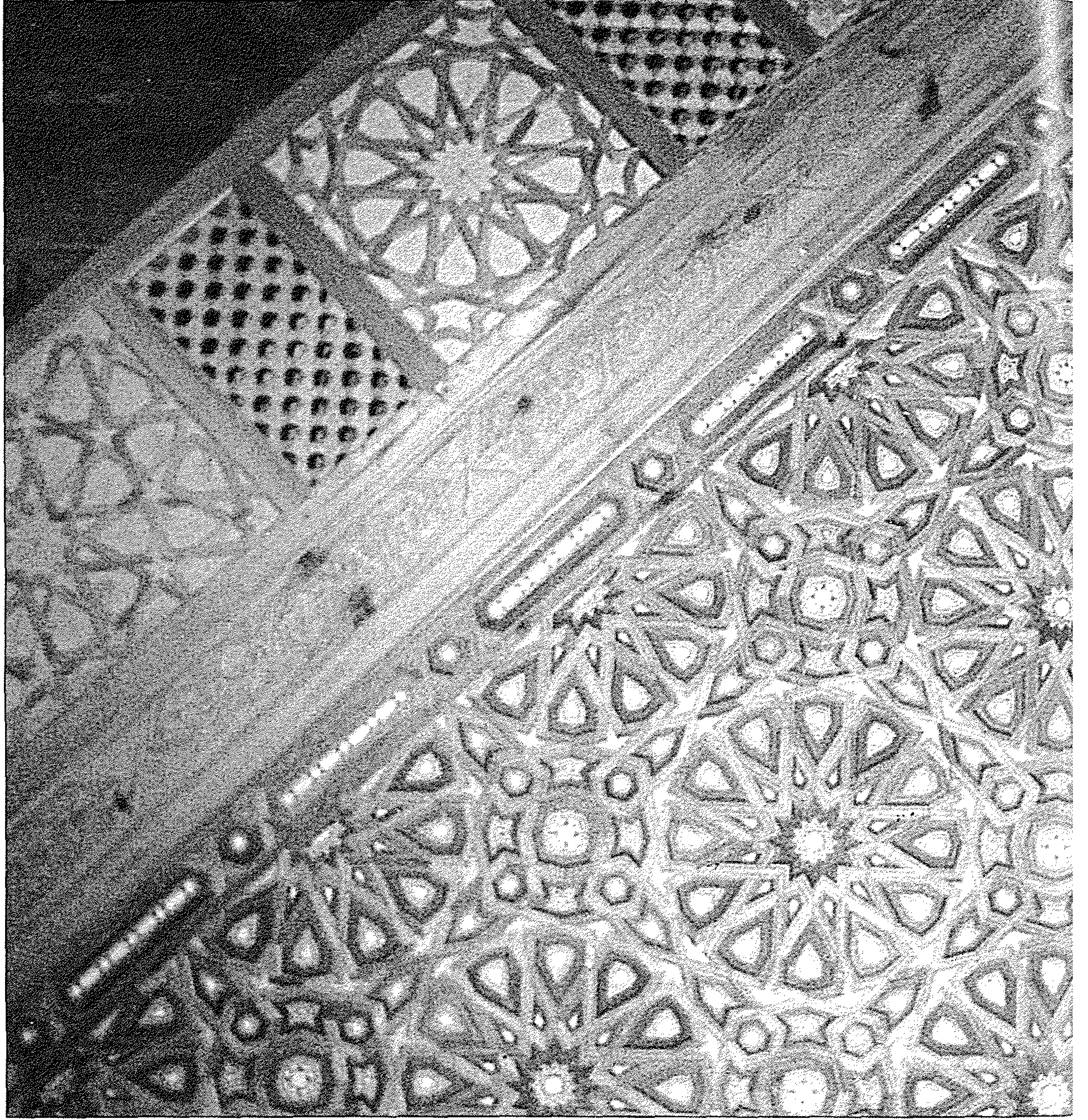


بوري لحام، مقص معدني، كاوية لحام، وجاء صغير: وهو عبارة عن إناء من الصلب تفتح به فتحة أمامية على شكل نصف دائرة ويبنى من الداخل بطوب حراري توضع فيه أدوات اللحام أثناء استخدام الحرفي لها.

مراحل العملية الإنتاجية

المرحلة الأولى: خرط الخشب وتحضير الصدف للتطعيم:

يتم تحضير الخشب الأحمر الصالح لعمل بعض

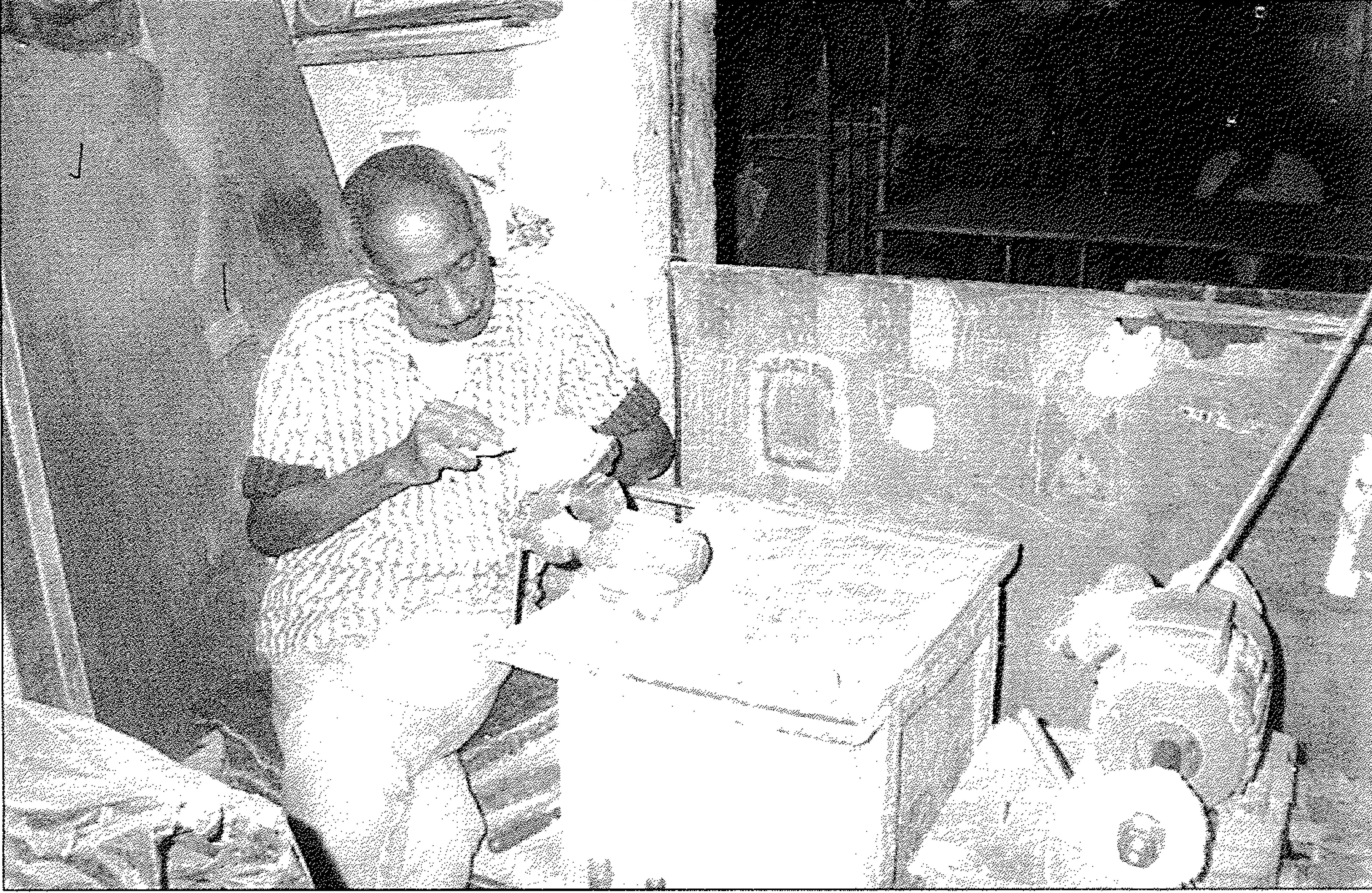


صورة مكبرة للزخارف المنفذة بالصدف على منبر مسجد

العلب والصناديق ليشق على آلة تقطيع مخصصة لهذا الغرض. كما يتم نقع الصدف في الماء لفترة زمنية قد تطول أو تقصر وفقاً لمدى صلابة الصدفة ونوعها، وذلك بغرض تليينها وتطويعها للقطع كي يسهل خرطها وتقطيعها إلى قطع صغيرة.

المرحلة الثانية: تقطيع المادة الخام وإعدادها:

بعد أن يختار الحرفي قطع الصدف بوجه عام، يبدأ تقطيع الصدفة الخام على موتور تقطيع يعمل بالكهرباء، وفي هذا الصدد أشار شيوخ الحرفة إلى أن التقطيع كان يتم قديماً بواسطة منشار يدوي، ولكن ذلك قد اندثر اليوم مع حلول الآلة التي تستغرق عملية التقطيع من خلالها وقتاً أقصر وجهداً أقل. ويقوم الصدفجي دائماً بتقطيع قطعة الصدف إلى قطع صغيرة بأشكال مختلفة كالشكل السداسي أو الثماني أو الرباعي وغيرها وفقاً لنوعية المنتج المطلوب منه، ويسمّي الصدفجية هذه الماكينة السِّراق وجمعها (السراريق) أي المنشار الصغير للتقطيع، مع عمل



عامل يقوم بتنظيف المشغولة المطعمة بالصدف والعاج بواسطة مكشطة صغيرة

شرائط دقيقة جداً بأبعاد مختلفة.

المرحلة الثالثة: التحليق على الخشب ورسم شكل الترصيع:

ينتقل الصدفجي بعد ذلك إلى تطعيم الإطار الخارجي للقطعة الخشبية وتسمّى هذه المرحلة في الواقع الميداني (التحليق على الخشب) بواسطة عيدان أو أعمدة طويلة من الصدف. وتمرّ عملية زخرفة الخام بعدة مراحل تبدأ بتحضير مادة الطبخ (مونة الطبخ) كما يسميها الحرفيون، والتي تحلق حول الخشب وتسمّى هذه المرحلة (تحليق برواز) حول القطعة الخشبية المراد ترصيعها، وهناك عدة أنواع من الطبخ، كعمل الطبخ على هيئة مربع أو على شكل لسان، وهناك طبخ آخر مخصص للتحليق على العلبة الصدفية من الخارج، وتوجد ظاهرة شائعة بين الصدفجية وهي ظاهرة (الطبخ) في الخامات أثناء وضع الصدف، فهناك بعض الطلبيات التي يتم فيها استخدام عدة معادن مع بعضها في تطعيم الخشب، وهناك من يطلب استخدام عدة أنواع من الصدف كالصدف المحلي والياباني على سبيل المثال، ولا شك أن عملية الطبخ تزيد من سعر المنتج نظراً لتنوع الخامات داخل المنتج الواحد. ثم يتم سنفرة هذا الطبخ على ماكينة خاصة لإزالة الزوائد. يلي ذلك اختيار الرسم المراد نقشه على لوح الخشب، ويعدّ الحرفي هذا الرسم من قبل على ورق وفقاً لعدد قطع الخشب، أي عمل تصميم مبدئي لكيفية التطعيم، وذلك من خلال أخذ المقاسات من القطعة الخشبية المراد تطعيمها.

المرحلة الرابعة: عمل رسم مبدئي وتثقيب المنتج:

ثم تأتي مرحلة تثقيب المنتج إلى عدة ثقوب وفقاً للرسم والنقش بواسطة آلة المثقاب أو (المنقار) كما يطلق عليها في العمل الحرفي، ويستخدم هنا الحرفي منشاراً كهربائياً لتفريغ النقش إلى عدة مساحات داخلية حتى تصبح المشغولة مفرغة وفقاً لمجموعة النقوش والطرز الجمالية التي تمّ رسمها مسبقاً.

المرحلة الخامسة: بصم الرسم

ينتقل الحرفي بعد ذلك إلى مرحلة أخرى وهي لصق الرسم المنقوش فوق قطعة الخام بواسطة الغراء، وتتطلب هذه المرحلة مهارة خاصة حيث يختار الحرفي قطعة الصدف المناسبة لحجم الفراغ الموجود في الخشب، ووفقاً لنوعية التصميم وأنواع الألوان

المستخدمة فيها. وتحتاج هذه العملية إلى وقت وصبر طويلين. وبعد انتهاء عملية لصق جميع الصدف تملأ الفراغات الموجودة بين قطعة الصدف والحفرة الخشبية بمادة صمغية من لون الخشب. كما يتم استخدام منشار أركيت أو موتور تخريم كهربائي لتفريغ الشكل المطلوب لوضع الصدفة به ثم سنفرتها وتلميعها لإزالة الأجزاء المتبقية من ورقة الرسم، وذلك تمهيداً لتوقيع النقش على المشغولة. كما يستخدم الحرفي هنا مكشطة يدوية وهي آلة يدوية تشبه السكين وذلك لتسوية الفراغات وإكسابها انحناءة طبيعية ثم غسلها وتنظيفها بماء أكسجين لإكسابها بياضاً ولمعاناً.

المرحلة السادسة: دهان المنتج وتلميعه (تشطيب المنتج)

بعد ذلك يقوم الحرفيون بإزالة الزوائد من المنتج النهائي من خلال موتور الصنفرة باستخدام الصاروخ الكهربائي الذي حلّ محلّ المبارد القديمة، كما يتم دهان بعض المنتجات الخشبية بعد انتهاء عملية التطعيم وفقاً لمواصفات الطلبية أو (الطريحة)، كما يتم تركيب مفصلات أو كوالين أو مفاتيح لعلب المجوهرات وصناديق حفظ الملابس، كذلك تركيب قطيفة أو مرايا أو براويز داخل العلب، كل ذلك يتم تنفيذه وفقاً لطلب التاجر أو الطلبية المرجو تنفيذها تمهيداً لتصديرها أو بيعها لأحد المحال التجارية.

طرز التطعيم بالصدف والجوانب الجمالية والعقائدية المرتبطة به

- **الطرز الكتابية:** تعتمد بعض طرز أشكال التطعيم بالصدف على كتابة بعض الحروف والكلمات العربية وبعض الآيات القرآنية، وقد تتضافر هذه الأشكال مع بعضها البعض في المشغولة الواحدة في أشكال جميلة، ويعتمد هنا الصدفجية بشكل أساسي على الرسم المبدئي لهذا النوع من الطرز على ورق شفاف أولاً وذلك لتخيّل ما سوف يكون عليه الشكل النهائي بعد تنفيذه.

- **الطرز الهندسية:** ويتم استخدام هذا النوع من طرز التطعيم في تنفيذ بعض الصناديق وطاولات الشطرنج والشكمجيات (صناديق المجوهرات)، وأواني العطور وعلب المصاحف والصواني، ويعتمد هذا الصدفجي على تصميم الأشكال السداسية أو الرباعية أو الثمانية أو الدائرية، وقد تتداخل هذه الأشكال مع بعضها في المنتج الواحد بشكل هندسي متناسق.

- **الطرز النباتية:** يتم تطعيم الخشب بأشكال من الصدف على هيئة فروع نباتية وأوراق وورود وغيرها من الأشكال النباتية، وهي أشكال مستمدة من البيئة العربية.

- **الطرز الفارسية:** اقتبس بعض الحرفيين بعض الطرز الفارسية أثناء التطعيم بالصدف كتشكيل أشكال زخرفية على هيئة صور إنسانية أو طيور أو أشكال بعض الحيوانات وغيرها من الصور الحيوانية والآدمية.

- **الطرز الفرعونية:** يتطلب السوق الحفري المصري تصميم بعض أشكال التطعيم على هيئة حروف وأشكال فرعونية وبعض الموضوعات المقتبسة من الحضارة المصرية القديمة، وتشيع هذه الطرز في أماكن تجمع السائحين كحي خان الخليلي والقرى السياحية بمصر كشرم الشيخ والغردقة.

- **طرز أخرى:** ساد في الفترة الأخيرة انتشار بعض طرز التطعيم بالصدف المستمدة من البيئة الهندية والمغربية وذلك بهدف الابتكار والتميز والتنويع في أشكال التطعيم جذباً للمستهلك. ■

المراجع:

١) جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة، موسوعة الحرف التقليدية بالقاهرة التاريخية، الجزء الأول، القاهرة: جمعية أصالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص١٤.

٢) أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، محمد شكري، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م، ص٢١-٢٦.

٣) سعد الخادم: الصناعات الشعبية في مصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٦م، ص١٠٢.

٤) محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص١٦٢-١٦٦.

٥) أمين مصطفى عفيفي: تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠م، ص٢٤٠-٢٤٩.

٦) جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة، موسوعة الحرف التقليدية بالقاهرة القديمة، مرجع سابق، ص٤٢.

زرع سكان الجزيرة العربية أشجار الغابات والفاكهة وخاصة أشجار النخيل قبل الألف الخامس قبل الميلاد، بعد أن عرفوا الاستفادة منها في مسكنهم ومأكلهم ومشربهم وغير ذلك من الفوائد في حياتهم اليومية، ثم تفنّنوا بهندسة بساتينهم وأسلوب زراعة الأشجار وكيفية الاستفادة من المسافات البينيّة لأشجار النخيل لزراعة باقي النباتات، متمثلين في ذلك نظام الزراعة التي اكتسبوها من الآباء والأجداد عند زراعتهم للواحات الصحراوية التي كانوا قد عاشوا فيها بالجزيرة العربية قبل موجات الجفاف والتصحّر التي اجتاحتها خلال العصور الغابرة، وهذا يمكن اعتباره أوائل مراحل ظهور زراعة البساتين في التاريخ[1].

تميزت بتنسيقها وهندستها

الجمال والبهاء.. في حدائق الخلفاء

■ د. عماد محمد ذياب الحفيّظ *

وبذلك يمكن القول أيضاً: إن هذه المرحلة تمثل بدايات مراحل زراعة الحدائق والمتنزهات في شمال الجزيرة العربية، وخير مثال عن براعة أهل الرافدين في إنشاء حدائقهم وهندستها هو الجنائن المعلّقة فاستخدموا أشجار الفاكهة والأزهار والرياحين وغيرها في زراعتها[2].

وهنا لا أتفق مع هذا القول عن بناء الجنائن المعلّقة بأنها بنيت خلال حكم نبوخذ نصّر في القرن الخامس قبل الميلاد، فضلاً عن دور فراعنة مصر في زراعة الحدائق.

من الجدير بالذكر أن نقول إن فترة ظهور الحدائق في منطقتنا لا تعود إلى فترة بناء الجنائن بل هي خلاصة للكثير من الخبرات المتراكمة لدى إنسان المنطقة وعلى مدى آلاف السنين، إذاً، يمكن القول إنه كانت لديهم الكثير من الخبرات في هذه المجالات حتى جاء زمن نبوخذ نصّر ليشاهدها ثم ليقرر إقامة الجنائن المعلّقة، خاصة وأن هناك إشارات كثيرة عن سقوط الأغصان من الطوابق العلوية في الرقم الطينية السومرية والأكدية، إلا أن الزمن والحروب قضت على معظم هذه الروائع الزراعية ولم يتبقَ منها الأثر الكافي كي نتمكن من إثبات هذه الحقيقة سوى هذه الإشارات في الرقم الطينية، وعلى الرغم من ذلك فهي نظرية لها نسبة كبيرة من القبول، وإلا فكيف تمكّنوا من أقلمة جميع هذه النباتات ثم زراعتها وفق مفاهيم علمية في غاية الروعة الهندسية والفنية، وبأساليب ما زال الكثير منها يحتاج إلى التنقيب والبحث لكشف أسرارها.

---

* عضو اتحاد المؤرخين العرب



وبعد نزول القرآن الكريم وما عكسه من أهمية الحدائق والجنائن، في مثل قوله سبحانه وتعالى عزّ وجلّ: ﴿فأنبتنا فيها حبّاً* وعنباً وقضباً* وزيتوناً ونخلاً* وحدائق غُلباً﴾[٣] وغير ذلك من الآيات الكريمة [٤، ٥، ٦]. بالإضافة إلى اهتمام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وصحبه بالحدائق والرياحين، كما جاء في الحديث الشريف: «إذا أعطي أحدكم الريحان فلا يردّه». وقول الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحاري أيام الربيع، فينظروا آثار رحمة الله، كيف يحيي الأرض بعد موتها». وقول الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «شمّوا النرجس ولو في العام مرّة»[٧].

فقد ازداد اهتمام المسلمين بالحدائق والمتنزهات بشكل عام، فأنشأوا الحدائق والمتنزهات في العديد من مدنهم فاقترن مثلاً اسم بغداد أو بعض مناطقها لجمالها وسكون النفس فيها لحسن مناظرها باسم مدينة السلام. إلا أنني وجدت البعض من المستشرقين والشعوبيين ينسبون الحدائق، بل وحتى ما قيل فيها من جميل الشعر إلى أفراد ومجموعات من غير العرب. لذلك كتبت دراستي هذه عن حدائق ومتنزهات الحضارة العربية الإسلامية، وفضل العرب والمسلمين على الغرب والعالم في إنشاء الحدائق وهندستها وزراعة وتربية وتحسين الورود والرياحين فيها. وذلك بما توفر من مصادر وما تيسّر لديّ من معلومات.

نشأة الحدائق وتطورها عند الخلفاء

اشتهرت قصور الخلفاء العباسيين بجمال جنائنها وحدائقها خلال عصر الخلافة العباسية والتي استمرت أكثر من خمسة قرون، حيث كان أهلها ينعمون بحياة الرقي والحضارة في ذلك الزمان، فكانوا يلحقون في قصر من قصورهم متنزهات غنّاء يسمّونها البستان أو البساتين إذا تعددت، وإذا صغر المتنزه يسمّونه حديقة، وفي كل بيت من بيوتهم حديقة تضم أهم الأشجار والرياحين والزهور.

وبعد تطور واتساع مساحة الأراضي المزروعة في قصورهم وما حولها، حيث كانت تقع تلك القصور في مواقع تعتبر من أخصب أراضي الدولة العباسية[٨]. فمدّت الترع وحفرت الجداول والأنهار وغرست على طولها العديد من أصناف المزروعات والأشجار ليتمكّنوا من سقايتها[٩].

كما وأنشأ خلفاء الدولة العباسية حدائقهم ومتنزهاتهم بحس مرهف، فكان لهم فيها ذوق خاص وعنايتهم بهندستها وزراعة نباتاتها تدعو للإعجاب. فقد ذكر الطبري متنزهات أبي جعفر المنصور ببغداد في حوادث سنة ١٩٢ - ٢٥١ هجرية، ومتنزه موسى الهادي ببغداد في حوادث سنة ٢٦٨ هجرية.

كانت معظم الحدائق والبساتين في بغداد تسقى من النهر الرئيس (دجلة) عن طريق نهر الرفيل (سمّي بعد ذلك باسم نهر عيسى نسبة إلى عيسى عمّ الخليفة المنصور)، وأعتقد أن من بقايا هذا النهر الآن هو نهر (أبو غريب) والذي يقع في غربي بغداد، وهناك نهر آخر يجري شمال نهر الرفيل يعرف باسم نهر العراة، ولعلّ من بقاياه الآن هو نهر الخر وسمّي لاحقاً باسم نهر الخير والذي تمّ طمره ولأسباب واهية عام ٢٠٠٢ ميلادية على الرغم من وجود البساتين العامرة على ضفافه. وقد كان نهرا الرفيل والعراة يجريان إلى الشرق عند جانب الكرخ وينتهيان إلى نهر دجلة في جنوب بغداد حين ذلك[١٠]. فيصف الشاعر عبد الصمد بن المعذل[١١] تلك الحدائق أيام الدولة العباسية فيقول:

حدائقٌ ملتفّة الجنان
رست بشاطي ترع ريّان
تمتاز بالإعجاز للأذقان
لا ترهب المحل من الزمان
إن هي بدت زينته المردان
لاحت بكافور على أهان

وكان الخلفاء العباسيون يُنشِئون حدائقهم وجنانهم الأرضية حول قصورهم المبنية عند مصب الأنهار ليتمكنوا من سقاية هذه الجنائن، والغريب في الأمر أن كل من حكم العراق كان يفضل أن يكون له قصور وحدائق على ضفاف الأنهار، فقد أنشأ المنصور قصر الخلد قرب دير الخلد، فأصبحت له الحدائق المشهورة عند مصب نهر العراة في جانب الكرخ (في موقع يعرف اليوم باسم كرّادة مريم، وقد تم ضم هذه المنطقة بالكامل إلى محيط القصر الرئاسي للجمهورية العراقية عام ١٩٧١م لتستغل في بناء مرافق ملحقة بالقصر، وحدائق ونقاط حراسة وبوابات.

حوار الأديان

كما أنشأ الخليفة الأمين بن هارون الرشيد في ذات

المنطقة قصره بجوار دير (الرند وند)، وأنشأ معزّ الدولة قصره (دار المعزّين) بجوار دير (درمالس) الواقع عند مصب أحد فروع نهر النهروان (شرقي بغداد) في موضع يعرف باسم الصليخ حالياً[11]، علماً أن هذه المنطقة كانت تعرف أيام الدولة العباسية في ذلك الوقت باسم الشماسية، وكان فيها دير يعرف أيضاً باسم دير الشماسية في قضاء الأعظمية، وقد استخدمت هذه التسمية في العديد من المجالات مثل حي الشماسية، ومدرسة الشماسية وغير ذلك من الاستخدامات في التسمية من قبل دوائر الدولة وأهالي بغداد بوقتنا الحاضر، وهنا ملاحظة يجب الإشارة إليها وهي إقامة قصور الخلفاء حيث الأديرة، وكذلك استخدامهم لمسمّيات تعتبر من المسميات الكنسية، ولم أتمكن من التحقق من الأسباب! فهل كان تعايش الأديان خلال الدولة العباسية بمستوى حقق الأمن والأمان والحياة الكريمة لكل أصحاب الديانات السماوية في ظل حكم العباسيين على الرغم من كونهم مسلمين وهم حكام البلاد، فلو تأكد ذلك فإنه يدلّ على أن المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الديانات السماوية كانوا قد استوعبوا في تلك المرحلة ما يمكن تسميته بحوار الديانات.

كما ذكر اليعقوبي أنه كانت على الجانب البعيد من نهر كرخايا واعتباراً من براثا على الضفة اليمنى حتى قنطرة الروميين حدائق متصلة تنتهي عند دار (كعبوبة) وهو رجل من أهل البصرة يلقب بالبستانيان، وتقع داره قبالة القنطرة، وقد اشتهر كعبوبة بحسن غرسه للنخيل في حدائق وبساتين بغداد، فكان يأتي بفسائل النخيل من البصرة إلى بغداد فيغرسها فيها فتتعود فيها على الطقس وتنتج أنواع التمور وأجودها[12]، علماً أن نهر كرخايا مطمور حالياً ولا يوجد له أثر بعد أن بنى الإنجليز (بعد استعمارهم للعراق عام ١٩١٧م) الجسر المعروف باسم جسر الصرّافيّة (الجسر الحديدي) في منطقة الصرّافيّة خلال الثلاثينات من القرن العشرين الميلادي، أي يمكن القول إن الجسر الحديدي بني عند منطقة قنطرة الروميين العباسية، كما أن منطقة براثا ما زالت موجودة في بغداد، إلا أن أهم معالمها اليوم مقبرة ومسجد ما زالا يعرفان باسم براثا، ولا يوجد مكان آخر لهذا الاسم في بغداد أو خارجها، أي لم تعد هناك معالم أثرية في عاصمة الخلافة العباسية في يومنا الحاضر سوى ما ذكرناه آنفاً. كما ابتنى المعتصم حدائقه ومتنزهاته في مدينة سامراء (سرّ من رأى) فحمل النخل والمزروعات من بغداد والبصرة والجبل (يقصد لبنان حالياً) وسائر البلدان، فكثرت المياه في هذه العمارة وصلح النخل ونبتت أشجار الفاكهة المختلفة[13].



تدليل النخيل

وجاء في مروج الذهب للمسعودي أن الخليفة العباسي القاهر بالله (٣٢٠- ٣٢٢هـ) كانت لذّته من الدنيا متنزهه الكبير الذي غرس فيه أشجار الحمضيات وحمل إليه النباتات من أرض الهند والسند وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، فأصبح كثير الجلوس فيه، وهو يقول عنه: وكان لذّتي من الدنيا، فقد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر[14].

أما في حدائق ومتنزهات الخليفة العباسي المقتدر بالله، فقد ذكر ياقوت الحموي أنها بستان مونق موجود في دار الشجرة ببغداد، حيث كانت توجد بركة ماء تتوسطها شجرة من الذهب والفضة لها ثمانية عشر غصناً ولكل غصن فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل ثمار وأنواع الطيور من الذهب والفضة أيضاً، إذا مرّ الهواء عليها أبانت من عجائب أنواع الصفير والهدير[15]، وكان يحيط بهذه البركة ٤٠٠ نخلة طول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها وإلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهّبة، وجميع النخل حامل بغرائب البسر الذي أكثره خَلال لم يتغير، وعلى كل جانب من جانبي البركة أقيمت تماثيل لخمسة عشر فارساً على صهوات الجياد، ممتشقين سيوفهم، وعليهم ثياب من الحرير المزركش، يأتون بحركات يظن الرائي معها أن كلاً منهم يقصد صاحبه[16].



وقد أدخل الخليفة العباسي رسل الروم سنة ٣٠٥هـ عند زيارتهم بغداد، إلى هذه الدار فكان تعجّبهم منها أكثر من تعجّبهم من جميع ما شاهدوه، بل ونقلوا انطباعاتهم عن هذه الفنون إلى بلدانهم للاستفادة منها عند زراعة وهندسة حدائقهم في أوروبا. ولقد تأثر المصريون أيضاً بهذه الحديقة وهندستها فصنعوا مثيلة لها أيام ابن طولون، فكسا أجسام النخل نحاساً مذهّباً حسن الصنعة وحمل إليها كل صنف من الشجر المطعّم العجيب وأنواع الورود والزرع[١٧]، وكذلك الحال عند أهل الأندلس الذين تأثروا كثيراً بفنون وهندسة حدائق ومتنزّهات دار السلام عاصمة الخلافة العباسية لدرجة أنهم أطلقوا مسميات بعض مناطق بغداد على بعض مدنهم أو مناطقها كاسم الرصافة مثلاً لشدة تأثرهم بها وجمال حدائقها ومتنزهاتها، فأنشأوا حدائقهم ومتنزهاتهم على غرارها، ولعلّهم قد زادوا عليها من فنونهم فيها، ثم تأثر بها من بعدهم الأوروبيون.

كما بنى الخليفة العباسي المعتضد قصر الفردوس والذي كانت تحيط به الحدائق الغنّاء، وبنى أيضاً على بعد ميلين إلى شرق دار الخلافة في بغداد دار السلام قصراً آخر سمّاه قصر الثريا وأنشأ قرب هذا القصر حدائق وبساتين ذات أشجار مثمرة وهندسة وتنظيم في غاية الروعة والجمال، فوصف هذا القصر الشاعر العباسي المعتزّ فقال:

سلمت أمير المؤمنين على الدهر
فلا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل
فلا زال معموراً وبورك من قصر
جنان وأشجار تلاقت غصونها
وأورقن بالأثمار والورق الخضر
نرى الطير في أغصانهن هواتفاً
تنقل من وكر لهن إلى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته
كصف نساء قد تربّعن في الأزر

وأنـــهـــار مـــاء كـــالـســـلاســـل فـــجّـــرت
لـترضـــــع أولاد الـــريـــاحين والـــزهـــر

حدائق عضد الدولة

ولقد كان للوزير حامد بن العباس متنزهه المعروف باسم الناعورة أهداه للخليفة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٩هـ فأنفعه عليه ١٠٠ ألف دينار[١٨].

وكان للمقتدر بالله أيضاً بستانه المعروف باسم الزبيدية[١٩]. كما بنى الخليفة العباسي المستنصر بالله متنزهاً جنب مدرسته الجامعة الشهيرة والمعروفة باسم المستنصرية والتي كانت جامعة يتعلّم فيها أبناء أوروبا وآسيا وأفريقيا على ضفاف نهر دجلة في جانب الرصافة (موقعها الحالي عند جسر الشهداء)، فما يمضي يوم إلا ويأتي يتنزه فيه، فيجلس وراء الستر وينظر إلى المدرسة الجامعة فيشاهد أحوالها وأحوال علمائها وطلابها ويشرف عليهم ويتفقد أحوالهم[٢٠].

ومما يعكس أهمية إنشاء الحدائق والمتنزهات في عاصمة الخلافة العباسية ما بذله أهلها من أجل ذلك وتوفير المياه والمستلزمات الأخرى اللازمة لها، فذكر البغدادي عن ما صرفه عضد الدولة لإنشاء جنانه البديعة في محلّة المخرّم[٢١] «محلّة المخرّم هي أرض من المواضع القديمة في بغداد عند منطقة الرصافة والتي تمتد اليوم من حي الصرّافيّة عند الجسر الحديدي ولغاية الأرض المعروفة اليوم باسم الكسرة جنوب قضاء الأعظمية، وقد جاء اسمها هذا أي الكسرة عام ١٩٣٤م بعد فيضان نهر دجلة حيث كسر السد عندها، وهي اليوم ضمن قضاء الأعظميّة».

ولقد أنفق عضد الدولة على هذه الجنائن أكثر من ألفي ألف درهم، ثم فكّر في أن يجعل شرب هذه الحدائق والمتنزّهات من دواليب (ويقصد بها النواعير) ينصبها على دجلة وعلم أن الدواليب لا تكفي، فأخرج المهندسين إلى الأنهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من بغداد دار السلام ليستخرجوا منها نهراً يسيح ماؤه إلى داره، فلم يجد ما أراده إلا في نهر الخالص (حالياً يقع ضمن محافظة ديالى)، فعلّى الأرض بين البلد (وهو ما يعرف اليوم باسم قضاء بلد) وبينه تعلية أمكن معها أن يجري الماء على قدر من غير أن يحدث به ضرر. وعمل تلّين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ويرتفعان على أرض الصحراء أذرعاً، وشق في وسطها نهراً جعل له خورين من جانبيه، وداس الجميع (أي كامل أرضية مشروعه هذا) بالفيلة دوساً كثيراً حتى قوي وصلب وتلبّد. فلما بلغ إلى منازل البلد وأراد سوق النهر إلى داره، عمد إلى درب السلسلة فدكّ أرضه دكّاً قوياً ورفع أبواب الدور وأوثقها. وبنى جوانب النهر طول البلد بالآجر والكلس والنورة حتى وصل الماء إلى الدار وسقى الجنّات فبلغ مجموع ما صرفه عضد الدولة عليها وعلى سقايتها، خمسة آلاف ألف درهم[٢٢].

استنباط الورد الأسود!

لقد بلغ التفنن في تنسيق الحدائق والمتنزهات أوج عظمته أيام الدولة العباسية، فقد كانت توجد في بغداد حدائق يختص كل منها بنوع من الأزهار والرياحين، مثل البنفسج، النرجس، الورد (يعرف اليوم باسم ورد الجوري ببغداد)، النسرين، الياسمين، أو المنثور (نوع من الزهور ما زال يزرع في بغداد صغير الحجم زكيّ الرائحة). واستنبطوا من المنثور أصنافاً ذات سبعة ألوان، أي أنهم كانت لهم مهارة كبيرة في وراثة وتربية النبات، ففاقت دار السلام العباسية غيرها من المدن في مختلف أنحاء العالم في ذلك الزمان بإنتاج أنواع الزهور والرياحين. فذكر القاضي التنوخي في كتابه (نشوار المحاضرة) أنه رأى ورداً أصفر ووردا حالك السواد، حيث كانت حدائق ومزارع الزهور والرياحين تقام على ضفاف الجداول وحول القصور.

بل وقد كانت هناك العديد من ألوان الزهور والرياحين والتي كان يستدل عليها من خلال وصف الشعراء لها في أشعارهم من أمثال المتنبي والبحتري وأبي نوّاس وأبي فراس الحمداني وغيرهم كثيرون، إلا



أن المجال لا يسمح بذكرها. فلقد كان البائعون والبائعات يجوبون الطرقات والأسواق ومعهم طاقات من الورد والزهور، ويعلنون عنه بألطف العبارات وأجملها بياناً وبلاغاً. ومن ذلك ما نقله الراغب الأصفهاني في كتابه (محاضرات الأدباء) عن بائع الياسمين البغدادي والذي كان ينادي «من يشتري المحبوب، ولون المحب، بقطعة» (أي بدرهم).

وكانت هناك أصول عندهم للتمتع بعطور الزهور والرياحين، وأنواع الطيب معاً، وفي ذلك يقول الحسن بن سهل: «أمهات الرياحين تقوّى بأمهات الطيب، فالورد يقوّى بالمسك، والبنفسج يقوّى بالعنبر، والنسرين يقوّى بالعود». كما كانوا يصنعون من الزهور والرياحين أشكالاً فنيّة وهندسية رائعة الجمال في أطباق على الموائد أو باحات القصور وبأحجام مختلفة ذات أسلوب منسّق من حيث الألوان والأشكال الهندسية، أو قد يرسمون بها كلمات رقيقة غاية في البلاغة، فلقد ذكر أبو طيّب الوشّاء في كتابه (الظرف والظرفاء) أنهم (أي أهل بغداد) كانوا يكتبون منها أبياتاً كاملة من الشعر. ولعلهم كانوا يختارون أجمل القصائد لأشهر الشعراء في عصرهم أو غيرهم كشعراء المعلّقات مثلاً وآخرين.

تصدير هندسة الحدائق إلى بلاد العالم

ومن خلال الاطلاع على أسماء الزهور والرياحين في المصادر العلمية الحديثة اليوم نجد أن العديد منها ما زالت محتفظة بأسمائها العربية كالورد والياسمين والنرجس، كما أننا نجدها جميعاً ما زالت تزرع في حدائق ومتنزهات وبساتين مدننا وغيرها التي عشقها أهلها منذ تأسيسها وحتى يومنا الحاضر، لما تضفيه على حياتهم من بهجة وسكينة لتظلّ كما كانت مدن الخير والنّماء على الرغم من الآخرين.

لقد أعطت حدائق ومتنزهات قصور الخلفاء في الولايات والمدن مثالاً رائعاً بزهورها والبارعة بهندستها على مختلف بقاع المعمورة، فانتقل هذا الفن الرائع إلى بلاد فارس والهند والسند والصين وشمال أفريقيا والأندلس وباقي أوروبا (خاصة إسبانيا، فرنسا، وإيطاليا وغيرها)، حيث انتقلت هذه الفنون والمهارات من خلال طلابهم ووفودهم وسفرائهم وغير ذلك مما يحكى في الروايات والحكايات وما تناقله أصحاب الرحلات والسفارات والمؤلفات، ويتّضح ذلك من خلال ما نشاهده اليوم من جمال صنعة وحسن تدبير في إنشاء حدائقهم ومتنزهاتهم التي لا تخلو من لمسات وهندسة حدائق ومتنزهات مدننا القديمة التي ذاع صيتها على مدى قرون كمدينة بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها، وهنا لا بد من ذكر أهم الأشجار والزهور والرياحين التي زرعت في حدائق ومتنزهات تلك المدن. علماً أنها لا تمثل ما زرع في مدننا القديمة وليست هي على سبيل الحصر وإنما كأمثلة، فهناك أشجار فاكهة وزهور ورياحين قد زرعت مثل أشجار التوت واللوزيات كالفستق واللوز والخوخ والزعرور.. إلخ، وبعض أنواع الأزهار البصلية التي كانت تجلب من البراري وغير ذلك من النباتات التي تمكّن المسلمون من زراعتها وأقلمتها في حدائق ومتنزهات مدن الخلفاء العامرة.■

الهوامش والمصادر:

١) الحفيظ ١٩٨٨م، البساتين في التراث العربي، ندوة التربة والزراعة عند العرب، جامعة بغداد، ص١–١٥.
٢) أبو النصر ١٩٦٠م، تاريخ الزراعة القديمة، بيروت، ص١٧٩.
٣) سورة عبس، الآيات:٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠.
٤) سورة الرعد، الآية: ٤.
٥) سورة النمل، الآية: ٦٠.
٦) سورة الكهف، الآية: ٣٢.
٧– أندريو، واطسون ١٩٨٥م، الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي، ترجمة: أحمد الأشقر، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ص٢٦٣– ٢٦٧.
٨) أبو النصر، ص١٩٦.
٩) نفس المصدر، ص١٩٧.
١٠) سوسة، أحمد ١٩٥٢، ري العراق، مجلّة الزراعة العراقية، ج٢، مجلد٨، ص١١٧.
١١) أبو النصر، ص٢٠١.
١٢) اليعقوبي (بلا)، مختصر البلدان، طبعة لندن، ص٢٤٤.
١٣) نفس المصدر، ص٢٦٣–٢٦٤.
١٤) المسعودي (بلا)، مروج الذهب، طبعة باريس، ج٨، ص٣٣٦.
١٥) ياقوت الحموي (بلا)، معجم البلدان، طبعة لايبزك، ج٢، ص٥٢٠–٥٢١.
١٦) بلا، المقدمة الخططية لتاريخ بغداد، ص٥٣–٥٤.
١٧) المقريزي ١٣٢٤هـ، خطط المقريزي، مطبعة النيل، القاهرة، ج٢، ص١٠٨.
١٨) ابن الجوزي، بلا، المنتظم، ج٦، ص١٥٩.
١٩) القاضي التنوخي، ١٩٤٢م، نشوار المحاضرة، دمشق، ج٢، ص١٠٥.
٢٠) ابن العبري (بلا)، تاريخ مختصر البلدان، ص٤٤٢.
٢١) المقدمة الخططية، ص٥٨–٥٩.
٢٢) نفس المصدر والصفحة.

الحكاية الشعبية في اليمن بين التوثيق والدراسة

■ عبد الرحمن عبد الخالق محمّد *

الحكاية الشعبية هي تلك الحكاية التي تناقلها الناس عن طريق الرواية الشفوية منذ القدم، ويلعب الخيال الشعبي دوراً كبيراً في صياغتها، وفي تأطير بعض الأحداث التاريخية والشخصيات، بالمبالغة والغرانبية، وتأتي الحكاية الخرافية في الإطار نفسه، وإن تميزت عن الحكاية الشعبية بأن أبطالها هم من البشر أو الجن، بينما تقف الحكاية الشعبية عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية العادية، وذلك كمكر النساء ومكائد زوجات الرجل الواحد، وقسوة زوجة الأب على الطفلة المسكينة التي تتدخل العناية الإلهية لإنقاذها، وتتداخل الحدود بين الخرافة والحكاية الشعبية[1].

وعند العودة إلى الكتابين التوثيقيين الهامين للأستاذين علي محمد عبده ومحمد أحمد شهاب «حكايات وأساطير يمنية» و«الحكايات الشعبية»، نجد الحكاية الشعبية كما نجد الحكاية الخرافية، مع ما بينهن من تداخل، وينتمي هذان الشكلان إلى الأدب الشعبي أحد مكونات الفلكلور.

أما الأسطورة فشأنها آخر تماماً، وتختلف عن الحكاية الشعبية من زوايا عدة، أبرزها أنها تعود في الأصل إلى الديانات المبكرة، وأبطالها هم من الملائكة والآلهة وأنصاف الآلهة، وهو ما جعل الأسطورة تُطبع بالقداسة، فضلا عن لغتها الرفيعة، على عكس ما هي عليه الحكاية الشعبية، لذا اعتبر الأخوان جريم الحكايات الشعبية حطام أساطير، أو بقاياها وأشلاءها المتأخرة، بل إن بعض الباحثين يخرجون الأسطورة من باب التراث، باعتبار أن الأسطورة علم قائم بذاته، يُعرف بالمثولوجيا.

الحاجة لتوثيق الحكايات الشعبية

ونحن بصدد الحديث عن «الحكاية الشعبية بين التوثيق والدراسة» فمن الطبيعي أن يبرز سؤال مفاده: ما هي الحاجة لتوثيق الحكاية الشعبية؟ وهو ما سنحاول الإجابة عليه باقتضاب، مقتصرين في ذلك، على أخذ اليمن نموذجا في هذا الشأن.

اليمن غنية بتراثها القولي / الشفوي، من حكايات شعبية وغيرها، فضلا عن المكونات الأخرى للتراث الشعبي، وما تم جمعه وتدوينه حتى الآن منها يعد يسيراً جداً.

وأرى أنه من المفيد في هذا المقام العودة إلى بعض الكتب القديمة، التي عملت على تسجيل بعض الحكايات والقصص، وهي لا تخرج كثيراً – في اعتقادي – عن سياق موضوعنا، من ذلك كتاب «التيجان» لوهب بن منبه، المولود في صنعاء سنة ٣٤هـ، أو ما احتوته كتب التراث في اليمن من نماذج قصصية، مثل كتاب «حوليات يمانية» لمؤلف مجهول، «نشر الثناء الحسن» للوشلي، و«المفيد في أخبار زبيد» لابن الديبع، و«السلوك» للبهاء الجندي، وغيرها من الكتب[2].

* مدرس في قسم الصحافة والإعلام– كلية الآداب– جامعة عدن

وتورد اليمن كمخزن للمرويات والموروثات الشعبية والأساطير في كثير من الكتب والدراسات، كعاد وثمود وطسم، فضلا عن الأماكن ذات الدلالات الأسطورية، كوجود أماكن مشئومة، مثل جبال ختا أو خياف، والجبل الأشيب، سيد جبال النار، وقطب اليمن، وهو جبل يقال إنه يظهر عليه أهل النار والخراب، وتعوي فيه الذياب، وأماكن ملعونة، ويُروى الكثير من الخرافات، وهناك أيضا الجبال المقدسة، مثل جبال حضور وحنين، وراس جبال علي، وراس صبر، وتعكر...الخ، كما تذكر هذه المدونات أن في اليمن واديا يُعرف بوادي عشار «كثير الإخصاب»، نسبة إلى الألهة إيشار أو عشتروت، وهناك أيضا قصر غمدان، المنسوب إلى سام بن نوح، الذي ابتدأ بناءه واحتفر بئره، وتنسب حوله الخرافات، إن طائراً اختطف المقراتة، وطار بها، وتبعه سام لينظر أين أوقعها الطائر ثم أقام البناء[٣].

ومعلوم أن توثيق التراث الشعبي، والحكاية الشعبية في الأساس منها، ليس غاية بذاته، لذا نجد أن عملية التوثيق مرتبطة شديدة الارتباط، بدراسة هذا التراث، ومن هنا فإن تحديد الحاجة لتوثيق التراث الشعبي، تحديداً في الآن ذاته لحاجة دراسته، وتتمثل هذه الحاجة- حسب الدكتور محمد الجوهري- بالتالي:

- الإسهام في دراسة تاريخ الثقافة والحياة الاجتماعية، من حيث إعادة ترتيب الفترات التاريخية الغابرة، التي لا يوجد عنها إلا شواهد ضئيلة متفرقة، وهو ما يُعرف باسم منهج إعادة البناء التاريخي.

- تقدم دراسة الفولكلور بما فيها الحكاية الشعبية، خدمة مباشرة في عملية التغيير الثقافي: عواملها، وسرعتها، واتجاهاتها...الخ، وهي أمور هامة لدارس تاريخ الثقافة، وعالم الاجتماع، القائم على رسم سياسة التخطيط بمستوياتها المختلفة.

- تساعد على تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافات المختلفة، وهي العملية المعروفة في الأنثروبولوجيا الثقافية باسم «التثاقف».

- يقدم الفلكلور إسهاما في التنمية، ويتضح ذلك من خلال استخدام التراث الشعبي في وسائل الإعلام، من أجل تحقيق أغراض التنمية، حيث يسهم ذلك في تغيير الأفراد، أو دفعهم نحو التغيير، فالأفراد يتقبلون أساليب الثقافة الحديثة، طالما أنها تقدم لهم في إطار من ثقافتهم الأصلية[٤].

- يقدم التراث الشعبي مادة غنية للأدباء، من شعراء، وقصاصين، وروائيين، على وجه التحديد، من خلال تمثلها في نتاجاتهم الإبداعية والاشتغال عليها، وفي أدبنا اليمني والعربي شواهد عدة على ذلك.

توثيق الحكاية الشعبية

إن الجمع والتدوين مازالا مقصورين على قلة من المهتمين بقضايا التراث الشعبي، وهم أولئك الأساتذة الذين قاموا بالتدوين مبكرا للحكاية الشعبية، مثل علي محمد عبده، ومحمد أحمد شهاب، في كتابيهما سالفي الذكر، وحمزة علي لقمان في كتابه «أساطير من تاريخ اليمن».

لقد حاول بعض من تصدوا بتواضع، لدراسة التراث الشعبي اليمني، أن يمروا سريعاً على بعض أسباب ضعف عملية التوثيق أو التدوين تاريخياً- ولا بأس في ذلك – ومن هؤلاء الأستاذ عبد الفتاح عبد الولي، حيث أشار إلى (إن خلو النقوش واللقى الأثرية-المكتشفة – عن أي عمل فني حكائي، ربما يعود إلى أن اليمني القديم لم يكن مهتماً أو متفرغاً لتسجيل وتدوين فنونه في هذا الجانب، كما فعلت الكثير من شعوب الحضارة القديمة، نظرا لحالة الحرب، وعدم الاستقرار الأمني والنفسي التي عاشها، فيما عدا فترات قصيرة استغلها في بناء المنشآت الزراعية) ويشير في مكان آخر من الموضوع نفسه، إلى أن ظاهرة إهمال تدوين التراث أو الموروث الشعبي، ليست قاصرة على اليمن القديم فقط، بل أنها مكتسبة منه وتوارثتها الأجيال، مستعيناً بما قاله المؤرخ اليمني أبو العز مسلم اللحجي(ت ٥٥٠هـ)، صاحب كتاب «طبقات المطرفية» من أن قلة الرغبة في أهل اليمن في إحياء ما يكون في بلادهم وأهلها من الأخبار والآثار، مؤكداً على أنه قد كان في اليمن من المحاسن الحسنة في أخبار الدنيا، في الجاهلية والإسلام، ونوادر العجائب التي قد دون أهل العراق والحجاز ومصر والشام وخراسان ما هو دونها[٥].

وأرى أن طرحاً مثل هذا يجعلنا وجهاً لوجه أمام قضية هامة، يضعها الباحثون والدارسون لأي ظاهرة إنسانية -دائما- في الصدارة، وهو البعد التاريخي لهذه الظاهرة أو تلك وتأصيلها، وللتقريب أكثر من حيث وجود المثل أو النموذج أو التقليد، وتأثير ذلك على الحاضر.

الدراسات الخاصة بالحكاية الشعبية

يمكننا التحدث بملء فينا عن غياب التراث الشعبي، من حيث التدوين والدراسة والبحث، من الأجندة

الرسمية، والشعبية، والمؤسسات المجتمعية، وكذا من أجندة مبادرات الأفراد، والظاهرة الفريدة والمضيئة في هذا الجانب ما يقوم به «بيت الموروث الشعبي» على قلة إمكانياته المادية، لصاحبته المتألقة، الأديبة والباحثة أروى عبده عثمان.

وإن كنت أميل كثيرا الجهات الرسمية المسؤولية الأساسية في هذا الغياب أو التقصير في أحسن الحالات، باعتبار أن التصدي لموضوع التراث الشعبي جمعاً وتدويناً وتصنيفاً وبحثاً ودراسة، عبء كبير لا يستطيع سده إلا المؤسسات العلمية المتخصصة، التي تمتلك الكثير من الإمكانيات المادية والتقنية، وبكفاءات وقدرات علمية رفيعة، وهو ما أكدت عليه الاتفاقية الدولية لليونسكو التي وقعت عليها اليمن.

وهناك ثلاث دراسات في مجال التراث الشعبي والحضاري - حسب الباحثة أروى عبده عثمان، إحداها في صنعاء والأخرى في عدن، لم تظهر للوجود حتى الآن، إلى جانب دراسة عن الحكايات الشعبية للباحثة نفسها، ستنشر قريبا، ودراسة أنثروبولوجية «التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية» للدكتور حمود العودي، فضلا عن كتابين في المجال ذاته للأستاذ عبد الله البردوني في هذا المجال «فنون الأدب الشعبي في اليمن» و «الثقافة الشعبية تجارب وأقاويل» وتجميعه لأقوال علي بن زايد مع مقدمة إضافية وإصدارها بكتاب. وبين يدي مجموعة من الدراسات المتفرقة الجادة، لمجموعة من المهتمين بموضوع التراث الشعبي، يمكن أخذها - على ما بها من هنات - إلى جانب ما سبق ذكرها، وما لم يذكر، كنشاط بكر في هذا المجال، يفترض بنا أولا أن نجمع أشتاته ونوثقه، وهذا يتطلب وجود مؤسسة أو مركز متخصص، يشكل بوتقة لمجمل هذه الأعمال، ويقدم المساعدة العلمية والتقنية لأصحابها.. ومن الدراسات الجادة والهامة في الوقت نفسه في هذا الجانب:

١ - «في التراث الشعبي اليمني» كتاب ، حسين سالم باصديق، إعداد وتوثيق مركز الدراسات والبحوث اليمنية - صنعاء، يناير ١٩٩٣م.

٢ - «القصة اليمنية ومنابعها الأصلية» دراسة مهمة تحتوي على شروحات موجزة لقصص وحكايات شعبية، عبد الفتاح الحكيمي، مجلة الثقافة الجديدة - عدن، العدد التاسع، ١٩٨٥م.

٣ - «الأساطير في تراث اليمن الثقافي» دراسة تحتوي على قراءة لبعض الحكايات الشعبية، القرشي عبد الرحيم سلام، مجلة «الحكمة» مارس ١٩٧٧م، السنة السادسة، العدد (٥٨).

٤ - «عن الحكاية والقصة في التراث- قصة الوعظ نموذجاً» دراسة عبد الفتاح عبد الولي، مجلة «الثقافة» - صنعاء، السنة الرابعة، العدد (٢٧)، نوفمبر ١٩٩٦م.

٥ - «الحدوتة والحكاية تراث له جذور في الأدب الشعبي اليمني»، موضوع قصير، جميل حاجب، مجلة «الحكمة»، العدد (١٩١)، مايو ١٩٩٢م.

٦ - «كيف نفهم الأدب الشعبي» دراسة هامة، ركزت على بعض الحكايات الشعبية اليمنية، وما يشابهها في آداب الشعوب الأخرى، د. أحمد علي الهمداني، مجلة التواصل، تصدر عن نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة عدن، العدد العاشر، يوليو ٢٠٠٣م.

٧ - «الموروثات الشعبية القصصية في الرواية اليمنية» دراسة في التفاعل النصي، إبراهيم أبو طالب، إصدار وزارة الثقافة والسياحة ٢٠٠٤م، وهي دراسة تعمل على تتبع التأثر والتفاعل النصي بين الروايات - كعمل فني لاحق- وما تأثرت به من متفاعلات وموروثات قصصية: أسطورية ودينية وشعبية.

إن التصدي لموضوع كهذا - الحكاية الشعبية بين التدوين والدراسة - أمر بحاجة إلى دراسة وافية، والخروج بتوصيات عملية، يمكن أن يضعها على عتبة المعالجة، ووضع الخطوة الأولى في الاتجاه العلمي لتدوين ودراسة مجمل التراث الشعبي اليمني.■

المراجع

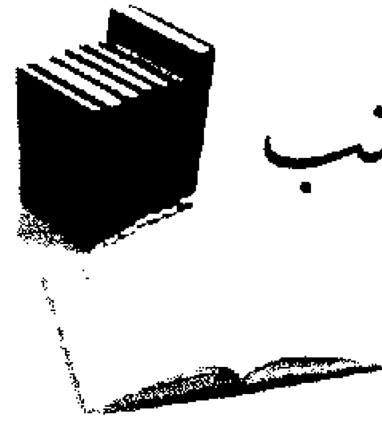
١ - السراح: فراس (١٩٨١) «مغامرة العقل الأولى- دراسة في الأسطورة- سوريا وبلاد الرافدين «سومر للدراسات والنشر والتوزيع، نيقوسيا- قبرص، الطبعة السادسة ١٩٨١ص٢٢.

٢ - عبد الفتاح عبد الولي «عن الحكاية والقصة في التراث- قصة الوعظ نموذجا» دراسة، مجلة «الثقافة»، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، السنة الرابعة، العدد (٢٧)، نوفمبر ١٩٩٦م، ص٦٤.

٣ - انظر: شوقي عبد الحكيم «الفولكلور والأساطير العربية»، دار ابن خلدون- بيروت، الطبعة الأولى١٩٧٨.

٤- راجع: حسن أحمد الغولي: «مفهوم التراث الشعبي وأهميته» مجلة «ثقافة الطفل» المجلس الأعلى للثقافة - المركز القومي لثقافة الطفل، مصر، المجلد ١٦، ١٩٩٦م، ص ٢٣، ٢٤.

٥ - عبد الفتاح عبد الولي «عن الحكاية والقصة في التراث- قصة الوعظ نموذجا» دراسة، مجلة «الثقافة»، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، السنة الرابعة، العدد (٢٧)، نوفمبر ١٩٩٦م، ص ٦١-٦٢.



كتاب تلقيح العقول

ومؤلفه: بُرَيه بنُ أبي اليُسْر الرِّياضِي

■ أ.د. محمد رضوان الداية

نشرت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٦١ الجزء الأول ربيع الثاني ١٤٠٦هـ/ كانون الثاني ١٩٨٦م) بحثاً للأستاذ زاهر أحمد عبيد بعنوان (قصّة الرّياضيين الشاعرين) أخبر فيه بقصة أبي اليُسر الرياضي وابنه بُرَيْه (تصغير إبراهيم) المتوفى سنة ٣٤١ هجرية.

واستفاد الباحث زاهر من خبرة والده ومن مكتبته الخاصة، أشياء مهمة منها معرفته بـ (كتاب تلقيح العقول) لبُرَيْه بن أبي اليُسر الرياضي) الذي كان في حوزة والده ثم صار إلى المكتبة الظاهرية بدمشق.

وبالمناسبة فإن أحمد عبيد من جيل الأدباء الشعراء الشاميين في القرن الماضي وأحد أصحاب مكتبة عبيد الشهيرة في سوق الحميدية بدمشق؛ فهو كتبي وشاعر وأديب مؤلف، وخبير مخطوطات.

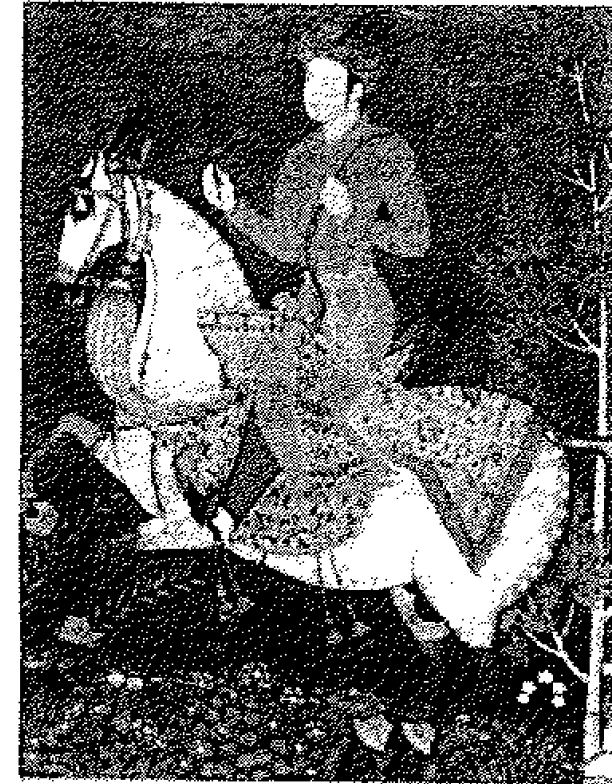
والتقط ناشر الكتاب ومحققه من هذه المقالة أهمية الكتاب، ونشره سنة ٢٠٠٣م في كولونيا بألمانية.

فهذا بحث في (كتاب تلقيح العقول) وفي صاحبه: بُرَيْه الرّياضي: عَرْضاً وتعريفاً وملاحظة.

بريَةُ بن أبي اليُسرِ الرِّياضيّ

تلقيحُ العقول

تحقيق: د. محمد حسين الأعرجي



(١)

نعرف من هذه الأسرة اسمين هما: الأب أبو اليُسر الرّياضي المتوفى سنة ٢٩٨هـ وابنه بُرَيْه المتوفّى سنة ٣٤١هـ. وكانا في عصرهما شخصيتين مرموقتين؛ ومارسا نظم الشعر. والقليل الباقي من أشعارهما يدل على المشاركة في هذا الفن على عادة العلماء والأدباء آنذاك، ولا يدل على منزلة رفيعة في فن الشعر؛ ومن شعر أبي اليُسر:

مَن لا يُداري الناسَ قلّ صديقُه
ومَن ذمّهم كانَ القصيَّ المُذمّما
ومَن يهنِ الإخوان لا يكرمونَهُ
ومَن يلم الإخوان كان مُلَوّما

ومن شعر ابنه بُرَيه:

أشدّ شيء على نفس الكريم إذا
ما رام مدح لئيمٍ عند حاجَتِه
وأعظم الناس حُزناً من يقلّ له
مالٌ ويعظمُ منه قدر نسبته

واضح منحى القطعتين وميلهما إلى الحكمة وما يسمّى: المَثل السائر والكلمة الشاردة. وكان قد شاع إيراد قطع شعرية ذات أغراض قصيرة محدودة أكثرها من بيتين اثنين. ومن ذلك قول مؤلف (كتاب تلقيح العقول):

كُلُّ الدَّواب لها مَرْعىً يُؤالفها
تنمو به ويكونُ الخيرُ عُقباها
وسفلة الناس أعراض الكريم لها
مرعىً ولكنّ خبث الرّعي مَرْعَاها

والطريف أن هذين البيتين كانا من أول ما يُنشر من شعر بُرَيه الرياضي، نشرهما أحمد عبيد في صفحة من مفكرة مكتبته (المفكرة العربية الهاشمية) ليوم الأربعاء ١٣ أيار (مايو) ١٩٧٠م.

وعلى رغم قلّة الآثار الباقية عن هذه الأسرة فإن نشر كتاب تلقيح العقول، يقدّم نصاً مفيداً من الشعر العباسي، في جملة النصوص (المؤلفات) التي نَحَتْ هذا المنحى.

(٢)

اسم أبي اليُسر هو إبراهيم بن محمد الشيباني، من أهل بغداد نعرف أنه ارتحل إلى المغرب الأدنى، وصار كاتباً عند إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (حكم من ٢٦١هـ - ٢٨٩هـ) وعند ابنه عبد الله.

وكان جدّ الأغالبة واسمه الأَغْلب (توفي سنة ١٥٠هـ) أوّل من دخل إفريقية من هذه الأسرة التي كانت حزاماً واقياً للدولة العباسية ضد توسّع دولة الأدارسة التي نشأت في المغرب الأقصى. وكان إبراهيم الذي خدم عنده أبو اليسر حاكماً (عاقلاً محسناً حازماً).

وكان أبو اليسر (إبراهيم) كاتباً شاعراً مؤلفاً، وإن لم يبق من كتبه شيء.

في هذا الجوّ وُلِدَ بُرَيْه بن أبي اليُسر في إفريقية الأغالبة (تونس) في وقت لم تحدده التواريخ. فنشأ في جوّ ثقافي من أسرته أولاً ومن بيئة القيروان (وغيرها من المدن) التي كانت مراكز الإشعاع الفكري والعلمي والأدبي.

وارتحل بُرَيْه بعد وفاة والده إلى بغداد (في حدود سنة ٣٠٠هـ كما استظهر المحقق) حيث لقي نفراً من الأدباء والرواة وغيرهم. واستفاد مادة أدبية غذّى بها كتاب: تلقيح العقول. ولا شك في أن طريق الرحلة ذهاباً وإياباً كان مجالاً لزيادة معارفه من الثقافة، ومن الناس أيضاً.

ولمّا عاد بُريه إلى إفريقية كانت البلاد قد آلت إلى الدولة العُبَيديّة، ولقي من (خلفائها) المنصور، والمعزّ، وقدّم المؤلف (كتاب تلقيح العقول) إلى المُعزّ قبل أن يغادر إلى مصر، وقد احتلها قائده جوهر الصقلي.

ونقرأ في مقدمة الكتاب:

«فلما سافر عبد أمير المؤمنين إلى العراق ورأى أدباءه وكتّابه لا يتكلمون في معنى من المعاني حتى يقدّموا قبل كلامهم مثلاً مشهوراً، وبيتاً (من الشعر) مذكوراً ينبئ عمّا يريدون الكلام فيه، واستحسن ذلك من جعَل كلما سمع مثلاً سائراً وبيتاً نادراً كتبه ووعاه ليكون له ذخيرة إلى تأليف كتاب جامع فيه وكانت نفسه تنازعه إلى ذلك في الغربة، فحال بينه وبين ذلك تقسّم قلبه في البلدان، واشتغاله بالتروّح إلى الأوطان. فلما استقر بعبد أمير المؤمنين القرار، وقعد عن الأسفار، واستوطنت به الدار استنهض نفسه إلى تأليفه فوجد فيها قوّة تُنهضه إلى ذلك، فاستعمل رويّته وفكرته في ذلك مستعيناً بالله تعالى..» ص٣٥-٣٦.

وعبارة «عبد أمير المؤمنين» تعني المؤلف نفسه ومعروف أن المُعزّ كان يعجبه أن يخاطب بمثل ذلك، ومشهور شعر ابن هانئ الأندلسي في المُعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ.. إلخ (ديوانه / زاهد علي / ٢٦٥هـ).

(٣)

رجّح المحقق أحمد عبيد، وكتب بذلك الأستاذ زاهر في مقالته الجيدة عنه أن يكون اسم مؤلف كتاب تلقيح العقول هو (بُرَيْه) على وزن عُبَيد، كما بيّن أن النقطتين فوق الهاء في أحد المواضع خطأ من الناسخ. ويقع هذا الخطأ كثيراً فتحذف نقطتا التاء المربوطة وهما لازمتان وتثبتان وهما زائدتان.

ولا يصحّ ما اختاره المحقق من أن الاسم (بَرِيّة) بدعوى أن الكلمة موجودة في الجزائر بمعنى رسالة. بل هو خطأ ظاهر. فكلمة (بريّة) ليست قديمة، وهي بعيدة جداً عن القرن الثالث الهجري. وهي كلمة عاميّة معروفة في الجزائر للدلالة على (الرّسالة) ثم إنها تضاءل استعمالها مع نشر التعليم واستعمال: رسالة. وهذه العامية جاءت من الفصيحة (براءة): بمعنى الوثيقة أو الحجّة المكتوبة. فهذا أصلها.

والصّحيح أن الاسم بُرَيه (أو يزيد). وأرجح اسم بريه لأنه تصغير تحبيب لاسم إبراهيم. ونقرأ في لسان العرب (ب ر ه) قوله: «ويقال في تصغير إبراهيم بُرَيْه، وكأن الميم زائدة (أي صغّروا الكلمة مع إغفال الميم، أو هو على غير قياس) وبعضهم يقول: بُريهيم: يعني صغروا اسم إبراهيم على بُرَيه وعلى بريهيم».

وشيء آخر لا يغفل عنه الدّارس المتابع، أو لا يصح أن يغفل عنه، وهو أن اسم الأب إبراهيم، وتسميته بتصغير التحبيب واردٌ. ثم إن الأمير الذي يكتبُ عنده الوالد هو: إبراهيم بن الأغلب. ويصحّ أن يسمّيه تصغيراً من اسم الحاكم. وهذا يحدث كثيراً.

والخلاصة أن الاسم: بُرَيْه. ولا يصحّ ما أثبته محقق الكتاب، كما بَيّنْتُ في صدر الكلام من هذه الفقرة.

(٤)

عنوان الكتاب أقرب إلى العناوين العامة التي لا تُنبئ عن حقيقة المضمون والمحتوى. فعبارة تلقيح العقول تصلح لموضوعات شتّى. وقد جعل المؤلف مختاراته من الأشعار والأخبار مفيدة للقارئ، ومعينة لمن يحفظها للاستشهاد بها في المواقف المماثلة.

وقد اشتهرت في هذا العصر (القرن الرابع الهجري) كُتب أبي منصور الثعالبي (٣٥٠- ٤٢٩)، وهي كتب مفيدة ممتعة، وفي أسمائها مثلاً: سحر البلاغة و: لطائف المعارف، وخاص الخاصّ، وثمار القلوب، وأحسن المحاسن، والتمثيل والمحاضرة، وغيرها.

وكان قبل الثعالبي ممن سلك هذا المسلك: المدائني (ت: ٢١٥) وله كتاب: (ما يُحتاج إليه من الآداب في معاشرة الملوك) مفقود، والجاحظ وله (المحاسن والأضداد) منسوب إليه، مطبوع؛ وابن المعتز وله كتاب الآداب، مطبوع.

وكتاب تلقيح العقول يَدخل في هذه الكتب. وقد جعله المؤلف في مئة وسبعة وخمسين باباً، ولكل باب عنوان. وكثرة العناوين جعل بعضها يقترب من بعضها الآخر. كما جعل بعض الأبواب قصيراً جداً.

ولا يغيب عن البال ميل بعض المصنفين إلى التفريع والمكاثرة، فإن أبا تمام صنف حماسته في عشرة أبواب فحسب، فجاء تلميذه وصديقه البحتري، وجعل حماسته في ١٧٤ باباً. وما هي إلا تفريعات لعناوين عامة أقلّ من هذا بكثير.

فالكتاب اختيارات وروايات من الأخبار والأشعار جمعها لمّا كان في بغداد، ونظمها في أبواب، وقصد إلى أن تكون مما ينفع عند المذاكرة والمحاضرة، والتمثّل؛ واستفاد مما سمعه ورواه في رحلته أيضاً.

(٥)

عنوان الباب الأول (باب المجاوبة بالشعر والتمثّل به) وفيه رواية عن أبي عبيدة (وله كتاب في الأمثال): «المَثَلُ كلام يعارض به الإنسان صاحبه بلا تصريح، فيفهم عنه مراده باختصار وإيجاز. وكانت العرب تستعمل ذلك كثيراً فتبلغ من حاجاتها ما تحاول دون كتاب، وتستغني عن التصريح، فيجمع لها ذلك إصابة المعنى وحُسن التشبيه».

وروى عن مصعب بن الزبير «لا يستغني الأديب عن الفصاحة والبلاغة وحُسن العبارة والعلم بالأثر، والحفظ للخَبر، ومعرفة المثل السائر، والبيت النادر، ويأتي به في موضعه».

– وفي الباب عن أبي هِفّان قال: «كنّا نسمر عند مَعْقِل أخي أبي دُلَف العجلي أنا وابن وُهَيب فرأيتُ الثريا (مجموعة النجوم المعروفة) قد طلعت فقلت:

أَمَا تَرَوْن الثُّرَيا؟

فقال ابن وهيب:

كأنّها عِقْدُ رَيّا».

وهذا يُسمّى (الإجازة) أي أن يقول أحدهم شطر البيت ويكمله شاعر آخر.

وعنوان الباب الثاني: (في ما تمثّلت به الحكماء من الأمثال المنثورة والآداب المشهورة في فنون الأدب وما به مَثَلٌ في شرف البلاغة وفضلها) وفيه: قال أبو العيناء: كانت العرب تسمّي من له وجهٌ حسن جميل ومنطق فصيح: ذا الحُسْنيْن، قال الأول:

ترى الوجه الجميل فتزدريه
إذا ما كان ليس له لسانُ!

وسمع بعض الأعراب إنساناً يتكلم فَيُحْسِنُ فقال: لكل شيء إدامٌ وكلام هذا الرّجل إدامُ الكلام!

وروي عن قتادة أنه قال: إن الرَّجل يشبع من الكلام الطيب كما يشبع من الطعام الطيّب.

(٦)

وفي بعض فصول الكتاب جوانب تعليمية، ومن ذلك ما في الباب الثالث (في ما يُتمثل به في طِلاب الأدب) أي طلبه. وفيه:

- قال العتّابي: رُبّ كلمة صغيرة نجّت من معضلة كبيرة فتعلّموا من الأدب ولو كلمة.

- وقال عبد الله بن ثعلبة لأولاده: يا بَنِيّ! إن أحدكم إذا أراد أن يستعير دابّة من جاره، أو ثوباً من صديقه وَجَدَ ذلك، ولا يجد أن يستعير لساناً؛ فأصلحوا ألسنتكم.

- ومن الشعر الحسن الذي يسلك هذا المسلك التربوي قول ابن أبي البغل (الباب الرابع ص٦٦):

لا تنظرنّ إلى أثواب مُغْتربِ
نائي المحلّ بعيد الأهْلِ والدَّارِ
وانظر إليه إذا ما قام في مَلأ
بمنطق لذوي الألباب سَحَّارِ
فليس يُزري الفتى إخلاق بزّته
ولا يزيّنهُ تجديدُ أطْمَارِ
وإنّما العارُ ما يُبديه منطقهُ
وليس منظره إن قامَ ذا عَارِ

- وفي الباب الثالث عشر (٧٧) قال ابن المعتز: لا تقطع الكريم فإنه كالجوهرة التي من قطعها أضرّ بحاله.

(٧)

وقد استرسلت أبواب الكتاب قصيرة، تعالج قضايا مختلفة من أحوال الحياة ومعاشرة الناس ومواجهة المواقف، وما شابه ذلك. ومن الأبواب القصيرة مثلاً باب عنوانه (في ما يُتمثّل به في الحضّ على المزاح) وفيه «قال الخليل بن أحمد: الناس ما لم يتمازحوا فهم في سجن. وقالوا: مَن لم يمازح أخاه فقد فارقه.

وقال حبيب (أبو تمام):

نفسي فداءُ أبي عليّ إنّه
صبحُ المؤمّل كوكبُ المتأمّلِ
فكِهٌ يحبّ الجدّ أحياناً وقد
يُنضي ويهزل عيش من لم يهزل»

ولكنها لم تأتِ منسوخة، بل متفرقة.

ولهذا المنهج من جمع الفكرة ونقيضها وما قيل فيها عُدّ الكتاب داخلاً في كتب المحاسن والأضداد كما سبق القول. ومما أورده في المزاح المذموم قول الشاعر (لم يذكر اسمه):

لا أخدش الخدش بالجليس ولا
يخشى نديمي إذا انتشيتُ يدي

(٨)

من أطراف أبواب الكتاب الباب الخامس والخمسون بعد المئة وهو من أطولها، وعنوانه (في ما تمثلت به الخلفاء من بني العباس) من ص٢١٥ إلى ص٢٤٤. وهو باب مفيد في تصوير الحال الثقافية للخلفاء العباسيين المثقفين منهم خاصة، وهم يستحضرون شواهد الشعر والمثل والقول المأثور في أحوال ومواقف تستدعي مثل تلك الأمثلة والشواهد.

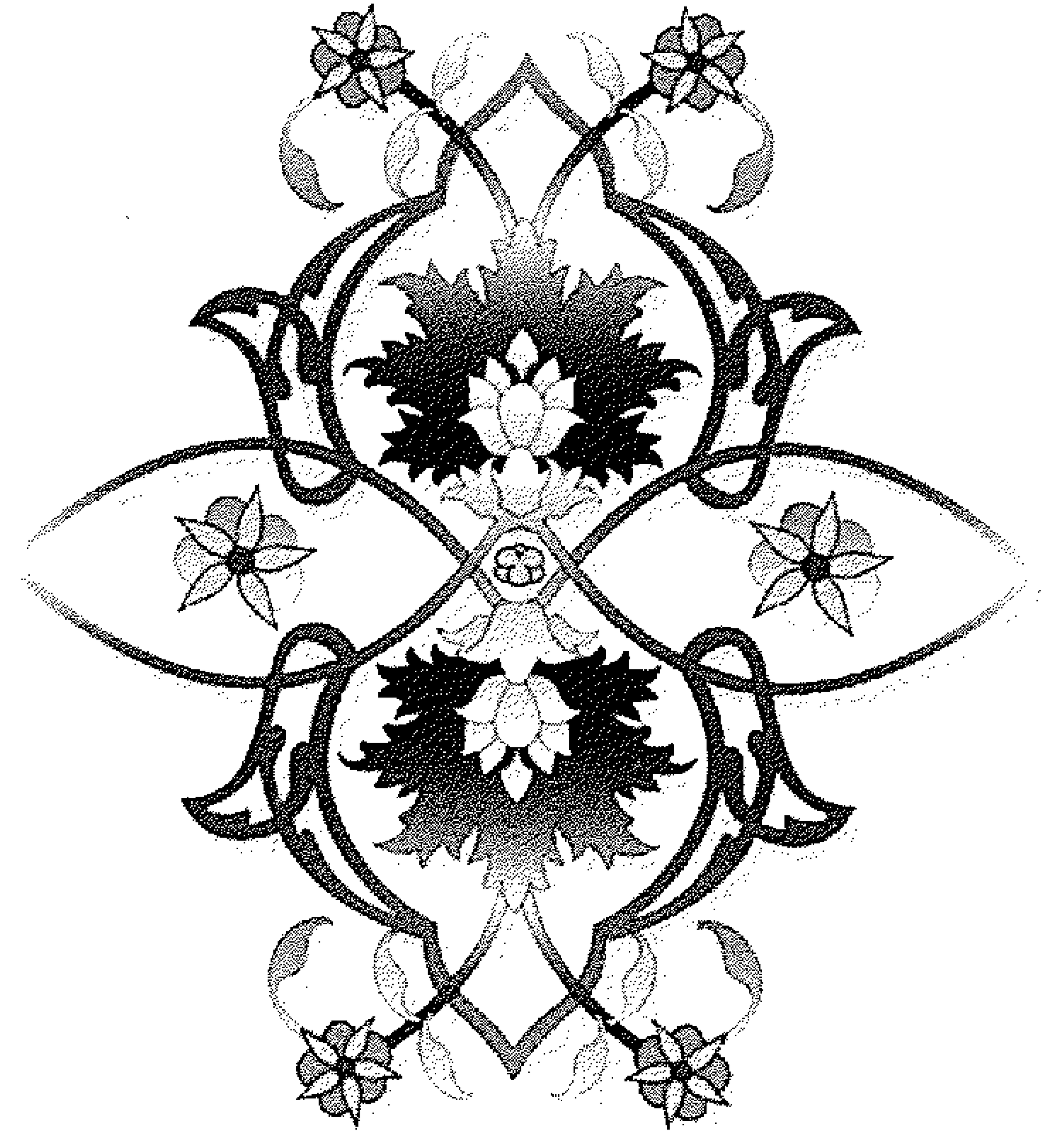
ومن أكثر الخلفاء العباسيين تمثلاً هارون الرشيد؛ ومن أخباره أنه رأى رجلاً بخيلاً فتمثّل بقول الشاعر:

يا أيّها الرجل السّمينُ وقومهُ
هَزْلى تنوشهُم ضِبَاعٌ وجَارِ
أطعمْ فلست بجائع وتعلّمَنْ
أن الطعامَ يصيرُ شرّ تجارِ
ما أنت منه إن أكلتَ براجعٍ
من ألف دينارٍ إلى دينار

ومما قاله الرشيد جوابه عن كتاب يحيى بن خالد البرمكي من سجنه، فقد بعث إليه بشعر آخره:

يا عطفة الملك الرضا
عودي علينا ثانِيَةْ

فقال الرشيد:



أجرى القضاءُ عليكم
ما جئتموهُ علانيَةْ
يا آل بَرْمَكَ إنّما
كنتم ملوكاً عاديَةْ
فكفرتُم وعصيتمُ
وجحدتمُ نَعْمائيَةْ
هذي عقوبةُ مَنْ عصى
مَنْ فوقهُ وعصانِيَةْ

والشعر يُفصح عن موقف الرشيد من آل برمك الذين كانوا برضاه مسيطرين على الدولة حتى انتفَض، فانتقضَ عليهم كما هو مشهور.

(٩)

في صنعة الكتاب جهد ظاهر. وعلى الرغم من وجود ثلاث نسخ مخطوطة من الكتاب أعلن المحقق أنها «ثلاث ليس في أيّ منها ما يمكن أن يعدّه المحقق نسخة أُمّاً».. من مقدّمة المحقق ص٢٤، ثم قال إنه ترتّب على هذا أنه لم يلتزم برواية أيّ من النسخ المعتمدة، وإنما «التزمتُ بما خلتهُ صواباً» ص٢٧. وقد أدّى هذا التحلل من النصوص المختلفة إلى أنْ تَصرّف المحقق فغيّر وبدّل، وظنّ وخمّن، فأصاب حيناً وأخطأ أحياناً؛ لأن مثل هذه المخطوطات تحتاج إلى صبر وإلى مطاولة الزمن، كما تحتاج إلى سعة الثقافة وغزارة المعرفة. وهذه نماذج قليلة:

أ- من أخطاء اللغة: قال الشاعر (الصفحة ١٢٠):

لا تعاجِلْ بالذنب في الانتقام
واحترسْ من تباعة الأيام

غيّر المحقق كلمة (تباعة) ووضع بدلاً منها (بشاعة)!، وفي اللغة: التبعة والتباعة: ما فيه إثم يُتّبع. وهذا هو الصواب.

ب- من أخطاء النحو (ص٢٣٠) قال الشاعر (في أصل المخطوطة):

زمان اللهو يقصر عن تجَنٍّ
وإعراضٍ يجرّ إلى الصُّدودِ
دعي عدّ الذنوب إذا التقينا
تعالى لا أعدّ ولا تعدّي

فغيّر البيت الأول وقال فيه: «وإعراض يجرّان لصدٍّ» ليوافق البيت الثاني.

ولكن قول المخطوطة: لا أعد ولا تعدّي خطأ صوابه ولا تعدّين. وهذا يفسد القافية. وظاهر أن الخطأ من النسّاخ، وصوابه دعي عَدَّ الذّنوب إذا التقينا (تعالي لا أعودُ ولا تَعُودي) أي لا نعود معاً إلى التجني والإعراض.

ج- ومن أخطاء ضعف القراءة مثلاً (ص١٦٩) قال الشاعر:

يلقى الفتى بلسانه إخوانه
في بعض منطقه بما لا يُحْمَلُ

وصواب النص بقراءة: «بما لا يَجْمُلُ» بالجيم أي بما لا يليقُ ولا يَحْسُن.

- ومن ضعف القراءة (ص١٩١):

ليس يجزي الخِضاب شيئاً من النفـ
ـع خلا أنّهُ خضابٌ كئيبُ!

والصواب: ليس (يُجْدِي) أي لا ينفع. والخضاب هنا صبغ الشعر الذي شاب.

- ومنه ص١٧٣ قراءته النص على هذا الوجه:

«.. ومَنْ ضَعُفَ لأمرِ طَلَبَهُ مدبراً وتَركَهُ مُقبلاً»!

والصواب:

«ومِنْ ضَعْفِ الأمرِ طَلَبُهُ مُدْبِراً، وتَرْكُهُ مُقبلاً» أي طلب الأمر بعد أن فات وتركه وهو بين يديك.

د- ومن أخطاء الثقافة وترك المتابعة (ص١٩٦):

- قالت الحكماء: «ابن الثلاثين ليث عرين» ولم يذكر المحقق رسم النص. على أن العرب تضرب المثل بـ: ليث عِفرّين؛ كما في معجم البلدان ٤: ١٣٢ واللسان (ع ف ر). وعبارة أمثال اللسان: ابن الخمسين ليث عِفِرّين. (وعِفِرّين مكان كانت تكثر فيه الأسود الموصوفة بالجرأة).

هـ- وقد يترك النصّ الواضح إلى اقتراح غير مناسب، مثلاً قرأ (ص٢٠٠) «من تركيبة الإنسان السلوّ عن المصائب فالحازم يقدّم الصبر في النوائب..» والنص عنده كما ذكر في الحاشية (وتزكية الإنسان) وهو والصواب؛ والمعنى أن الإنسان يُزكّى ويُثنى عليه إذا سلا عند مصائبه وتماسك.

ومن ذلك البيت (ص١٥٨):

كم صامتٍ يخبأ أموالَهُ
قد صاح في ميزان ورّاث

فغيّر المحقق البيت الذي في مخطوطته، وأثبت رواية ديوان ابن المعتز وهي كم صامت يخنق أكياسَهُ.. إلخ.

فترك رواية المخطوطة، وينبغي إثباتها، لأنها رواية جديدة موثوقة التاريخ، وهي أيضاً بمعنى جيّد؛ لا يبتعد عن معنى رواية الديوان.

و- ولم يستوف المحقق الاطلاع على النصوص القديمة، والدواوين الشعرية، وخصوصاً التي جُمِعت، والتي حُقّقت، وقد فات المحقق أزيد من عشرة دواوين، منها ديوان معن بن أوس المزني صاحب البيت المفرد في ص٢٣٢:

وإني على أشياء منك تريبني
قديماً لذو (نُصْح) على ذاك مجمل

وقد ضبط حرف الروي بالكسر (مجملِ) والصواب (مجملُ) بالضم، والبيت من قصيدة في ديوانه (المطبوع في ليبزيغ ١٩٠٣) وله طبعة أخرى وفي (ص٢٣٦) بعد أربع صفحات:

وإنّي على أشياء منك تريبني
أغمّض عنها لست عنها بذي عمى

هكذا ورد. والشطر الأول قد سبق. والشطر الثاني – كما يبدو- مطلع بيت آخر لم يُرْوِه الديوان، ولا هو في الحماسة البصرية (٢: ٧٩٥).

– وبالمناسبة فإن صحة رواية البيت:

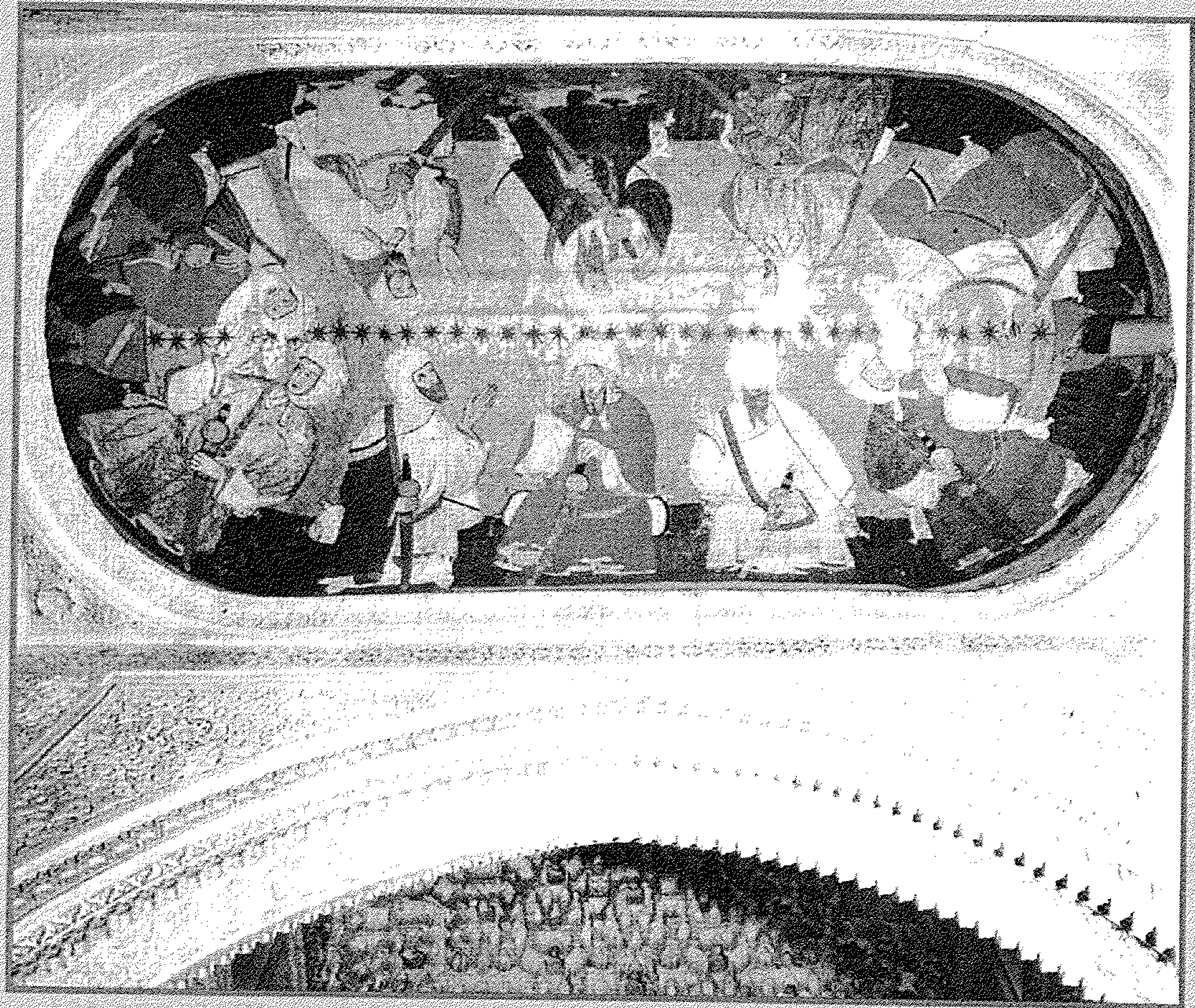
وإني على أشياء منك تريبني
قديماً لذو صَفْحٍ على ذاك مُجْمِلُ

والشعر يدور حول فكرة (الصفح الجميل) من المعنى القرآني في سورة الحجر، من قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيْلَ﴾ (١٥ / ٨٥).

– والاستقصاء يطول.■

الأندلس
رسوم وصور

إعداد أ. د.
عبد الرحمن علي الحجي



رسم رائع وفريد وجميل يزين سقف إحدى قاعات قصر الحمراء: قاعة الملوك (جوار ساحة الأسود) والظن الأكبر أن هؤلاء العشرة المرسومين هم من العلماء المسلمين. وغير معروف تاريخ رسمها ولا الرسام الذي قام بذلك.

لقد تجاذبت نسبة رسم هذه الصورة أكثر من جهة. لكن المؤكد أنها رسمت بيد مسلمة، وإن كان غير معروف من هو راسمها ولا تاريخ رسمها.

والذي يبدو أن تاريخ رسمها كان أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) إن لم يكن قبله. وكان سقوط غرناطة- العروس الباكية الحزينة- سنة ٨٩٧ هجري-١٤٩٢م.

درهم «أبو المنيع قرواش»



عبد الله بن جاسم المطيري
مدير بيت الشيخ سعيد آل مكتوم- دبي
عضو الجمعية الملكية البريطانية للمسكوكات

قرواش بن المقلد بن المسيب العقيلي من هوازن هو أبو المنيع معتمد الدولة، صاحب الموصل والكوفة والمدائن، واليها بعد مقتل أبيه سنة ٣٩١هـ، وهو الحاكم السادس من الأسرة العقيلية والثاني من ولاة الموصل.

دخل في حرب مع عمه الحسن بن المسيب لمحاولة عمه الاستيلاء على الحكم ثم تصالحا وأقر له بالبيعة، ثم دخل قرواش في حرب مع خفاجة وتم له الاستيلاء على الكوفة بعد هروب أبي علي الخفاجي إلى الشام.

وفي ٣٩٢هـ عاد أبو علي الخفاجة بجيش كبير حيث التقى الجيشان على أطراف الكوفة وتقاتلا فانهزم جيش قرواش العقيلي، وعاد قرواش إلى الأنبار ودخل أبو علي الكوفة، وفي ربيع الأول من سنة ٤١١هـ اجتمع غريب بن معن ونور الدولة دبيس بن علي بن مزيد الأسدي وأتاهم عسكر من بغداد فقاتلوا قرواش بن المقلد عند كرخ سرمن رأى، فانهزم قرواش ومن معه وأسر في المعركة ونهبت خزائنه وأثقاله، ثم استطاع قرواش التخلص من الأسر وقصد سلطان بن الحسين بن ثمال أمير خفاجة، فسار إليهم جماعة من الأتراك، فعاد قرواش وانهزم ثانية هو وسلطان الخفاجي، وكانت الواقعة بينهم غربي الفرات، ولما انهزم قرواش مد نواب سلطان أيديهم إلى اعماله فأرسل يسأل الصفح ويبذل الطاعة.

وفي سنة ٤١٧هـ اجتمع دبيس بن علي الأسدي وأبو الفتيان منيع بن حساب الخفاجي وجمعا عشائرهما لقتال قرواش العقيلي، وكان سبب القتال أن خفاجة تعرضوا إلى السواد وما بيد قرواش منه منزل من الموصل لدفعهم، فاستعانوا بدبيس فسار إليهم واجتمعوا فالتقوا بظاهر الكوفة، وهي كانت تحت سلطة الأسرة العقيلية، وعلم قرواش أنه لا طاقة له بهم فسار ليلاً في نفر يسير إلى الأنبار، وسارت أسد وخفاجه من خلفهم، واستولوا على الأنبار، وسار قرواش إلى حلله. دخل الخفاجي إلى الأنبار ونهبها وأحرق دورها وأسواقها فانحدر إليهم قرواش ليمنعهم وكان مريضاً إلا أنه لم يتمكن من قتالهم وكانت خفاجة في ألف رجل.

سار منيع الخفاجي إلى الكوفة وخطب فيها لأبي كاليجار البويهي، وأزال حكم عقيل عن سقى الفرات، وفي سنة ٤٤١هـ ظهر الخلاف بين أبي المنيع قرواش وبين أخيه زعيم الدولة أبي كامل، واشتد الأمر وفسد الحال فساداً لا يمكن إصلاحه، وسار قرواش في المحرم وعد بنواحي بلد وجاء أبو كامل في من معه من العرب وآل المسيب وكان بين الطائفتين حوالي فرسخ واقتتلوا يوم السبت الثاني عشر من محرم وافترقوا من غير ظفر ثم اقتتلوا يوم الأحد وقد تفرق أصحاب قرواش وفارقه جمع من العرب ونهب أصحاب أبي كامل أصحاباً لقرواش فمنعهم أبو كامل وجاء إلى أخيه معتمد الدولة قرواش واجتمع به ونقله إلى حلته وأحسن عشرته ثم أنفذه إلى الموصل محجوراً عليه وجعل معه بعض زوجاته. كاتب المسيب وأمراء العرب أبا كامل واشتطوا عليه فخاف أن يؤول الأمر بهم إلى طاعة قرواش وإعادته إلى مملكته فبادرهم إليه وقبل يده وقال له: «إنني وإن كنت أخاك فإنني عبدك وما جرى هذا إلا بسبب من أفسد رأيك وأشعرك بالوحشة مني والآن أنت الأمير وأنا

الطائع لأمرك والتابع لك فقال له قرواش: بل أنت الأخ والأمر إليك مسلم وأنت أقوم به مني»، وفي مستهل رجب من سنة ٤٤٤هـ توفي معتمد الدولة أبو المنيع قرواش العقيلي بقلعة الجراحية من أعمال الموصل وحمل ميتاً إلى الموصل ودفن بتل توبه من مدن نينوى، وكان أبو المنيع من رجال العرب وذوي العقول منهم وله شعر من ذلك ما ذكره أبو الحسن علي الباخرزي:

لله در النائبات فإنها	صدأ النفوس وصيقل الأحرار
ما كنت الآزبوة فطبعنني	سيفا وأطلق شقرتي وغراري

ضرب العقيليون نقودا من الذهب والفضة إلا أن النقود الذهبية شحيحة، وقد ذكر المستشرق الألماني زامباور أن ديناراً ضرب بقرقيسيا سنة ٢٧٥هـ محفوظ في المكتبة الخديوية بمصر وتعد الدراهم العقيلية نادرة جداً وأن أكثر النقود انتشاراً هي الدراهم التي سكها معتمد الدولة أبو المنيع قرواش وذلك لطول فترة حكمه.

اقتصر ضرب النقود العقيلية على الموصل وشمال العراق الحالي ولم أجد أن هناك دراهم سكت في منطقة السواد. ضربت دراهم أبو المنيع على طراز الدراهم المروانية والحمدانية وهي قريبة جداً من الدراهم العباسية الصرفة بالإضافة إلى اسم الحاكم العقيلي وأن الشعارات التي حملتها هي نفس الشعارات العباسية.■

مأثورات الدرهم

نموذج درهم أبو المنيع قرواش بن مقلد الموصل سنة ٣٩٤هـ

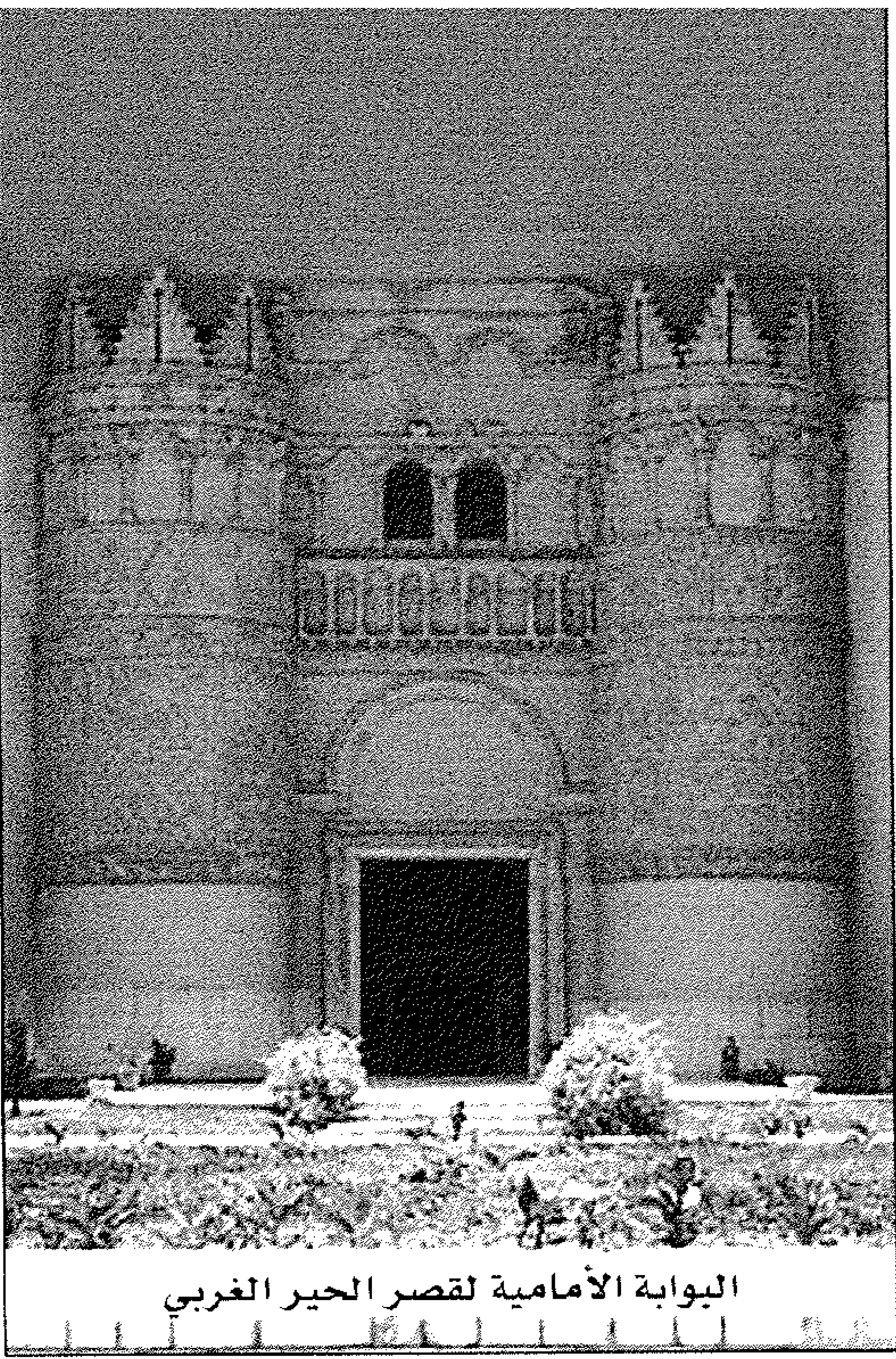




الهامش الأول:
لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.
مركز الوجه:
لا إله إلا الله وحده لا شريك له - الملك بهاء الدولة معتمد الدولة أبو المنيع.

الهامش الثاني:
بسم الله ضرب هذا الدرهم بالموصل سنة أربع وتسعين وثلاثمائة.
هامش الظهر:
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.
مركز الظهر:
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - القادر بالله نور الدولة أبو مصعب.

مقال:


البوابة الأمامية لقصر الحير الغربي

المنشأة المائية في قصر الحير الغربي

■ أ.د محمد وليد عبد الله كامل *

إنه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) الذي أمر ببناء قصر الحير الغربي في قلب البادية السورية، ويقع ذلك القصر جنوب غربي مدينة تدمر بنحو ٦٤كم قريباً من مدينة الرصافة، ولذلك كان يطلق عليه رصافة هشام، إذ وجد نص مكتوب بالخط الكوفي على أحد أبواب القصر: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بصنعة هذا العمل عبد الله هشام أمير المؤمنين أوجب الله أجره، عمل على يد ثابت بن أبي ثابت في رجب سنة تسع ومائة».

* جامعة الملك سعود. كلية الزراعة. قسم علوم التربة

وكان ذلك بعد البيعة له بالخلافة، إذ يذكر الطبري أن هشام بن عبد الملك كان ينزل في الزيتونة في بادية الشام، وأن الخلافة أتته وهو في الزيتونة في منزل له، فلما وصله البريد حاملاً عصا الخلافة وخبر البيعة ذكر ابن كثير أنه أقام هناك حيث بنى لنفسه قصر الحير الغربي.

يتكون قصر الحير الغربي من قصر وخان وحديقة وحمّام ودور محيطة بالقصر، أما القصر فهو مربع الشكل (٧١× ٧١متراً) ومزود بأبراج دفاعية وله مدخل رئيس يتوسط جداره الشرقي يؤدي إلى دهليز عريض ينتهي به إلى فناء القصر تحيط به أروقة معمدة، وبذلك تجده من طابقين من الغرف المتناظرة من مختلف جهاته.

هيكل القصر الكبير

وأما حديقة القصر فقد صممت بشكل مستطيل أبعاده (١٠٥٠× ٤٤٢م) وأحيطت هذه الحديقة بسور حجري مدعوم بأبراج موزعة على مسافات متساوية، وللحديقة مدخلان: الرئيس في الزاوية الشرقية للحديقة، وهو مربع الشكل، زينت واجهته ببرجين صغيرين تتقدمه غرفة خارجية تؤدي إلى غرفة أخرى

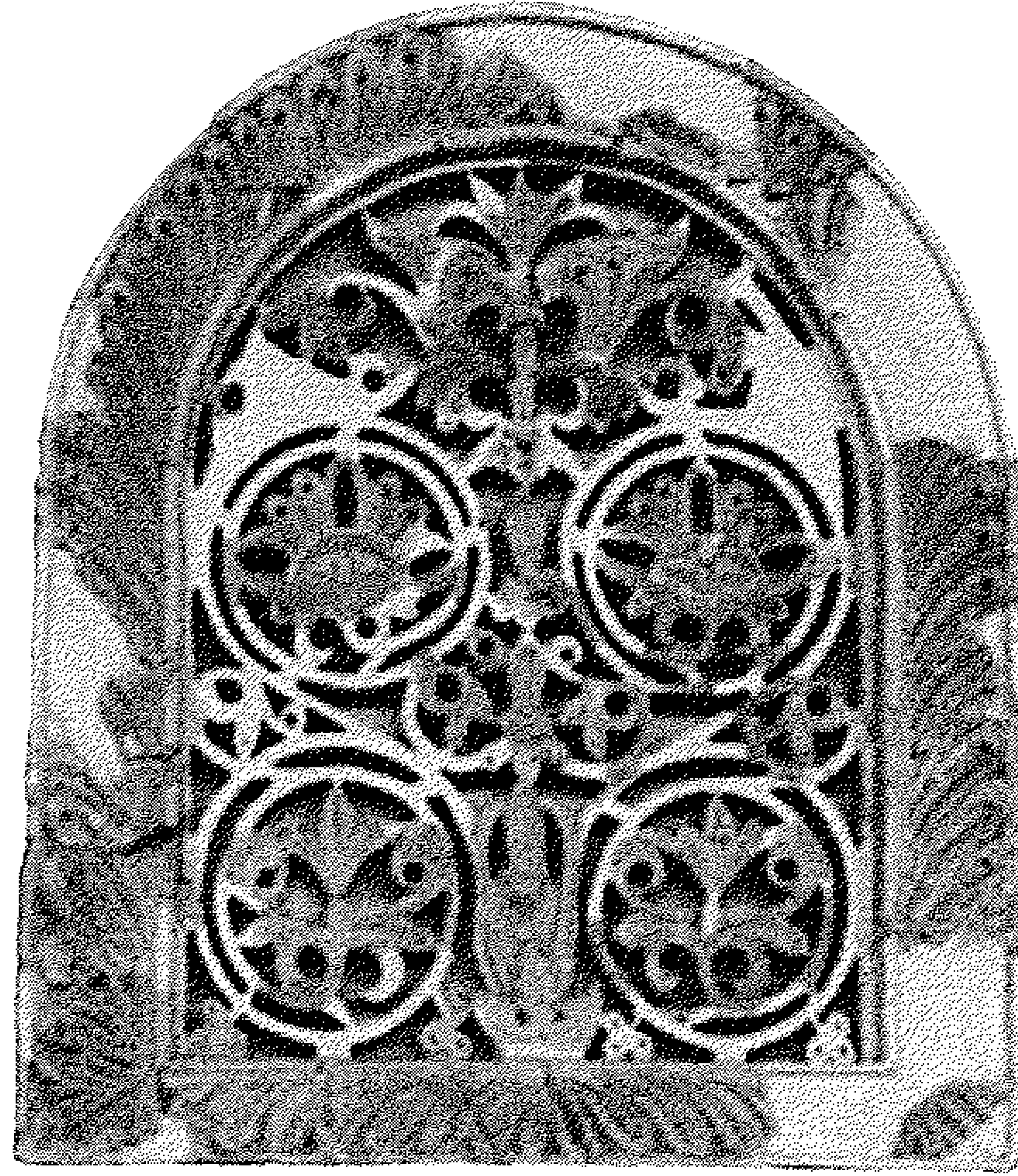
تفتح على الحديقة عبر دهليز يصل بينهما، ومدخل ثانوي في الجهة الشمالية الشرقية من الحديقة، وتنساب خلال السور قنوات للري تصل الحديقة بسد خربقة الأثري وهو سد تخزيني لمياه الري والشرب في بادية الشام، ولولاه لما تورط أمير الأمويين هشام بن عبد الملك في ارتياد البادية للصيد والقنص والاستراحة في منزله بالزيتونة بالقرب من الأوابد الأثرية لمملكة تدمر ومن ثم إصدار الأوامر بتشييد قصره فيها.

مخطط حديقة القصر

بين القصر والسد مسافة تفصل بينهما بنحو ٥ر١٦كم، والسد تقع خلفه بحيرة (١٥٥٠× ٨٠٠م) تتغذى من عين جبل الباردة ومسيلاته المائية، وللسد بطوله (٣٦٣م) وبارتفاعه (٥ر٢٠م) ثلاثة منافذ: اثنان منها مستطيلان ولهما بوابة لإيقاف جريان الماء حين الطلب والثالث قناة خزفية بدون بوابة تمتد تحت سطح الأرض لمسافة قدرها (٤كم) حتى تصب في خزان كبير يخرج منه قناة رئيسة بطول قدره (٥ر١٢كم) تنتهي في بركة (٦٠× ٦٠× ٣ر٦٠م) يخرج منها قناتان تصبان في حوض مربع الشكل على هيئة بئر يخرج منه قناة رئيسة تحت سطح الأرض يتفرع منها قنوات بعضها لإدارة طاحونة وبعضها لري الحديقة وبعضها الآخر يتجه نحو القصر.

المنشأة المائية للري وتوفير المياه

كانت الحديقة تروى بالقناة الرئيسة التي تجتاز السور قرب المدخل الرئيس، ثم تتوزع القناة الرئيسة إلى أقنية خزفية تشق التراب، زالت الأقنية وبقيت موزعاتها الحجرية سليمة مما ساعد على وصف شبكة الري للحديقة، إذ تبين أن أرض الحديقة كان يخترقها

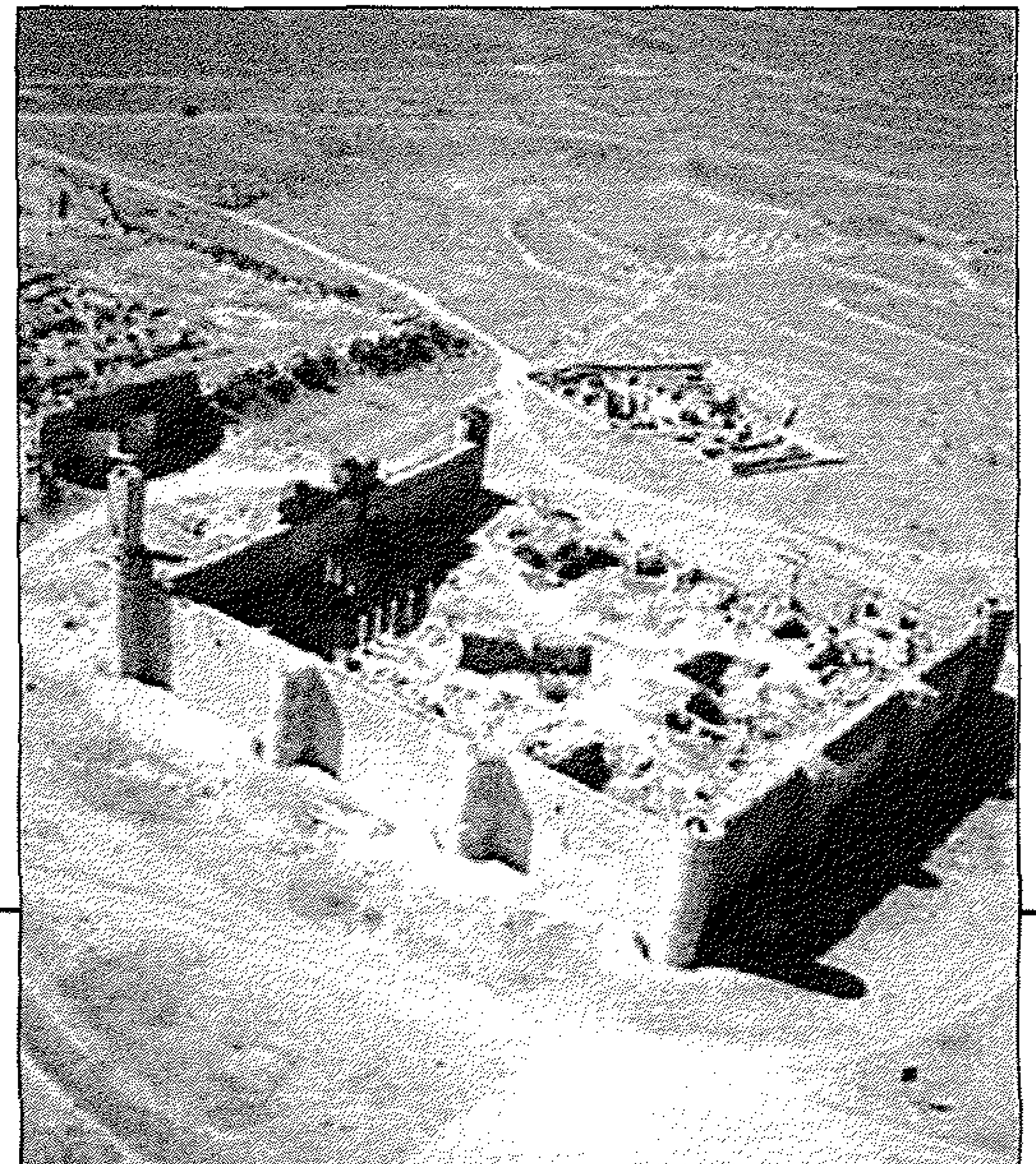


أحد شبابيك القصر

خمس قنوات طولية تجتاز الجدار المقابل فتجري المياه فيها على خمسة خطوط مستقيمة، ومن ثم تتفرع منها قنوات أصغر منها تجري فيها المياه على خطوط عرضية، وتلتقي القنوات الطولية بالعرضية من خلال موزعات حجرية ماثلة للشاهد، وكانت أرض الحديقة مقسمة إلى عدد من الأحواض المربعة المنتظمة نتيجة لتقاطع القنوات، وكانت تلك الأحواض تسقى على التسلسل، أما تصريف المياه الزائدة فكان عن طريق سد صغير أسفل الحديقة، له ثلاث عشرة بوابة سدت جميعها إلا ثلاثاً منها لتصريف المياه الزائدة.

أما القصر فكان يستمد مياهه من قناة فخارية متفرعة عن قناة خربقة الرئيسة، تلج القصر بميل مدروس لتوفير انسياب الماء على التفرع لتغذية الحوضين الوسطي وذلك الذي يقع بالجهة الغربية من القصر، وهناك حوض ثالث يقع في الزاوية اليسرى من الواجهة الجنوبية للقصر، وتعمل هذه الأحواض على تزويد كافة مرافق القصر بالمياه اللازمة.

إن توزيع المياه من البحيرة إلى الحديقة فالقصر كان يتم خلال مراحل مختلفة عبر قناة رئيسة تحت أرضية على غرار القنوات الباطنية أو ما يعرف بالأفلاج والكهاريز أو الغانات في المنطقة الغربية، فالقناة الباطنية تحمي المياه من التلوث والتبخر في ظروف جفافية مناخ البادية، إلا أن البحيرة بقيت مكشوفة تستقبل مياه الينابيع والأمطار، وكانت هذه المياه عرضة للتبخر، وهذا ربما كان سبباً في تلطيف حرارة وجفافية الهواء في الموقع الذي يحيط بالحديقة والقصر معاً. ■



منظر عام للقصر

فيض المشاعر

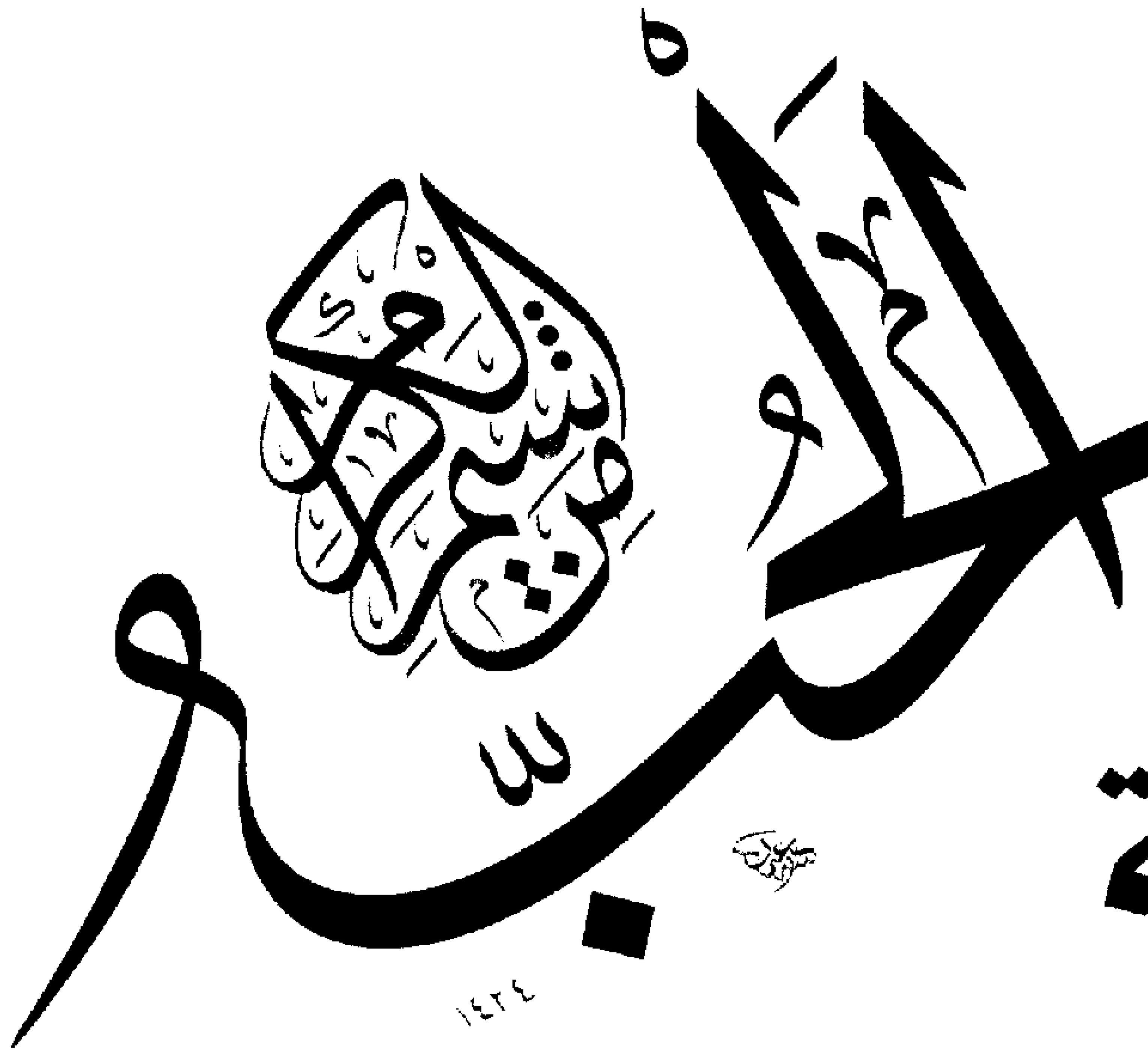


إشراف:
محمد إبراهيم الحديدي
m_alhadidi@hotmail.com

يقول الماجدي..

من شفت لاح الشيب كنّي شايف ... ملح الذياب الموحشات بْقاعِ
وايقنت أن الشيب سَبّرٍ للفنا ... وان الصبا ماله جميل يْراعِ
قفّا ولا بيني وبينه زَلّه ... ما واجبٍ منّي عليه إنزاعِ
شِرْهٍ عليه الآنهار مسيره ... ما يازت الفرقا بغيرِ أوداعِ
ليمن ذكرت الماضيات تْزيدني ... وَلْه وذكّرني حمام التّلاعِ
وش بك تنوح أنا حذاك امرضتني ... لا حَلَّك الله يا حمام القاعِ
متخالف الألحان كن عْويله ... من راعبيّ او قنطري وقْفاعِ
شام الصّبا عنّي ويا من لا أبا ... حثايثٍ منهن جَرَنْ أدماعِ
كانت ملابيس الشباب ضوافي ... خذهن وعوّضني بْبرد إسباعِ
صاب العيون مع السنون وغيرهن ... وايلا بغيته ينجلي ما طاعِ
والناس تختال الهلال إلاّ أنا ... ما عدت أعَرْف العدل مِ المدّاعِ
ثم الصلاة على النبي محمد ... عَدّ البذور وما رمى الزرّاعِ

■ شعر/ الماجدي بن ظاهر



القيم الخلقية في الشعر الجاهلي

■ محمود محمد أسد

نخطئ الظن إذا فهمنا الشعر الجاهلي بمفهوم قاصر عن استيعابه وفهمه. فشعرنا ديوان العرب وسجل أيامهم، وواحة نفوسهم فما من شعب أو أمة إلا وتصارع فيها الخير والشر والفضيلة والرذيلة، وهذا حال شعرنا العربي فهو مليء بالدرر والقيم الخلقية التي تسلح بها العربي ودعا إليها فمدح من أخذ بها واكتسبها وهجا وذم من ابتعد عنها.

لقد اكتسب العربي قيماً رفيعة من بيئته ومجتمعه وما فيه من جميل حكمة وغزارة تجربة، فالصلة بين الآباء والأجداد والأحفاد متصلة، فهي مُثُل وأخلاق مكتسبة، فزهير بن أبي سلمى في مدحه لهرم بن سنان يذكر:

فما كان من خير أتوه فإنما
توارثه آباء آبائهم قبلُ

وعبّر عن هذا المعنى طرفة بن العبد:

والمجد نُنْميه ونتلده
والحمد في الأكفاء نـدّخره.

فالشاعر متأثر ببيئته ومجتمعه، وهذا حال المجتمع الجاهلي، فهو مجتمع مغلق على القبيلة، والمحيط الذي ينتقل ضمنه ضيق ومتشابه، فمن الطبيعي أن نجد تجانساً في الأفكار والقيم التي ورثها الإنسان من قومه، فلبيد بن ربيعة يقول:

مِنْ معشر سنّت لهم آباؤهم
ولكل قوم سنّة وإمامُها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم
إذ لا تميل مع الهوى أحلامها

فهذا يدل على أن العربي استسقى أخلاقه من آبائه وأجداده، وهو معتز بها وغيور عليها، وقد لعبت هذه النصائح والأخلاق دورها في المواقف الصعبة، فعنترة بن شداد يجد في قلب المعركة الحامية ما يشد من عزمه ويدفعه للصبر والكرّ وهذا يعود لوصية عمه:

ولقد حفظتُ وصاة عمي بالضحى
إذ تَقْلِصُ الشفتان عن وضح الفم

فمن الطبيعي أن يدافع العربي عن قيمه ومُثُله ومجده الذي بناه الأجداد فينتابهم الخوف من ضياع هذا

* سوريا ـ حلب

المجد، وهذا ما ذكّر به لقيط بن يعمر الإيادي قومه في رسالته من بلاد الفرس وقد أحاط بهم الخطر من الفرس:

يا قوم إن لكم من إرث أوّلكم
مجداً، فأشفقت أن يفنى وينقطعا
ماذا يردُّ عليكم عزُّ أولكم
إن ضاع آخره أو ذلّ واتّضعا

ما أحوجنا إلى هذا الفهم والإيمان به! (فلا حاضر لعروبتنا إن لم نتمسك بقيمنا ونعتز بتاريخنا وأصالتنا) وهذا ما دعاني لكتابة هذا الموضوع والإكثار من الشواهد.

هناك الكثير من القيم الخلقية الإيجابية التي حرص العربي عليها، وتغنى بها وهي منثورة في خطبه وأشعاره، فهو حريص على سمعته الحسنة التي يكتسبها من الأخلاق الفاضلة فيكبر في عين المجتمع والقوم، فعنترة بن شداد يخاطب ابنة عمه:

أثني عليّ بما علمت فإنني
سمحٌ مخالقتي إذا لم أُظلم

وكذلك ترى عروة بن الورد الذي يسعى للذكر الحسن والخلود فيخاطب زوجته:

ذريني ونفسي - أمّ حسان - إنني
بها قبل ألا أملك البيع مشتري
أحاديث تبقى، والفتى غير خالدٍ
إذا هو أمسى هامة فوق صَيِّر

فكان يبذل المال والنفيس في سبيل الذكر الحسن لأن المال يفنى والذكر يبقى كما يقول تأبط شراً وهو يرد على معاتبته:

يقول: أهلكتَ مالاً لو قنعتَ به
من ثوب صدق، ومن بَزٍّ وأعْلاقِ
عاذلتي إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ
وهل متاعٌ - وإن أبقيتُهُ - باقِ

وبلغ بهم هذا التمسك بالقيم قولاً وعملاً بأن نصحوا ودعوا إليها وأيقنوا أن أولادهم خير من ينقلها ويحافظ عليها فأكثروا من النصائح، فها هو الشاعر (عبدُ قيس البرجمي) يملي وصيته على أولاده بعد أن أذنت شمس حياته بالمغيب:

أجُبَيْلُ إن أباك كاربَ يومُه
فإذا دُعيت إلى العظائم فافعلِ
واتركْ محلّ السوء، لا تحلُلْ به
واحذر حبال الخائن المتبدّلِ
وإذا افتقرت فلا تكن متخشعاً
ترجو الفواضِل عند غير المُفْضِلِ
وإذا تشاجر في فؤادك مرة
أمران، فاعمد للأعفِّ الأجملِ

أتركُ الآباء والقارئ يتأملون ويتفهمون هذه الأبيات، وبعد ذلك يقارنون بين دور الآباء قديماً ودورنا في الوقت الحاضر، وأمامنا وثيقة ثانية مليئة بالنصائح الغنية بمضمونها والتي صاغها (المثقّبُ البعدي) من وحي تجربته في الحياة:

لا يبالي طيّب النفس بما
عطب المال، إذا العِرْضُ سَلِمْ
واعلم ان الذم نقص للفتى
ومتى لا يتّق الذم يُذمْ
أكرمِ الجار وراعِ حقه
إن عرفان الفتى الحق كرمْ

إن هذه القيم الحميدة منتشرة في الشعر الجاهلي، فتشكّل حديقة جميلة وما أغنى هذه الحديقة! فالقارئ لشعرنا العربي في العصر الجاهلي يجد نفسه معجباً ومشدوداً لتلك الأخلاق التي صاغوها شعراً وبطولة، فكُتب الأدب والتاريخ غنية بتلك القصص الممتعة فلم يبق أمامنا إلا التنقل في أطراف هذه الحديقة الغناء، فالشنفرى حريص على كرامته وعزة نفسه:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمنْ خاف القِلى مُتعزّلُ
لأستافُ تُرب الأرض كيلا يرى له
عليّ من الطول امرؤٌ متطولُ

واستقبال الضيف واجب وحُسنُ استقباله خير من المال فيقول شاعر الكرم والجود حاتم الطائي:

أضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحله
ويُخصب عندي والمحلّ جديبُ
وما الخصبُ للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيبُ

ونبقى مع حاتم وهو يرسم معالم شخصية العربي السموح الكريم:

ونـفسك أكـرمـهـا فـإنك إن تَـهُـنْ
عـليك فلـن تُـلفي لـها الـدهـر مُكرمـا
وأغـفـر عـوراء الـكـريم ادخـاره
وأُعـرض عـن شـيم الـلـئـيم تـكـرمـا

هذه مُثُل اعتز بها العربي وزها بها معتزاً فخوراً لأنها وسام يزين فيها صدره وصدر قبيلته، فعنترة بن شداد يتعامل بحياء وعفة مع جارته ولا يغدر بها:

وأغضُّ طـرفي مـا بـدت لي جـارتـي
حـتـى يـواري جـارتـي مـأواهـا
إني امـرؤ سـمـح الخلـيـقـة مـاجـد
لا أتـبـعُ الـنـفس الـلـجـوج هـواهـا

فمن حقنا أن نذكر هذه القيم ونتغنى بها ونأخذ بها فهي خالدة وصالحة لكل وقت، فالقيم السامية تبقى خالدة وقاعدة متينة لبناء المجتمع والأمة والأفراد. فإنها تبني إنساناً فاضلاً وترفع من شأن المجتمع، فهي سلاح فعال، ولذلك علينا أن نكتسبها من الطفولة لأن اكتسابها في الكبر صعب كما ذكر الشاعر سويد بن حذاق العبدي:

إذا المرء أعـيـتـه المروءة نـاشـئـاً
فـمـطـلـبـهـا كـهـلاً عـلـيـه شـديـدُ

فالعربي لم يتهاون عن أداء واجبه والدفاع عن وطنه وشرفه بل كان الشرف أغلى من كل جاه ومال، ألم يبدأ السموءل قصيدته بهذا المطلع الخالد:

إذا المرء لم يـدنس مـن الـلـؤم عـرضـه
فـكـل رداء يـرتـديـه جـمـيـل

وحسان بن ثابت يرى أن المال الضائع يعوض وأما الشرف المنهوك فلا:

أصـونُ عـرضـي بمال لا أدنّـسـه
لا بـارك الـلـه بـعـد الـعـرض في المالِ
احـتـالُ لـلـمـال إن أودى فـأكسـبـه
ولستُ لـلـعـرض إن أودى بمحـتـالِ

وتغنى العربي بالشجاعة وعزف عليها ألحان البطولة فتغنى بها، وأشاد بفضلها ودورها لأنها سبيل البقاء والخلود على رأي الشاعر حصين بن همام:

تـأخـرتُ أسـتـبـقـي الحـيـاة فـلـم أجـد
لـنـفـسـي حـيـاة مـثـل أن أتـقـدمـا
فـلسـنـا عـلـى الأعـقـاب تـدمـى كـلـومُـنـا
ولـكـن عـلـى أقـدامـنـا تـقـطـرُ الـدمـا

وبالمقابل حرص العربي على السيادة لما لها من أهمية في رفع شأن القبيلة مما دعاهم للسعي وراء أهل العقل والحكمة والخلق الحسن فجهل القائد ينعكس على قومه بالضعف والانحطاط، فالشاعر الأفوه الوردي يرسم صورة القائد:

لا يصـلـح الـنـاس فـوضـى لا سـراة لـهـم
ولا سـراةَ إذا جـهـالُـهـم سـادوا

ويقف أمامنا زهير بن أبي سلمى يرسم ملامح شخصيته التي هي أمل كل إنسان أبيّ كريم:

أبـيتُ فـلا أهـجـو الـصـديـقَ، ومـن يـبـعْ
بـعـرضِ أبـيـه في المعـاشـر يَـنْـفـقِ
أكـفُّ لسـاني عـن صـديـقـي وإن أجَـأْ
إلـيـه فـإني عـارقٌ كـل مـعـرقِ
وفي الحلـمِ، إدْهـانٌ، وفي الـعـفـو دربـةٌ
وفي الصـدق مَـنْـجـاةٌ مـن الشـرِّ فـاصـدقِ
ومـن يـلـتـمس حسـنَ الـثـنـاء بمالِـهِ
يَـصُـنْ عـرضَـهُ مـن كـلّ شـنـعـاء مـوبـقِ

وبعد كل هذا العرض وهذه الشواهد الغنية، ألا يأخذنا الإعجاب ويشدنا للتوقف عند هذا الشعر العظيم بمعانيه والقوي بأساليبه. لقد نبت هذا الشعر في تربة خصبة، وأعطى ثمرة ناضجة، ولا يزال المنهل العذب والرافد القوي لحياتنا وقيمنا، وما الضرر الذي يلحقنا لو أخذنا بهذه القيم والأخلاق؟ وهل هناك أسمى من هذه القيم التي تهذب النفس وتصقلها؟ ألم يؤمن الدين الإسلامي الحنيف بها؟ أم يقل الرسول العربي صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».. فهذا اعتراف صريح بوجودها وبقيمتها، ويبقى أمامنا قول الشاعر أحمد شوقي يطرق آذاننا بقوة:

وإنما الأمم الأخـلاق مـا بـقـيـت
فـإن هُـمُ ذهـبـت أخـلاقـهـم ذهـبـوا■

المراجع:

١. تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي: ج١، د. شوقي ضيف.
٢. ديوان الشعراء الستة الجاهليين. شرح عبد المتعال الصعيدي.
٣. مصادر الشعر الجاهلي: د. ناصر الدين الأسد.
٤. ديوان الحماسة لأبي تمام.

النبطي الفصيح



■ سالم الزمر
salzomr@hotmail.com

هذه الصفحات تقف على الشعر النبطي ثم تغوص في أعماقه لالتقاط كلمات يظنها البعض عامية غير عربية لكثرة ما وجدوها في الشعر النبطي غير الفصيح أو لبعدهم وبعدنا عن الفصاحة وأساليبها وألفاظها، أو لأن بعض تلك الألفاظ مع فصاحتها ما عادت مستخدمة في الفصحى لكنها بقيت مما بقي من الفصاحة في لغتنا اليومية وأشعارنا غير الفصيحة.

ونحن هنا نقتفي آثار تلك الألفاظ في الشعر النبطي ونردها إلى أصلها الفصيح ولنا من ذلك فوائد عدة:

الأولى قراءة الكثير من الشعر النبطي ومعاودة مطالعته.

والثانية الغوص في قواميس العربية للبحث عن أصول تلك الألفاظ المتناثرة في الشعر النبطي.

والثالثة مطالعة الشعر العربي للبحث عن تلك الألفاظ في أدبنا العربي.

والرابعة إثبات أن العامية والشعر النبطي عربي لا ينفك عن أصله العربي.

والخامسة إعادة الفرع إلى أصله برد الألفاظ النبطية إلى أصلها العربي.

والسادسة تحقيق أمنية بعودتنا إلى لغتنا الفصحى وأدبنا العربي عن طريق البحث في الشعر النبطي عن الفصحى من ألفاظه.

والسابعة العمل على دراسة شعرنا النبطي دراسة لغوية مفيدة.

والثامنة ربط الأجيال القادمة بتراثنا الشعري النبطي بطريق بحث أدبي يحمل الطرافة والجهد العلمي معاً لإيصال ذلك التراث إلى الأجيال القادمة بجهد موثق موثوق به.

وأخيراً أقول لو شئنا أن نعدد الفوائد من ذلك لما انتهينا، لكنني أقف هنا للبحث وراء النبطي الفصيح في شعرنا النبطي.

خنين

جاء في قصيدة للشاعر سعيد بن عتيج الهاملي الذي عاش حتى ١٩١٩م

يا اهل النوق الخبايب
روفوا عن الاغتلاب
عوجوه روس الركايب
مقدار خط كتاب
باكتب سلام وايب
صوب عربي الانياب



اخـــن مـــن الـــهـــبـــايب
والـــــذ مـاطـــــاب

وقوله اخن من الهبايب أي أزكى ريحاً من الريح الطيبة وكلمة خنين تعني عند أهل الإمارات تعني زكي الرائحة من العطور أو حتى الطعام عند البعض.

وربما وجدنا لهذه الكلمة أصلا في لسان العرب فالخنين صوت يصدر من الأنف عند النساء خاصة عند الضحك أوالبكاء وهي بعيدة عن معناها النبطي إنما الأقرب إليه هو المخنة فلقد جاء في اللسان إن المخنة الانف وربما ربط أهل الإمارات وسواهم الرائحة الطيبة بالأنف وهو المخنة فسموا كل ماله رائحة طيبة مخنة.

ذواري

جاء في قصيدة للشاعر سلطان بن مطر الحلامي

مـــريت مـــنـــزل صـــاحب الحال
وايـــلا ذواري الـــريـــح تـــذراه
ذكـــر عـــلـــيـــه حـــلـــو الجبـــال
نـــهـــار مـــانـــتـــوادع ويـــاه

يقول بأنه مرّ على منزل من يحب وهو صاحب حاله ولقد كنى عنه بذلك وإذا بالريح تعصف به كناية عن رحيله، فذكره ذلك بحلو اللقاء صاحبه حلو الجبال أي المقابلة يوم ان ودعه.

وقوله ذواري الريح تذراه أي تذروه وهي لاشك فصيحة عربية فلقد جاء في اللسان:

ذَرَت الريح الترابَ وغيرَه تَذْرُوه وتَذْرِيه ذَرْواً وذَرْياً وأَذْرَتْهُ وذَرَّتْه: أطارَتْه وسفَتْه وأَذْهَبَتْه، وقيل: حَمَلَتْه فأَثارَتْه وأَذْرَتْه إذا ذَرَت التُّرابَ وقد ذَرا هو نفسُه. وفي حرف ابن مسعود وابن عباس: تَذْرِيهِ الريحُ، ومعنى أَذْرَتْه قَلَعَته ورَمَتْ به، وهما لغتان. ذَرَت الريحُ التُّرابَ تَذْرُوه وتَذْرِيه أَي طَيَّرَته؛ قال ابن بري: شاهد ذَرَوْتُه بمعنى طَيَّرْتُه قول ابن هَرْمَة:

عُـلُـفَ السَّـواعِـدِ في طِـراقِ الـعَـنْـبَـرِ
يَـذْرو حَـبِـيـكَ الـبَـيْـضِ ذَرْواً يـخْـتَـلـي

والعَنْبَر هنا: التُّرْس. وفي الحديث: إنّ الله خَلَق في الجَنَّة ريحاً من دُونِها بابٌ مُغْلَق لو فُتِحَ ذلك الباب لأَذْرَتْ ما بين السماءِ والأَرْض، وفي رواية: لَذَرَّت الدُّنْيا وما فيها. يقال: ذَرَتْه الرِّيحُ وأَذْرَتْه تَذْرُوه وتُذْرِيه إذا أَطارَتْه.

العربات

قال الشاعر ناصر بن سالم العويس

قـــم يـــانـــديـــبـــي فـــوق هـــنـــتين
حـــول مـــن الـــعـــريـــات وســـمـــان
واكـــرب عـــلـــيـــهـــن م الـــدشـــن زيـــن
لي تـــرقـــبـــه خـــطـــف ولا بـــان

وقوله حول يعني مطايا وقوله عربات يعني بها من الجيدات اللواتي رعين في الصحاري وهن أصيلات غير مهجنات ودليل ذلك في اللسان أن الخيول الأصيلة غير المهجنة تسمى؟؟؟؟ فالمعرب من الخيل تعني غير المهجنة وربما أن تلك صفة استعارها أهل الإمارات وسواهم للأبل أيضا جاء في لسان العرب لإبن منظور:

وعربية الفرس: عتقه وسلامته من الهجنة.

وأعرب: صهل، فعرف عتقه بصهيله.

والإعراب: معرفتك بالفرس العربي من الهجين، إذا صهل. وخيل عراب معربة، قال الكسائي: والمعرب من الخيل: الذي ليس فيه عرق هجين، والأنثى معربة، وإبل عراب كذلك، وقد قالوا: خيل أعرب، وإبل أعرب، قال:

وكـــرنـــا بـــالأعـــرب الجـيـــاد
مـــا كـــان إلا طـــلـــق الإهـمـــاد
تحاجـــز الـــري ولم تـــكـــاد
حـــتـــى تحاجـــزن عـــن الـــرواد

حوّل الإخبار إلى المخاطبة، ولو أراد الإخبار فاتزن له، لقال: ولم تكد. وفي حديث سطيح: تقود خيلاً عراباً أي عربية منسوبة إلى العرب. وفرقوا بين الخيل والناس، فقالوا في الناس: عرب وأعراب، وفي الخيل: عراب. والإبل العراب، والخيل العراب، خلاف البخاتي والبراذين. وأعرب الرجل: ملك خيلاً عراباً، أو إبلاً عراباً، أو اكتسبها، فهو معرب، قال الجعدي:

صهيلا تبين للمعرب
ويصهل في مثل جوف الطوي

يقول: إذا سمع صهيله من له خيل عراب، عرف أنه عربي.

والتعريب: أن يتخذ فرساً عربياً. ورجل معرب: معه فرس عربي. وفرس معرب: خلصت عربيته. وعرب الفرس: بزغه، وذلك أن تنسف أسفل حافره، ومعناه أنه قد بان بذلك ما كان خفياً من أمره، لظهوره إلى مرآة العين، بعدما كان مستوراً، وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رخو، وصحيح هو أم سقيم. قال الأزهري: والتعريب، تعريب الفرس، وهو أن يكوى على أشاعر حافره، في مواضع، ثم يبزغ بمبزغ بزغا رفيقا، لا يؤثر في عصبه، ليشتد أشعره.

وعرب الدابة: بزغها على أشاعرها، ثم كواها.

والإعراب والتعريب: الفحش. والتعريب، والإعراب، والإعرابة، والعرابة، بالفتح والكسر: ما فتح من الكلام. وأعرب الرجل: تكلم بالفحش. وقال ابن عباس في قوله تعالى: (فلا رفث ولا فسوق)، هو العرابة في كلام العرب. قال: والعرابة كأنه اسم موضوع من التعريب، وهو ما قبح من الكلام. يقال منه: عربت وأعربت.

وربما أن أهل الإمارات سمو الهجل القوية الضخمة عربات لأنها تشبه السفن الضخمة ولا شك في الابل سفن الصحراء وربما يرجع ذلك ماجاء في لسان العرب أيضا في معنا عربات قوله «والعربات: سفن رواكد، كانت في دجلة».

ذنان

قال الشاعر راشد بن سالم الخضر

شرتنا الصبا وان هب ذنان
يذكر القلب محبوبه
شروى نسايم يبل لبنان
اللي هل الدنيا هذوبه

يعني أن ريح الصبا الذي مرت به ذكرته من يحب وأن تلك الريح تشبه ريح نسائم جبل لبنان

وقوله هب ذنان يعني رقيق وهي كلمه مأخوذة من معني فصيح فلقد جاء في لسان العرب:

ذَنَّ الشيءُ يَذِنُّ ذَنيناً: سال. والذَّنِينُ والذُّنانُ: المخاط الرقيق الذي يسيل من الأَنف، وقيل: هو المخاط ما كان؛ عن اللحياني، وقيل: هو الماء الرقيق الذي يسيل من الأَنف، عنه أَيضاً؛ وقال مرة: هو كل ما سال من الأَنف. وذَنَّ أَنفُه يَذِنُّ إذا سال، وقد ذَنِنتَ يا رجل تَذَنُّ ذنناً وذَنَنْتُ أَذِنُّ ذنناً، ورجل أَذَنُّ وامرأَة ذَنَّاء.

ومن ذلك نستدل على أن المقصود بذنان أي رقيق وهو مهني في العربية الفصحى للسائل الرقيق من الماء فاستعاره أهل الإمارات للنسيم

مرجان

ثم قال الخضر بعد ذلك في القصيدة التي مرت آنفا

لي صاحبٍ في الحب زعلان
بْلا سبب ياذي اعجوبه
من مثل هذي كنت فرقان
حسبي على ناسٍ سعوبه
إن كان شي معروف واحسان
امشو بيه والاّ أمشوا به
بو مبسمٍ لولو ومرجان
والعسل من ريجه يذوبه

وهو في البيت الرابع هنا يشبه ثغر محبوبته وأسنانها باللولو والمرجان، والمرجان عربية فصيحة معناها الصغار من اللؤلؤ فلقد جاء في لسان العرب:

والمَرْجانُ: اللُّؤْلُؤُ الصِّغارُ أَو نحوُه، واحدته مَرْجانةٌ، قال الأَزهري: لا أَدري أَرُباعِيٌّ هو أَم ثُلاثِيٌّ، وأَورده في رباعي الجيم، وقال بعضهم: المَرْجانُ البُسَّذُ، وهو جَوْهَرٌ أَحمر، قال ابن بري: والذي عليه الجمهور أَنه صغار اللؤْلؤ كما ذكره الجوهري؛ والدليل على صحة ذلك قول امرئ القيس ابن حُجْر:

ذِيادَ غُلامٍ جَرِيٍّ جِيادا
أَذودُ القَوافِيَ عَنِّي ذِيادا،
وآخُذُ مِن دُرِّها المُسْتَجادا
فأَعْزِلُ مَرْجانَها جانِباً،
مِن جانِبِ الأَمْراجِ، يوماً يُسْأَلُ
إنّا لَقِينا بَعْدَكم بدِيارِنا،

عسعس

جاء في قصيدة الخضر:

سامرت في العسعس بتوفاق
هندي وبغدادي وبوطوق
وبهن يشطن ذات الاوراق
احباب فوق غصون وعنوق

وقوله في العسعس أي في الليل وهي فصيحة أخذها من الفصحى فلقد جاء في اللسان وعَسْعَسَ الليلُ عَسْعَسَة: أقبل بظلامه، وقيل عَسعَسَتُه قبل السَّحر. وفي التنزيل: والليل إذا عَسْعَسَ والصُّبح إذا تَنَفَّسَ؛ قيل: هو إقباله، وقيل: هو إدباره؛ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عَسْعَسَ أدْبَرَ، قال: وكان بعض أصحابنا يزعم أن عَسْعَسَ معناه دنا من أوله وأظلم؛ وكان أبو البلاد النحوي ينشد:

كان له من ضَوْئه مَقْبَسُ
عَسْعَسَ حتى لو يَشاءُ ادَّنا

غث

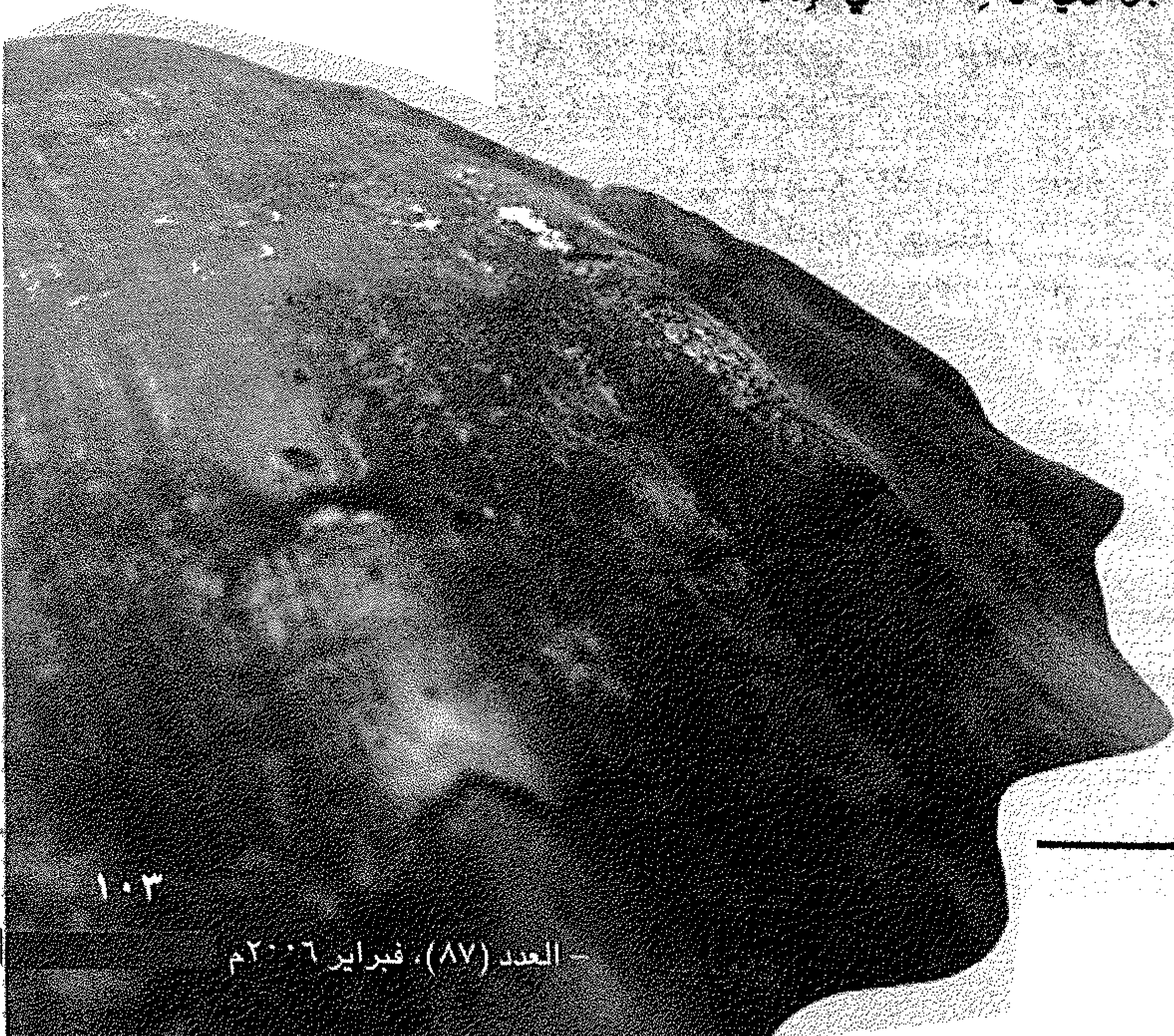
جاء في قصيدة للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان ال نهيان رحمه الله

أبدي بحرف الهاكم
وانشي النظم ترتيب
يابن خصيف بلاكم
ربت المنام تعيب
والقلب من فرقاكم
مغتث ومستصيب
لأني ضربت حذاكم
وانتو حذايه مديب

وقوله مغتث أي أحس بما يغث أي يضايق ويؤرق وهي كلمة أصلها فصيح جاء في اللسان:
الغَثُّ: الرديءُ من كل شيء. ولَحْمٌ غَثٌّ وغَثيثٌ بَيِّنُ الغُثوثة: مَهْزولٌ.
غَثَّ يَغِثُّ ويَغَثُّ غَثاثة وغُثُوثةً، وغَثَّتِ الشاةُ: هُزِلَتْ، فهي غَثَّةٌ، وكذلك أَغَثَّتْ. وأَغَثَّ الرجلُ اللحمَ: اشتراه غَثّاً.
وفي المحكم: أَغَثَّ اشترى لَحْماً غَثيثاً.
ورجل غَثٌّ وغُثٌّ: رديءٌ.
وقد غَثِثْتَ في خُلُقك وحالك، غَثاثة وغُثُوثةً: وذلك إذا ساءَ خُلُقه وحالُه. وقوم غَثَثَةٌ وغِثَثَةٌ. وكلامٌ غَثٌّ: لا طَلاوةَ عليه. قال ابن الزبير للأعراب: والله إن كلامكم لَغَثٌّ، وإن سلاحكم لَرَثٌّ، وإنكم لَعِيالٌ في الجَدْب، أعداء في الخِصْب، وأَغَثَّ حديثُ القوم وغَثَّ: فَسَد ورَدُؤَ. وأَغَثَّ في مَنْطِقه. التهذيب: أَغَثَّ فلانٌ في حديثه إذا جاء بكلام غَثٍّ، لا معنى له.
وكل تلك المعاني تفيد ما يضايق وبعث على مالا يحمد.

حذا

وجاء في البيت الرابع من أبيات المغفور له الشيخ زايد كلمة حذا كم يريد بقربكم أي آه تعود أن يكون بجانبهم وهي كلمة ذات معنى وأصل فصيح فلقد جاء في اللسان:
وحَذَوْتُه: قَعَدْتُ بحِذائه. شمر: يقال أَتَيْتُ على أرض قد حُذِيَ بَقْلُها على أفواه غنمها، فإذا حُذِيَ على أفواهها فقد شبعت منه ما شاءت، وهو أن يكون حَذْوَ أفواهها لا يُجاوزها. وفي حديث ابن عباس: ذاتُ عِرْقٍ حَذْوَ قَرَنٍ؛ الحَذْوُ والحِذاءُ: الإزاءُ والمُقابِل أي أنها مُحاذِيَتُها، وذاتُ عِرْقٍ ميقاتُ أهل العراق، وقَرَنٌ ميقاتُ أهل نجد، ومسافتهما من الحرم سواء. والحِذاءُ: الإزاءُ. الجوهري: وحِذاءُ الشيء إزاؤُه. ■



وَقفةُ تأمُّل لأبي الطيب المتنبي

١- تاريخ هذه القصيدة هو زمان إقامة أبي الطيب المتنبي في مصر؛ حيث كان في ضيافة كافور الإخشيدي. ومؤرخو حياة الشاعر يعدون هذه المدة: الفترة الثالثة من مراحل عمره.

وذكرت نسخ ديوان أبي الطيب، ومراجع ترجمته أنه نظم هذه القصيدة في مصر، من دون أن يذكر فيها كافوراً، ومن دون أن ينشده إياها. يشيرون إلى أنها من الشعر الذاتي وأن الشاعر اكتفى بأن باح فيها لذاته عن بعض تأملاته دون أن يشرها في ذلك الحين.

٢- زمان نظم هذه القصيدة وظروف نظمها من حياة الشاعر تكشف عن خلفياتها، وعن المشاعر التي تحركت في نفسه وقت نظمها. ومعلوم أن المتنبي في تلك المدة كان يعاني من «الإحباط» الذي أصابه عند كافور. فقد كان موعوداً بمكانة في دولة الإخشيديين في ولاية يتولاها أو منصب عال يتقلده، وكان قد قال في أول قصيدة لقي بها كافوراً:

وغيرُ كثيرٍ أن يزوركَ راجلٌ
فيرجعَ مَلْكاً للعراقين واليا

ولعله كان اشترط على الوفد الذي فاوضه في المجيء إلى الفسطاط شيئاً من هذا القبيل، ولكن المتولي على دولة الإخشيديين (الأستاذ كافور) لم ينفذ ما وعد به، أو ما أطمعه به الذين دعوه إلى الفسطاط بعد رغبته في ترك حلب وسيف الدولة الحمداني.

٣- صار المتنبي في ضيافة كافور كالأسير لديه، فقد كان يحيطه بالرعاية المادية، وبالمراقبة والإقامة في الفسطاط عنده؛ حتى إن المتنبي بدأ يعرّض بكافور جهراً، ويهجوه سراً.. إلى أن دبر هروبه ليلة عيد الأضحى سنة ٣٥٠هـ.

والذي يتابع أشعاره التي نظمها في هذه المدة يلاحظ تدرج العلاقة بين الشاعر وكافور، نزولاً شيئاً فشيئاً، حتى خاب أمل الشاعر ونفض يديه من أي مطمح في ظل حكم كافور. واستخرج بعض الدارسين منذ أيام ابن جنّي (صديق المتنبي) معاني هجائية وملامح تعريضية ضد كافور؛ في قصائد المديح نفسها، وقالوا إنهم استطاعوا قلب مدائحه في كافور من خلال إيحاءات الألفاظ؛ وظلال المعاني إلى هجاء!

٤- والقصيدة المختارة جاءت في عشرة أبيات فحسب، هكذا نظمها قصيرة، محدودة الأبيات. وجعلها خالصة لغرض الحكمة.

والحكمة موضوع يعجب أبا الطيب ويوافق منهجه الشعري، وأسلوبه في التعامل مع أحوال الناس والدنيا، وسائر مجريات الحياة، وهي حكم استنبطها الشاعر من تجاربه أو ملاحظاته في ما حوله، وفي مَنْ حوله، أو استفادها مما قرأ وسمع وبما تثقف به.

ولا نعرف له قصيدة خالصة لغرض الحكمة غير هذه الأبيات، وهي إلى جانب قيمتها من وراء هذا الغرض تدخل في تقويم (أو تقييم) شخصيته، وتسهم في كشف جانب من سيرته الذاتية، أوتفسيرها: في ذلك الزمان من حياته وفي ذلك المكان (من المواقع التي استقر فيها في رحلة عمره).

٥- ويلاحظ القارئ على النص إيقاعه الهادئ، وصوت الشاعر الخفيض، خلافاً للمألوف منه في معظم أغراض شعره من الحركة والصخب، وضجيج الحياة في أحوالها المختلفة وظروفها المتعددة.

واختار المتنبي لهذه القصيدة بحراً يعينه على ما قصد إليه من التأمل والفكر ووضع القارئ في ذلك الجو الهادئ المسترسل في سكون يوافق ذلك التأمل، وهو بحر الخفيف.

٦- ومن الطريف أن أنقل عبارة في شرح ديوان أبي الطيب المسمى (التبيان) فقد قال: «لقد سَعِدَ أبو الطيب في هذه القطعة، وإنها الدرّة اليتيمة» تنويهاً بقيمتها الفنية والفكرية، ويلاحظ القارئ الكريم أن القصيدة نفيسة بكل المقاييس الفنية والجمالية.

صُحبَة الزّمان

صَحِبَ النّاسُ قَبْلَنا ذا الزمانا ... وعَناهُمْ مِنْ شأنِه ما عَنانا(١)
وتولَّوا بغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْـ ... ـهُ، وإنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أحْيانا(٢)
رُبَّما تُحْسِنُ الصَّنِيْعَ لَيالِيْـ ... ـهِ وَلكِنْ تُكَدِّرُ الإحْسَانا(٣)
وكأنّا لَمْ يَرْضَ فِيْنا بِرَيْبِ الدّ ... هرِ حَتّى أعَانَهُ مَنْ أعَانا(٤)
كُلّمَا أنْبتَ الزّمانُ قناةً ... رَكَّبَ المَرْءُ في القَناةِ سِنَانا(٥)
ومُرادُ النُّفوسِ أصْغَرُ مِنْ أنْ ... تَتَعادى فِيْهِ وَأنْ تَتَفاني!(٦)
غَيْرَ أنّ الفتى يُلاقِي المَنايا ... كالِحَاتٍ ولا يُلاقي الهَوانا(٧)
ولَوَ انَّ الحياةَ تَبْقى لِحيٍ ... لَعَدَدْنا أضَلَّنا الشُّجْعانا(٨)
وإذا لم يكن من الموتِ بُدٌّ ... فَمِنَ العَجْزِ أنْ تكون جَبانا(٩)
كلُّ مالَمْ يكُنْ من الصَّعْبِ في الأنْـ ... ـفُسِ سَهْلٌ فِيْهَا إذا هُوَ كَانا!

(١) وروى: في شأنه، (والمحفوظ: من أمره)، عناه: أتعبه وأهمه.

- يقول: صحب الناس زمانهم قبلنا، وأتعبهم في شأنه الذي أتعبنا (والمراد أن كل الناس يهمهم الزمان).

(٢) المراد بالغصة هنا ما يتجرعه الإنسان من مرارات الزمان.

- يقول: صحبوا الزمان ثم ماتوا بغصّة، لم يبلغوا ما أملوا من الزمان. وإن كان قد أفرحهم حيناً فقد نغصهم أكثر مما أفرحهم.

(٣) الصنيع: الإحسان. ونسب الشاعر الصنيع إلى الليالي مجازاً.

- يقول: إن أحسن الدهر (إن وقع فيه ما يسر) أولاً: كدَّر (وعكر الصفو) وأساء آخراً. هذه عادته، يعطي ثم يرجع، وإذا أحسن لايتم الإحسان.

(٤) ريب الدهر: ما يقع فيه من المكدرات والمزعجات والمصائب. وفاعل «يرضى» ضمير يبينه قوله في آخر البيت: من أعان. يقول كأنه لم يرض بما يصيبني من محنة حتى أعانه عليَّ.

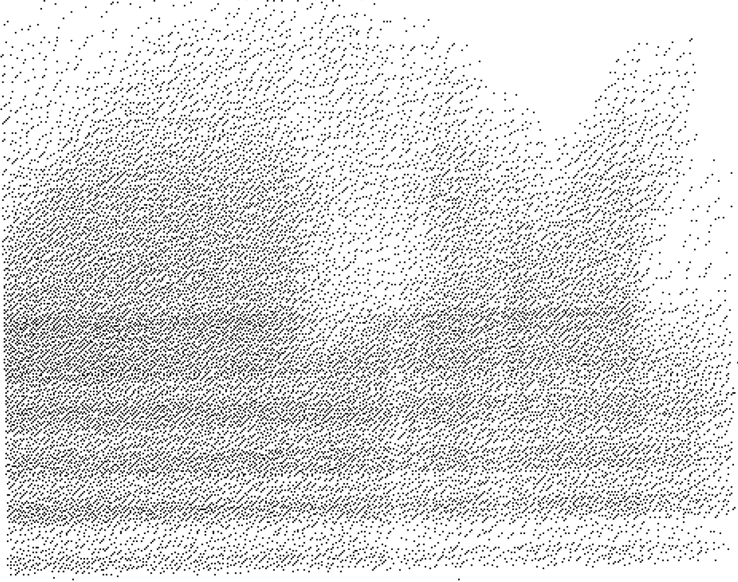
(٥) السنان: الحديدة التي تركّب في القناة (عصا أو قصبة قوية) تتخذ سلاحاً. وضرب ذلك مثلاً. جعل القناة مثلاً لما في طبع الزمان، والسنان مثلاً للعداوة.

(٦) يقول: الدنيا فانية، والمراد فيها فان، وهي أقل من أن يعادي بعضنا بعضاً لأجل مراد النفس، وهو ذاهب فانٍ. وفي البيت نهيٌ عن التحاسد والمعاداة.

(٧) كالحات من كلح: عبس.

- يقول: لقاء الموت الكريه أهون من ملاقاة الهوان والذل. فالحُرُ يرى الموت أهون عليه من الذل.

(٨) لو كان الموت مقصوراً على الشجاع بعيداً عن الجبان لكان الشجاع ضالاً مخطئاً في إقدامه في المعارك لأنه يتعرض للقتل.. ولكن الحياة لا تبقى لشجاع ولا لجبان.



(٩) يقول: إن الجَبان لا ينفعه جُبنهُ، والشجاع لايضره إقدامه وشجاعته، فمن العجز يكون الجُبنُ.

(١٠) كلمة «كلُّ» مبتدأ، وكلمة «سهل» خبر.

- يقول: الأمر الشديد إنما يصعب على النفس قبل وقوعه، فإذا وقع سهل. وقد قال البحتري:

لعمرك ما المكروه إلا ارتقابه ... وأبرحُ مما حَلّ ما يُتوقعُ!

الغَرِيّان

■ أ.د. محمد رضوان الداية

هذا موقع يرتبط فيه التّاريخ بالأدب والشعر، وتنعكس منه صور حياتية غريبة من العصر الجاهلي. وقد صدر عن مُلابَساته شيء من الحكايات والأمثال والأشعار، بقيت من تراث ذلك الزّمان الذي سبق ظهور الإسلام. ولولا الوقائع الكثيرة المرويّة عنه والمأثورة لوقع الظنّ أن ما يضاف إليه من الأخبار أقرب إلى الوهم والخيال. و(الغَرِيّان) كلمة مثناة واحدها غَرِيّ أي مَطْلِيّ بنوع من الطّلاء: الغِراء. وهما بناءان اثنان بَناهُما أحدُ ملوك المناذرة (وهم ملوك الحيرة) قبل الإسلام: المنذر بن امرئ القيس بن ماء السَّماء وقد تسلّم المنذر الحكم بعد أبيه نحو سنة ٥١٤ ميلادية واعترف به كسرى قباذ مدّة ثم عزله سنة ٥٢٩م لامتناعه من الدخول في الديانة المزدكيّة. وعاد إلى الحكم سنة ٥٣١م. وكان شجاعاً انتصر على قادة الرومان أكثر من مرة. وهو باني قصر الزوراء في الحيرة، وباني الغريّين، وهما قصران أقامهما تخليداً لذكرى صاحبين له كان قتلهما في إحدى ليالي شربه. وهو -كما يُروى- صاحب اليومين. كان له يوم بؤس ويوم نعيم (وهو الذي سمّاهما كذلك): كان يُحسن إلى من يطلع عليه في يوم نعيمه، ويقتل من يطلع عليه في يوم بؤسه ولو كان من أقرب أقربائه.

ومن الذين ظهروا في يوم بؤسه الشاعر الجاهلي عبيد بن الأَبْرص الأسدي وقد جاءه مادحاً له، فلما نظر إليه المنذر قال له: هلاّ كان الذبح لغيرك يا عبيد!.. فقال عبيد: «أتتك بحائن رجلاه» فأرسلها مثلاً. والحائن الذي حان حَيْنُه «وقت موته».

وسجّلت الأخبار الأدبية والتاريخية ذلك اللقاء الغريب بين الشاعر الذي جاء مادحاً والملك الذي ينفّذ أوامره التي صارت كالقانون في قتل من يجيء إليه في يوم بؤسه. وسجّلت كتب الأمثال عدداً منها مقالة عبيد في يومه البائس مع المنذر. فقد طلب من عبيد أن ينشده من شعره (في حاله تلك!) فقال عبيد «حال الجريض دون القريض»، الجريض: الغُصّة، والقريض: الشعر. يقال: مات فلان جريضاً أي مغموماً (مجمع الأمثال ١ / ١٩١)، وزاد عبيد فقال: «بلغ الحزام الطُّبَييْن» فأرسلهما مثلين. والطبي لذوات الحافر والسباع كالثدي للمرأة. وإذا بلغ الحزام ذلك الموضع فقد انتهى إلى أبعد غاية. ويقال المثل حين يبلغ الشرّ منتهاه.

وحثّ بعض الحاضرين عبيداً على إنشاد الملك الشعر عسى أن يعفو عنه فقال: «وما قول قائل مقتول»؟ فأرسل العبارة مثلاً، فقال المنذر: لقد أَمْللتني! فقال عبيد: «مَنْ عَزّ بَزّ» أي مَنْ كان ذا سلطة غلب الآخرين، وصارت عبارته مثلاً!..

وقال المنذر لعبيد أنشدني قولك:

أَقْفَر من أَهْلِه مَلْحوبُ
فالقُطَّبِيّات فالذّنُوبُ

وهي من قصائده الجياد؛ فعدل عن ذلك وقال بعد أن هدده الملك بالقتل (في يوم بؤسه):

والله إن متّ ما ضرّني
وإن عشتُ ما عشتُ في واحِدَهْ
فأبلغ بَنِيَّ وأعمامهم
بأنّ المنايا هِيَ الوارده
لها مدّةٌ فنفوس العباد
إليها وإن كرهت قاصِدَه
فلا تجزعوا لحمامٍ دنا
فللموت ما تلد الوالده!

وخبر الشاعر عبيد مع المنذر طويل حافل بالأقوال والأشعار والأمثال. وكان عبيد أحد ضحايا ذلك اليوم المشؤوم من أيامه!

وسجلت الأخبار نهاية قصة يوم بؤس المنذر. فقد نزل بالمنذر في يوم بؤسه رجل من قبيلة طيّئ يقال له: حنظلة، فلما أوشكوا على تنفيذ المعهود في يوم البؤس قال الرجل الطائي للملك:

أبيت اللعن! إني أتيتك زائراً ولأهلي مائراً (أي أطلب الميرة من الطعام والمال وغير ذلك) فلا تجعل ميرتهم ما توردهم عليهم من قتلي. قال له المنذر: لا بدّ من قتلك! فَسَلْ حاجتك تُقْضَ لك قبل موتك. فقال: تؤجّلني سنة أرجع فيها إلى أهلي فأحكم فيهم بما أريد ثم أسير إليك فينفذ فيّ أمرك. فقال له المنذر: ومَنْ يكفلك أنك تعود؟ فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرَف شريك بن عمرو بن شراحيل الشيباني، فقال:

يا شريك يا بن عَمْرو
هل من الموت مَحالَهْ؟
يا شريك يا ابن عمرو
يا أخا مَنْ لا أخا له
يا أخا المنذر فكّ الـ
يوم رَهْناً قد أنى له
يا أخا كل مضافٍ
وأخا مَنْ لا أخا له
إن «شيبان» قبيلٌ
أكرم الناس رجاله
وأبو الخيرات عمرو
وشراحيل الحماله
رَقَباك اليوم في المجـ
ـدِ وفي حُسْنِ المقاله

فوثب شريك وقال للملك: أبيت اللعن! يدي بيده ودمي بدمه، إن لم يَعُدْ إلى أجَلِه.

وهكذا أُطْلِقَ حنظلة. وغاب سنة، وحان الموعد في يومه.

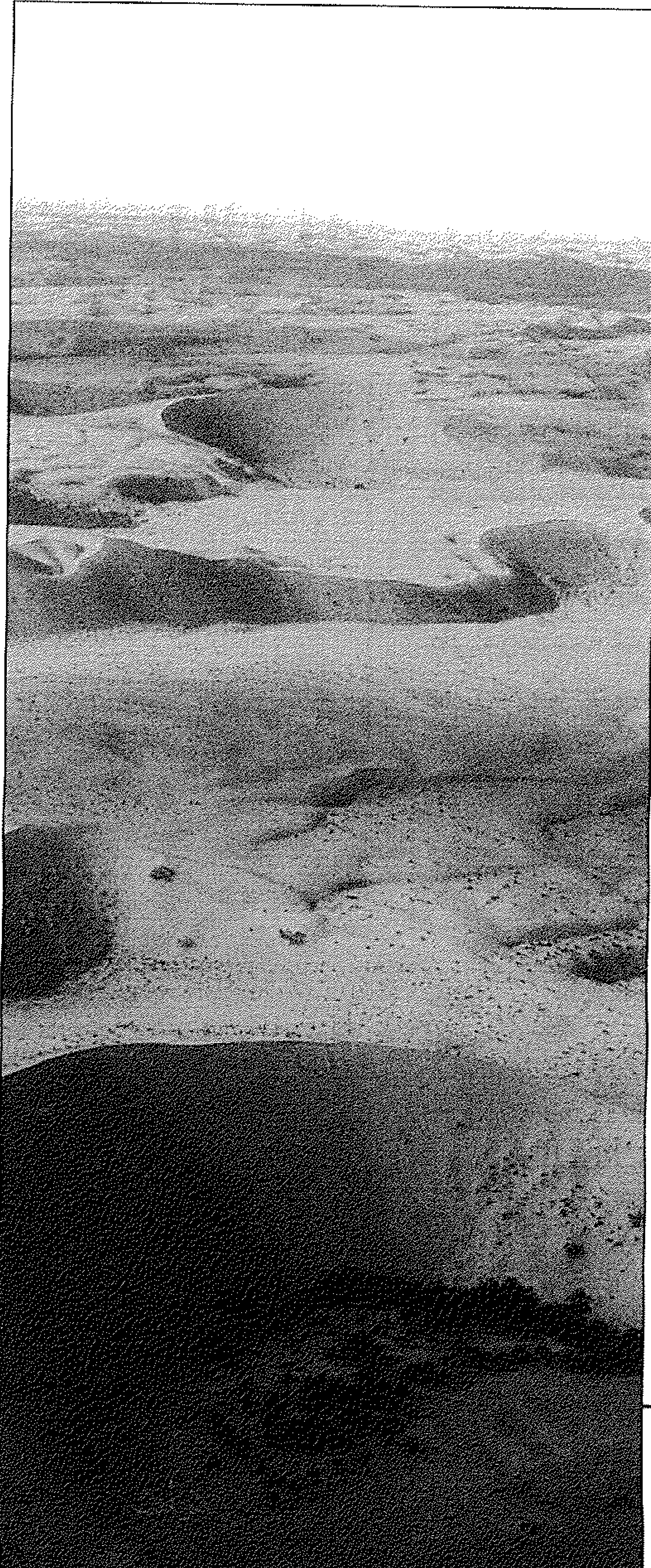
وطال ارتقاب الناس للغائب إلى أواخر النهار حتى يئس أكثرهم من عودته وما لبثوا أن شاهدوا غباراً من بعيد، فلما قرب رأوا حنظلة وقد تحنّط وتكفّنَ ومعه نادبةٌ تندبه. فعجب المنذر من وفائه وقال له: ما حَمَلك على قتل نفسك؟ فقال: أيها الملك إن لي دِيْناً يمنعني من الغَدْر.

قال ياقوت في سياق الخبر (٤:١٩٩) إن الملك المنذر أبطل عادته السيّئة بعد تلك الحادثة، وانْتقَل مع قومه المناذرة في الحيرة عن الوثنية التي كانوا عليها «وكان سبب تنصّره وتنصّر أهل الحيرة في ما زعموا» وعقّب على الخبر فقال: وإنما سُمّيا الغَرِيّين لحُسْنِهما.

وبعد أيام المنذر بزمان طويل مرّ معن بن زائدة الشيباني بالغريّين (وهو من الشجعان القادة الولاة، توفي سنة ١٥١هـ) ورأى أحد هذين البناءين وقد هرمه الزمن، وتشعّث، وتهدّم فوجد في ذلك العبرة، وقال:

لو كانَ شيءٌ له أنْ لا يبيد على
طول الزمان لَمَا باد الغَرِيّانِ
ففرّق الدهرُ والأيامُ بينهما
وكلّ إلفٍ إلى بَيْنٍ وهجران!

وقد مضى زمان الغريّين والعادات الغريبة التي تعلّقت به من المُنْذر ملك الحيرة. وكان في ذلك تسجيلٌ لجانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قبل الإسلام، وهي حياة فيها كثير من الغرائب! ■



صدى الأيام

أغرب امتحان في التاريخ

كان الامبراطور الهندي «أكبر» (١٥٤٢-١٦٠٢م) يفرض على كل مرشح لمنصب رسمي رفيع أن يتبارى ليلاً معه في البولو، وذلك باستخدام كرات من نار.

أشعر الناس

يعد الشاعر الأموي جرير بن عطية الخطفي أشعر الناس، ذلك أن رجلاً قدم عليه يسأله عن أشعر الناس، فقال له: قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه (وكان عطية أبوه بخيلاً إلى حد وضيع) وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها، فصاح به: اخرج يا أبتِ، فخرج شيخ ذميم، رثّ الهيئة، وقد سال لبن العنز على لحيته، فقال جرير للرجل: أترى هذا؟ قال: نعم، قال: أو لا تعرفه؟ فقال: لا، قال: هذا أبي، أفتدري لم كان يشرب اللبن من ضرع العنز؟ قال: لا، قال: مخافة أن يُسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن، ثم قال: أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به ففلّهم جميعاً.

ضمادة ونبوءة غريبة

كان الجنرال ليسيماخوس (٣٥٦-٢٨٢ قبل الميلاد) في خدمة الاسكندر الأكبر، وقد أصيب بجرح في رأسه بفعل سهم، فعمد ذو القرنين إلى وقف نزف الدم بوضعه تاجه على رأس القائد ليسيماخوس. وبعد وفاة الاسكندر أصبح ليسيماخوس ملكاً وحكم تراقيا طوال ٢٨ سنة.

أنقذه البرقع

كان الشاعر توبة بن الحميّر يتعشق ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن سرحال (ابن الرحالة) وقد جاء يخطبها من أبيها فرفضه، وزوجها رجلاً من بني الأدلع على غير رغبتها، وظل توبة يتردد عليها حتى بعد زواجها، فشكاه أهلها وقوم زوجها إلى السلطان فأباحهم دمه إذا أتاهم في ديارهم. فترصدوه يريدون قتله، وكان من عادة ليلى أن تلقي توبة واضعة على وجهها برقعاً، وكانت ذات يوم على موعد معه قادماً إليها، فرابطت له في طريقه تنبهه إلى الخطر الذي يحدق به، وكان أهلها وقوم زوجها يكمنون له، فلما رأته، رمت برقعها، فعلم أن في الأمر شيئاً غير عادي، فرجع مسرعاً إلى راحلته ومضى، فتبعوه دون أن يظفروا به. وفي ذلك يقول توبة:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابني منها الغداة سفورها.

حلم يدين رجلاً

أُعدم نائب القنصل والحاكم العسكري الروماني ابيوس سيلانوس، لتآمره على قتل صهره، الامبراطور كلوديوس، بناء على شهادة عبد يدعى نرسيس حلم أنه شاهد المتهم يحاول قتل الامبراطور.

أصل نظام البريد

يرجع نظام البريد المنظم العام والذي هو أصل البريد الحاضر إلى الخطوات

التي سارها نظام البريد في الصين منذ ٣٠٠٠ سنة، وما استخدمه الفرس والرومان والعرب في الامبراطورية الإسلامية. فقد كان هناك مراكز للبريد في أنحاء البلاد، وكان هناك حملة للبريد إما سيراً على الأقدام سيراً حثيثاً، وإما ركوباً على ظهور الحيوان كالخيل والحمير والجمال. فإذا سار حامل البريد إلى مركز من المراكز تبادل البريد مع هذا المركز، فأعطاه ما يحمل ورجع بما عند ذاك، وذاك بدوره يسير بما أخذه إلى مركز ثالث فيتبادل البريد مع هذا المركز الثالث فيعطيه ما يحمل ويرجع بما عنده، وهكذا. فلم يكن على حامل البريد أن يسير المسافة كلها، بل كان يقتسمها بينه وبين حملة البريد الآخرين وفي المراكز الأخرى المبنية على الطريق. وقد بقي هذا النظام معمولاً به لمصلحة الدولة ولأعمال القادة ونقل أوامرهم مدة طويلة. ولم يتحول هذا النظام إلى نظام يستخدمه عامة الشعب في تراسلهم إلا بعد اكتشاف أمريكا، وبعدها بقليل اتبع في ألمانيا في ولاية ثورن وباكسس (نظام البريد الأوروبي).

أما سرعة إرسال التحارير وكبر الكمية ورخص الأجر، فقد قام بها للمرة الأولى في تاريخ الإنسانية دوكورا سنة ١٦٨٠م في لندن، فقد وضع دوكورا كميات من صناديق البريد في أنحاء لندن، فكان يجمع البريد كل ساعة ويسلمه عشر مرات في اليوم. وكان يضمن كل رسالة، ولو بلغت قيمتها مبلغ ٥٠ دولاراً، بالسعر الرخيص العادي نفسه. وكانت الرسائل قبل إصدار الطوابع تختم بخاتم الشركة إثباتاً بدفع الأجرة.

ولكن بعد مدة من الزمن أخذت الحكومات على عاتقها أمر البريد وتخلت عنه الشركات التجارية خطوة خطوة حتى أصبح بيد الحكومات. وكانت الأجرة مرتفعة، وكانت التحارير أو الرزم تختم بخاتم المدينة أو المركز التابع لدائرة البريد والختم يذكر تسديد الأجرة واسم البلد.

معبد بساق واحدة

بنى الملك لي تاي طون سنة ١٠٤٩م في هانوي بالصين، معبداً بساق واحدة وذلك نتيجة حلم رأى فيه إلاهة ذات ساق واحدة. وقد بلغ تأثير هذا الحلم في نفسه أنه قطع إحدى ساقيه، وتزوج ملكة بساق واحدة، وأسس بلاطاً كان كل رجال حاشيته بساق واحدة، وأخيراً بنى ذلك المعبد بساق واحدة.

معركة أجنادين

وقعت هذه المعركة سنة (١٥هـ - ٦٣٥م) عندما بعث الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص من أجل فتح فلسطين، وكان أهلها على بينة من نوايا عمرو فاستعدوا لمقاتلته، وحشدوا قواتهم وعُددهم.

دارت المعركة في شرقي القدس عند أجنادين، وكان المسلمون بقيادة ابن العاص والروم بقيادة أربطون وقد انتصر المسلمون بعد معارك طاحنة وخسائر شديدة من الطرفين. وتعد موقعة أجنادين أهم المعارك التي مهدت السبيل لفتح القدس الشريف ذلك المكان المنير الذي عرج منه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى السماء ليرى ما رأى من آيات الله الكبرى.■

محمد رجب السامرائي

المراجع :

١- كاميليا سلوم عكاوي: كشكول المعارف والعلوم، دار الحرف العربي، ط١ بيروت، ٢٠٠٠م.
٢- محمد العايدي: موسوعة بنك المعلومات «١-٢»، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.
٣- حمدو طماس: أهم الأحداث التاريخية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.
٤- سمير شيخاني: التاريخ الصغير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
٥- خليل البدوي: صدق أو لا تصدق، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.



■ د. فالح حنظل

في حياة الشعوب وقائع وأحداث كبيرة.. شكلت بصمات لا تنمحي من ذاكرتها.. ولأهميتها ولتأثيرها اتخذتها الشعوب تأريخاً لها.. فيقال: فلان ولد في سنة الجراد.. وفلان توفي في سنة السيل، وفلان تزوج في سنة الزلزال.

ولأهمية تلك الأحداث ومغزى اتخاذها تأريخاً.. قررنا أن نفتح صفحاتها لنتعرف عليها.. لأنها جزء من التاريخ.

«سنة الطبعة»

يستعمل أهل الخليج العربي لفظة طَبَعَ يَطْبَعُ بمعنى غَرَقَ يغرقُ في الماء أو في المشاكل والأحداث. فيقال: «طُبْعَتْ السفينة» أي غرقت في الماء، ومن أمثالهم: مَنْ طُمَعْ طُبَعْ» أي من زادت مطامعه غرق في مشاكلها وَمَثلٌ آخر يقول: «طبعانه وهوّس (ع) التريجة» أي أن السفينة تغرق وفلان يضغط برجله على (التريجه) أي حافتها لكي يُسرع في إغراقها ويضرب المثل بمن يسعى لزيادة المشاكل وتعقيد الأمور كالمثل الفصيح «يزيد الطين بلّه». ومثلٌ ثالث يقول: «إما طلعتْ وإلاّ طبعتْ» ويضرب في استعمال العقل وتوخي الحذر، فإما نجاح وسلامة أو فشل وغرق، ورابع يقول: «نوخذين في سفينة طبّعوها» أي أن (ناخذين) بمعنى ربانين في سفينة واحدة تسببًا في غرقها، ويضرب إذا تعددت الرؤوس المدبرة والزعامات واختلاف الرأي مما يؤدي إلى الفشل في المشاريع والإدارات، كالمثل الفصيح: «من كثرة الملاحين غرقت السفينة».

وسنة الطبعة، هي سنة حدث فيها طوفان عظيم جاء من البحر أهلك خلقاً كثيراً وأغرق أراضي واسعة، وحطم سفناً كثيرة في عدة مناطق من الخليج العربي. وترد هذه السنة في ذكريات أهل الخليج العربي وينقلون عن أجدادهم أخباراً مروعة عما حدث في موانيهم ومدنهم الساحلية وسفنهم التي كانت تمخر عباب البحر وغرقت كلها. غير أن أحداً من الرواة لم يحدد السنة التي وقعت فيها هذه الطبعة عدا ما جاء في تاريخ الكويت، أنها حصلت في عام ١٢٨٨هـ الموافق لعام ١٨٧٠م، ولم يذكر الكاتب تفاصيل تشفي غليل الباحث لمعرفة ما حدث بالضبط. ولكن ومن خلال أبحاثنا في تاريخ الخليج العربي وجدنا أن الطبعة لم تقع في سنة واحدة حدث فيها ذلك الطوفان المدمر، كما أنه لم يغمر ساحل الخليج كله مرة واحدة وإنما غمره عدة مرات في سنوات متفرقة.

وبالنسبة لمنطقة الإمارات فإن الطوفان العظيم الذي حدث فيها، وقع في إمارة رأس الخيمة، وكل ما نعرفه عنه هو ما ورد في أبيات شعر للماجدي بن ظاهر قال

فيها:

لـفـي الأرض ديم لـفـهـا آخـر الـعـشـا
لـفـي والى الـوديـان عَـجّـل حـدورهـا
لـفـي الأرض وأحـيـا نـبـتـهـا بـعـد مـوتـهـا
مـن الـعشب مـا يـعـدا بـه الـضـان هـورهـا
كسـاهـا ثـيـاب الـزيـن مـن بـعـد غبره
إذ الـطـل فـاح الـقـايـنـي مـن عـطـورهـا
تَـصَـدى مجاري جـارح السـيـل كـنـهـا
مـيـالـيـح أرض دفّـق الماء مـدورهـا
سـرى مـثـل زي بـالـقـنـا واشـعـل السـنـا
وبـانـت جـبـال الشـرق مـن نـورهـا
تسـعين ألـف مـن المعيرض بـرهـدوا
مشـروكـةٍ مـا بين مسـلـم وقـورهـا
وإلى نـخـيـل الحيـل جـتـهـا مسـايـل
عـواويـنـهـا قـد غـرق الماء جـذورهـا
وغـطّـى حـمـال الـبـكس واشـتـل عـومـه
كسـا رووسـهـا حـط الـغـفـا في غـدورهـا

إن التمعن في أبيات هذه القصيدة التي وردت باللهجة العامية يلاحظ أنها لا تتحدث عن طوفان جاء من البحر، بل عن طوفان وقع نتيجة هطول الأمطار بشكل هائل بحيث أغرقت الأرض ووصل منسوبه إلى أن غطى المنطقة من بلدة معيريض إلى بلدة الحيل في إمارة رأس الخيمة.

ففي الأبيات الأربعة الأولى وصفٌ جميل وهادئ كيف أن الديم أي المطر انحدر إلى الوديان، وكيف أنه أحيا نبتها وعشبها فاكتست الأرض بثياب الزين، وفاحت رائحة الطل نتيجة لتدفق المياه. غير أن الشاعر أعطانا صورة أخرى عن هطول الأمطار بحيث غدا كارثة هلك فيها الألوف من البشر فهو يصف لنا لظى البرق ونوره بأنه جعل الليل نهاراً بحيث بانت جبال الشرق، ثم يتحدث عن تسعين ألف شخص (برهدوا) أي هلكوا وهم من المسلمين ومن عيدة (الغور) أي غير المسلمين. وبما أن هذا الرقم يبدو غير معقول، لذا فإن بعض المفسرين لهذا البيت قالوا: لعله تسعون وألفاً بدلاً من تسعين ألفاً، ثم يستمر بالوصف وكيف أن السيول وصلت إلى منطقة الحيل بحيث أغرقت جذور عواوينها، أي نخلها العالي، كما غطى الماء (البُكس) أي صغار النخيل.

هذا الحدث الكبير الذي ورد في شعر ابن ظاهر لم نجد من تكلم عنه من الرواة من أهل رأس الخيمة، كما أن ابن ظاهر لم يؤرخ له بحيث نعرف السنة التي وقع فيها، كما أن هلاك هذا العدد الكبير من الناس سواء كانوا تسعين ألفاً أم ألفاً وتسعين فهو رقم لو صح حدوثه ووقوعه لرسخ في الأذهان ولتناقلته الأجيال.

غير أننا من خلال متابعاتنا للوثائق البريطانية، وجدنا ما يشير إلى وقوع هزات أرضية وعواصف بحرية شديدة وقعت خلال عامي ١٨٨٣-١٨٨٤م، وأدت إلى تلاطم أمواج البحر وهيجانه بشكل مخيف، فخلال العامين وقع في جزيرة (القسم) المتاخمة للبر الإيراني والتي تقع مقابل إمارة الشارقة هَزّات أرضية مروعة هلك فيها (١٣٢) شخصاً، وتم تدمير قرية اسمها (سنكو)، وتتابعت موجات الزلزال فضربت رأس الخيمة، ومما لاشك فيه هو أن هذه الزلازل تسببت في تدافع أمواج البحر نحو البر، وفي ذلك العام أيضا ولعله في الوقت نفسه هب إعصارٌ على ساحل الباطنة في عُمان مع هطول أمطار غزيرة بحيث أدى إلى غرق مدينة الرستاق وتدمير الآلاف من أشجار النخيل وغرق سفن كثيرة، ولم تكتف الطبيعة بذلك، فبعد عام أي في سنة ١٨٨٥م، هب إعصار شديد على ميناء بندر عباس الإيراني فأغرقه، ثم لم يلبث أن اتجه نحو الساحل الغربي فضرب البحرين وأغرق مدينتي المنامة والبحرين ودمر كل السفن الراسية هناك، ولابد أن تلك السنة كانت (سنة الطبعة) عند أهل البحرين وساحل الأحساء، ولا ندري إن كانت هي الحادثة التي قصدها ابن ظاهر في شعره. أما بالنسبة لموقع الإمارات بالذات وتعرضه إلى عواصف وفيضانات بحرية، فقد جاء في (دليل الخليج) أنه في عام ١٨٩١م هبت عاصفة شديدة على ساحل الإمارات، وأزالت أسقف المنازل واقتلعت الأشجار، ودمرت المراكب في المراسي ولم يعطنا الدليل خبراً أو توضيحاً أكثر من هذا. ولعل أشد وأكبر حادث وقع في منطقة الخليج العربي أثار موجات بحرية هائلة هو الزلزال الثاني الذي ضرب جزيرة (الضحة)، فيحدثنا الدليل بأنه في يوم ١١ / ١ / ١٨٩٧م وقع زلزال في الجزيرة أحال عاصمتها بلدة (باسيدو) وبقية مدنها إلى خرائب بحيث لم يبق قائماً فيها إلا مسجدان وأربعة مبانٍ، بينما تم رفع (١٦٠٠) جثة من تحت الأنقاض، وفي تلك السنة أيضا ضرب إعصار مروّع مدينة مسقط والمناطق المجاورة لها، ودمر السفن الراسية وأغرق الشواطئ واقتلع الأشجار. وهكذا نجد أن صفحات التاريخ ذكرت لنا طرفاً من حوادث بحرية وفيضانات وطوفان ضرب منطقة الخليج العربي بحيث كانت

(سنوات طبعه) وليست سنة (طبعة واحدة). ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو ما أورده الأستاذ محمد عبد الجليل الفهيم في كتابه الممتاز من (المحل إلى الغنى) كيف أن إعصاراً بحرياً وأمطاراً كثيفة هطلت على جزيرة أبوظبي أيام المرحوم الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان، بحيث غطى الماء أرضها، فكان يتنقل وأصحابه بين البيوت بقارب صغير صنعوه بأنفسهم. وفي عام ١٩٧٠ وكنت شاهد عيان يوم هبّ إعصار شديد من جهة البحر باتجاه أبوظبي العاصمة، صاحبه سقوط حباتٍ من البرد والحالوب، ولم تلبث أن ارتفعت أمواج البحر وصارت تصطدم بالساحل، وكان الكورنيش القديم قد تم بناء قسم منه مالبث أن حطمته الأمواج الهائلة التي كانت ترتفع إلى علو عشرة أمتار، حينما تصطدم بجداره واندفعت المياه لتصل إلى المنطقة التي فيها فندق (زاخر) وسينما (المارية) في يومنا هذا، إذ لم يكن شارع خليفة قد تم فتحه يومذاك.

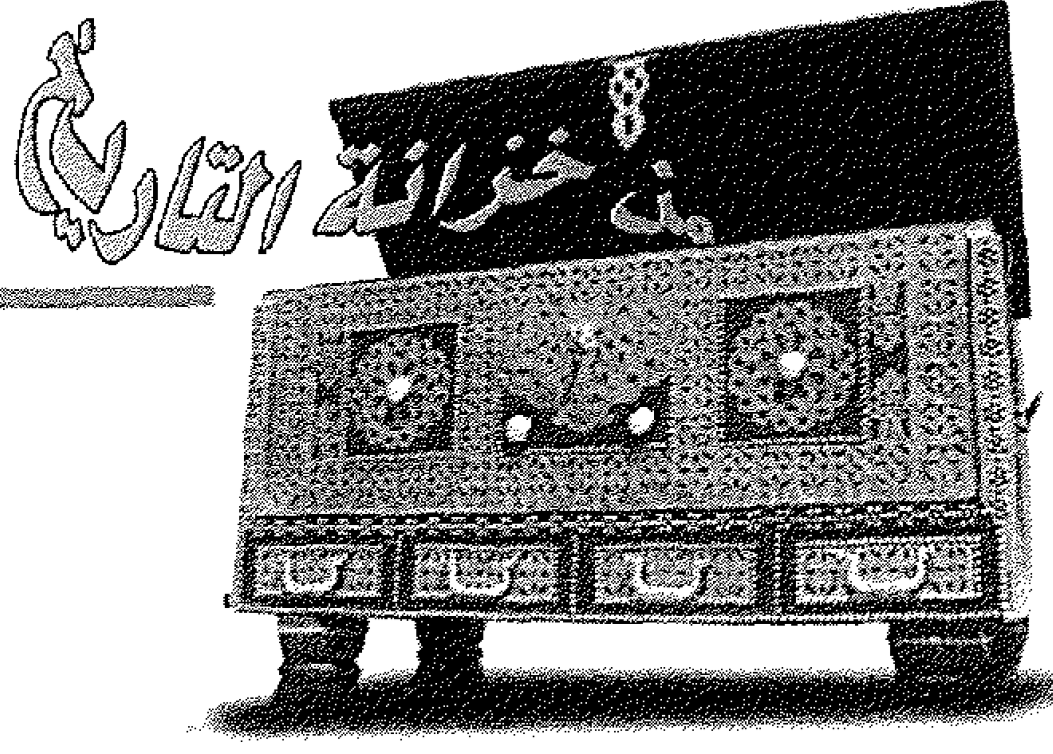
وقد أثار المنظر المرحوم الشاعر خميس محمد علي المزروعي، فنظم قصيدة عامية يعاتب فيها البحر الذي سبب ذلك الخراب بعد أن كان قد عَقَدَ عهداً معه بألاّ (يطيش) أي يثور، ثم يتوعده بأنه سيبني (حاجز عود) لكي يكون سوراً يحمي المدينة، فقال:

طـاش الـبـحـر وطـمّ الحدود
ونسـي الـعـهـود الأولـيـه
سـرت أسـأل قـال تـكـلـم بـهـود
إن الـهـوا زايـد عـلـيّ
واطـيش لي مـن هَـبَّـت الـنـود
وزادت وصـار الموج عـيّـه
قـلت بـيـنـي وبـيـنـك صـارت عـهـود
كـذبت يـا خـايـن خـويّـه
بـاحـط لك عـمـال وجـنـود
ومـكـايـن تشـتـغـل قـويـه
وبـاطب لين الحاجـز الـعـود
وبـاحـط لك سـور وبـنـيّـه

وفي تاريخ الوقائع السعودية هناك سنةٌ تعرف باسم (سنة وقعة الطبعة)، وقد حدثت في عام ١٢٧٧ هـ الموافق لعام ١٨٦٠م، وكان الحاكم يومذاك الأمير فيصل بن تركي السعود، وقد نافسه على الحكم الشيخ راكان بن فلاح بن حثلين زعيم قبيلة العجمان. وكان هذا المنافس فارساً وشاعراً مشهوراً، فحشد الطرفان قواتهما للقتال ووقع الالتحام قرب قرية (الجهراء) في الكويت، وتقدمت سرايا الأمير فيصل فأجبرت سرايا الشيخ راكان على التقهقر نحو البحر، فغدت بين نارين، جنود فيصل والبحر، لذلك ألقى معظمهم بنفسه في اليم وغرق. وقيل إن عدد الغرقى تجاوز الألف، ومما يذكر عن هذه المعركة هو أن الشيخ راكان الذي نجا من الغرق كان يحمّس رجاله للقتال وهو يقول:

يـا قـومـنـا مـا مـن صـديـق
جـمـعـين والـثـالث بـحـر
والـلـه لا فـتـح لـهـا الـطـريـق
لـعـيـون بـراق الـنـحـر

فهو يصف الموقف بأن هناك جمعين متقاتلين والثالث بحر، ثم ينتقل في البيت الثاني فيقسم بالله بأنه سيفتح الطريق لكي يلتقي بحبيبته براقة النحر.■



مدينة هزمت إمبراطوراً !!!

■ أ.د. عبد الرحمن علي الحَجِّي *

دارت بالأندلس لفترة رَحى فتن ومحن اقتحمت ساحتها عَنْوَة، ليوضع لها حد بمجيء الداخل للأندلس. وهو عبد الرحمن بن مُعاوية بن هِشام بن عبد الملك، صقر قريش، بوصوله إليها سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م. فاجتمع عليه الناس وبويع بالإمارة في قرطبة نفس العام. بدأ الداخل -من خلال طاقاته ومؤهلاته وحسن سياسته- جمعَ الإمكانيات والخبرات والتجارب، بإقرار الأوضاع وبناء دولة مُركَّنة مُوَحَّدة متماسكة.

كانت على الجانب الآخر -خلف الجبل في فرنسا وما بعدها- الدولةُ الرومانية المقدسة، إمبراطورية فتية قوية يقودها شارلمان harlemagne شارل الكبير، أقوى ملوك الأسرة الكارولنجية (Carolingian Dynasty) ، لم يرقه أن تقوم دولة مسلمة في أوروبا تجاوره. فَزَيَّنَت له سلطتُه إسقاطها وإلحاقَها إمبراطوريتَه، في وقتٍ تَبِع انتصارَه على قبائل السكسون، قويةِ الشكيمة الثائرة عليه. واتفق أنّ بعضَ ولاةِ المقاطعات الأندلسية الشَّمالية، لا سيما برشلونة Barcelona وسَرَقُسْطَة Zaragoza شقوا عصا الطاعة على قرطبة Cordoba ، أرسلوا وفداً إلى شارلمان يستدعونه لمهاجمة الأندلس وأخذها، فجهز شارلمان جيشاً ضخماً من جميع مناطق الإمبراطورية، قاده بنفسه.

وعند وصوله الجبال (البرت، وليس البرانس) قَسَّم جيشَه قسمين: قسماً يقوده بعض قادته: يعبر إلى الأندلس شرقاً (على البحر المتوسط) ممّر باربنيانPerpignan ، وقسماً يتولاه هو يجتاز ممر رُنشفالهRoncesvalles ، (باب الشَّيْزْرا) في الغرب، ليلتقيا عند مدينة سرقسطة (شمال شرق مدريد ٣٢٥ كيل) التي كان واليها مشاركاً في دعوته، لكن ضميره صحا لهول هذه الخيانة، فغيّر موقفه وحصن المدينة ضد حملة شارلمان، مستعداً ومرتباً مصمماً للدفاع عنها.

ولمدة شهر من الحصار، باءت محاولات شارلمان بالفشل، فلم يفلح في دخول المدينة. وتجمعت عليه هموم الفشل وغيرها، فعاد بكل جيشه من المعبر الغربي. وبينما هو في وسطه وقعت له الكارثة الكبرى، هاجم الجيش الأندلسي - ربما بالتعاون مع سكان الشمال- مؤخرتَه وفيها خيرة قادته فأفنوها، واستنقذوا مَن فيها مِن الأسرى والغنائم، ولم يستطع عمل شيء وهو يشهده بعينه محسوراً لضيق الممر وصعوبة الحركة فيه حيث لا يسمح بالمرور إلا للفارس بعد الفارس. وكان بينهم أشهر قادته، منهم رولان Roland الذي نُظِمَتْ حوله الكثيرُ من الأغاني الشعبية في العصور الوسطى الأوروبية، معتبرة إياه بطلاً قومياً، منها أنشودة رولان الشهيرة (La Chanson de Roland) ولا يزال قبره هناك مكتوباً عليه تاريخُها عام ١٦١هـ - ٧٧٨م.

وهكذا عاد شارلمان خائباً، نتيجة الوقفة الكريمة التي ظهرت وهزمت الفرقة والخيانة، التي رُدَّت في نحورهم وظهورهم ودبورهم. فأدرك شارلمان بعدها استحالة هذا الأمر الوهم، فمال إلى طلب السلم مع الأندلس، وأرسل سفارة لذلك بل وعرض على عبد الرحمن الداخل المصاهرة التي اعتذر عنها وقَبِل السلم بمعاهدة وُقِّعَت بينهما.

وهكذا ترى كيف أن الخيانة والعمالة تجلب أكبر الأذى، لكن بالالتزام والفهم يتم الالتئام، فلا يستطيع أحد الاقتحام ولا يتم الإتيان من الداخل.

والأمل كل الأمل -إن شاء الله- أن يتم تفهم ذلك والتعلم منه والاعتبار له. وهو بعض المطلوب من وراء كل هذه الحكايات، وهو من ا لأهداف المهمة لدراسة التاريخ عموماً.■

* أستاذ التاريخ الأندلسي- مدريد



حكايات واقعية من الحياة يرويها:

■ خميس بن زعل الرميثي

ومن الحب ما قتل

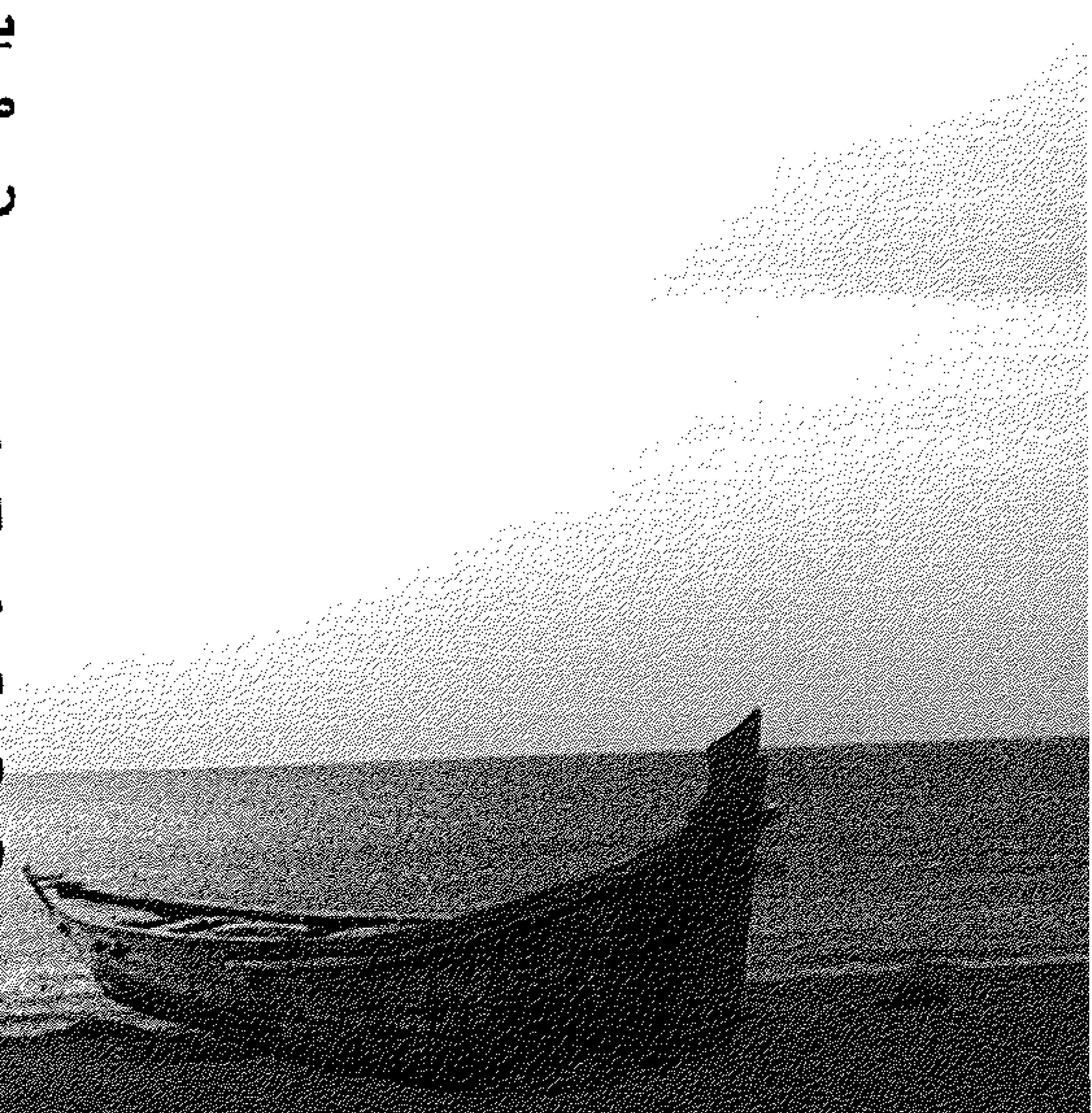
يقول خميس راشد بن زعل الرميثي: هذه قصة سمعناها عن أجدادنا وآبائنا.. وتناقلها الناس جيلاً بعد جيل.. وهي قصة شخص اسمه سعيد بن كديدة. سعيد تنافس مع أحد رباعته على حب فتاة جميلة.. ويبدو أنه شعر بقرب فوز صديقه بتلك الفتاة فأضمر في نفسه شيئاً.. وبينما هما عائدان بحمولة تمر على ظهور الركاب حيث الصحراء حولهما ولا من رقيب ولا حسيب إلا الله سبحانه وتعالى.. غدر سعيد برفيقه فقتله ووارى جثته في الصحراء.. وذهب لأهل القتيل يبكي قائلا: إنهما وبينما كانا يسيران صوب أبوظبي.. فزعت الناقة.. فسقطت جونية التمر على رأس صاحبه فكسرت رقبته ومات على الفور.. ولم يجد بداً من دفنه في الصحراء.. أهل القتيل لم يقتنعوا بكلام سعيد.. فذهبوا إلى كبيرهم وعرضوا عليه الحكاية.. وبدون تفكير وجد أن الكلام غير منطقي ولا يعقل.. فطلب منهم الذهاب والكشف على الجثة ليتبينوا حقيقة الأمر.. وهناك.. كانت الصاعقة.. فقد وجدوا ابنهم مقتولاً بالرصاص بعدة طلقات في ظهره.. فأمر الشيوخ بإلقاء القبض على سعيد لينال جزاء فعلته وغدره برفيقه.. وكان القصاص هو الحكم العدل.. وفي اليوم الموعود جاء الناس من كل مكان.. وسلم الشيوخ سعيداً مكتوف اليدين لاثنين من أهل القتيل ليقتصوا منه.. تقدم أحدهم وكان يحمل خنجراً.. لكن يبدو أنه خانته شجاعته فأخطأ الضربة.. ففر سعيد هارباً.. فعاجلة الثاني بطلقة من بندقيته فأخطأته.. ويقول الرواة: إن جري الخائف أسرع من جري الخيل الجموح.. فما هي إلا ثوان حتى اختفى سعيد عن الأنظار رغم أنه مقيد اليدين.. طلب أهل القتيل من الشيوخ حصاناً ليلحقوا به.. لكن الشيوخ رفضوا قائلين: لقد سلمناكم إياه وأفلت منكم فلا يحق لكم متابعته.

الشاعر غانم بن قنبر وصف ما حدث قائلا:

بن كديدة لا عدم شوفه ... يعل من رباه في الجنة
يوم شاف الموت بيحوفه ... انهزم والبيض يربنه
طار عنهم طيرة الصوفة ... حضرة الأملاك شلنه
رد يمعه يصفق كفوفه ... وافتشل بسلاحٍ يسنه

وعلقت الشاعرة بنت شملان بقولها:

بن كديدة خطْيَّه الرامي ... راعي الخنير ما زچاها
لو قبضها واحد غلامي ... كان كل ارض ابلعت ماها
مر سامي والبحر طامي ... لن شما وين لاقاها
فكته من حبس لروامي ... سلم من ماها وحمّاها
والعيوز تصيح وتعامي ... في الخلا وتهَيَّضْ انْعاها
والخوات يصيحن بزامي ... كم عذرا شقت ارداها



فر سعيد هارباً مثل الصاروخ عابراً عباب البحر حتى لاقى من هم أهل العزم والنخوة ليفكوا رباط يديه.. بينما كانت أمه تبكي وأخواته يصحن عليه بالتناوب.. فر سعيد بعد أن كتب له عمر جديد.. لكنه لم ينل حظه من حبيبته. ■

اقرأ في العدد القادم:

- النفوذ العثماني في الساحل المتصالح
- حرق المخطوطات الإسلامية على مر العصور
- خان الخليلي في مصر يتنكر للباني ويخلد الجاني
- الهواري.. شاعر المدينتين
- الساعات الدقاقة إبداع إسلامي سبق الزمن
- الحماة والكنة.. هل هي عداوة مستحكمة؟!!

«الصورة من خان الخليلي بمصر»



جمال التراث..   (تصوير: فؤاد الحرازي- اليمن)

تراث